المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

سوء نهج إسبانيا أو منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس

[مقاربة سوسيو أنثروبولوجيّة]

تحرير وتنسيق
سفيان جاب الله

رابط الشّريط الوثائقي للدّراسة

FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

سوق نهج إسبانيا، أو منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس

[مقاربة سوسيو أنثروبولوجيّة]

تحرير وتنسيق

سفيان جاب الله

إعداد

مجموعة من الباحثين

FTDES

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

تحرير وإشراف :
سفيان جاب الله

إعداد مجموعة من الباحثين :
قائمة المؤلفين (كاتبي المحاور)
سفيان جاب الله
زياد خلوفي
زياد حمدي
خالد طبابي
رضا كارم
إحسان مجدي
محمد سليم بن يوسف
مالك قطاط
آدم مقراني

تدقيق لغوي
رضا كارم

متابعة المشروع
قسم الدراسات والبحوث
(عن المنتدى التونسي
للحقوق الإقتصادية والاجتماعية)

– البحث الميداني الكمي
أمير صميدة (مشرف وباحث ميداني)
سيف ماجري (باحث ميداني)
عماد شكري (أخصائي إحصائي)

– البحث الميداني الكيفي
اسكندر بن عمر (الباحث الاتنوغرافي)
أمير صميدة (إجراء المقابلات النصف
موجهة والبيوغرافية)
هالة ماجري (رقن المقابلات)

السوسيولوجيا عبر الصورة
تصوير وإخراج: **نوردين أحمد**
مونتاج : **أسامة صالح**
صوت : **سفيان جاب الله**
ترجمة : **مهدي الشريف**

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
شارع فرنسا، 1000 تونس / باب البحر
الهاتف: 71 325 129
الموقع الإلكتروني: www.ftdes.net

تصميم وإنجاز الرسوم والغرافيك
EDITIONS ALFINIQ
Tél: 31 567 819
www.alfiniq.tn

فهرس

مقدمة عامة		
توطئة/إشكالية منهجية العمل تقديم موجز للمحاور	المُحَرِّرْ	6
المحور الأول : مداخل مكثّفة من أجل قراءة مغايرة لظاهرة الاقتصاد الشارعي بنهج اسبانيا		
مدخل 1 :(غرافيك) بورتريهات مرسومة	المُحَرِّرْ و ت. عمران	29
مدخل 2: مفاتيح سوسيولوجية لقراءة ظاهرة الاقتصاد الشارعي في سوق نهج إسبانيا	المُحَرِّرْ	43
المحور الثاني: مقاربة تاريخية للنهج		
العنوان :نهج إسبانيا : التأسيس والظاهرة الاقتصادية	زياد خلوفي	79
المحور الثالث: مقاربة خرائطية		
العنوان :نهج إسبانيا / مُعتمديّتا سبـيـبة وجـلـمة: مقاربة خرائطيّة	زياد حمدي	97
المحورالرابع: مقاربة سوسيو-تاريخية		
العنوان :التاريخ السوسيو-اقتصادي واستمرارية ديناميكية التهميش وعوامل الطرد بالوسط الغربي: ولايتي (ولايتا) سيدي بوزيد والقصرين مثالا	خالد طبابي	121
المحور الخامس: مقاربة علم اجتماع العمل		
العنوان: نهج إسبانيا والانتصاب المنظم : الاقتصاد السياسي والأخلاقي للديناميات الجماعية بين العمل المربح والتمثيل النقابي	محمد سليم بن يوسف	147
المحور السادس: مقاربة تشكيل الذكورات		
العنوان : البائع المنتصب في سوق نهج إسبانيا بين ذكورة الأنموذج وذكورة الآخر	رضا كارم	171
المحور السابع: المقاربة الأنثروبولوجية		
العنوان :بريكاريا نهج اسبانيا: مقاربة أنثروبولوجيّة للاقتصاد الشارعي في تونس	إحسان مجدي	199
المحور الثامن : مقاربة علوم الصحة		
العنوان :نصابة نهج اسبانيا: هشاشة صحية بين مطرقة المخاطر المهنية وسندان غياب التأمين على المرض	مالك قطاطا	227
المحورالتاسع: المقاربة القانونية		
العنوان :نهج إسبانيا أو عندما يعجز النص القانوني عن استيعاب الظواهر الاجتماعية	آدم مقراني	249
خاتمة عامة		
1 – اتنوغرافيا	اسكندر بن عمر	265
2 – ملاحظات للقارئ	المُحَرِّرْ	281
3 – وثائقي البحث		283

مقدّمة
عامّة

في قلب العاصمة تونس، في شريان الأنهج الخلفية للشارع الرئيسي، شارع الحبيب بورقيبة، يقع سوق نهج إسبانيا اللانظامي أو الذي لا تعترف به الدولة. وحين نسأل أي مواطن في تونس اليوم عمّا يخطربذهنه حين نذكر نهج إسبانيا، فسيتحدث قطعا عن سوق عشوائية فيها سلع رخيصة في متناول المستهلك المنتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا والفقيرة، وفيها باعة يفرون يوميا من البوليس.

وسيجد القارئ المهتم بالبحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية أو الباحث فيها، والذي يمر من المكان نفسه، بعد أن يقرأ هذه السطور، في كل مكان من نهج إسبانيا ما وجدناه من وضعيات جعلتنا نسمي هذا البحث «سوق نهج إسبانيا أو منهاج الاقتصاد الشارعي في تونس». فهل هي سوق؟ نعم هي كذلك بكل ما للكلمة من معنى اقتصادي وتجاري. هل لهذه الظاهرة الاقتصادية منهاج خاص يجعلنا نسميها اقتصاد شارع أو اقتصادا شارعيّا؟ نعم. هل هذا المنهاج، الّذي يتضمّن سيرورات فردية، وسط كل متكامل، ينتج واقعا فريدا؟ هل هؤلاء هم فقراء وهامشيون، عاطلون/معطلون عن العمل لجؤوا إلى هذه المهنة، وهل هي مهنة؟ أم هل هم تجار وعملهم هو التجارة لكنهم اتّخذوا شكلا تقليديّا لا يخضع للتقسيم الرسمي للعمل ولا يعجب الدولة وقوانينها الحديثة وسياستها التحديثية؟ هل هي مشكلة حتّى يكون واجبا علينا أن نجد لها حلا؟ سيُحاول هذا البحث الجماعي أن يُجيب عن كل هذه الأسئلة وعن مسائل أخرى سواها.

تاريخيا، ظهر البحث السوسيولوجي حول ما سمي بـ«المشاكل المجتمعية» مع مدرسة شيكاغو بدايات القرن العشرين، لدراسة ظواهر الفقر والهجرة والانحراف التي كانت في قلب الدراسات الأمريكية التي نشرت في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية ما بين سنتي 1920 و1930 حول ما أطلق عليه «شعب الهامشيين (le peuple des

taudis) أو الذيـن يعيشـون خارج القواعـد والنظام في وضعيات هشـة»[1]. ورغـم مقاربتها لـوزن العامـل الاقتصادي فـي إنتاج الفقـر الحضري واتبـاع سـلوكات»منحرفة/انحرافية»، فلقـد اعتبرت مدرسـة شـيكاغو أن السـبب الرئيسـي يكمن فـي التحول من مجتمـع تقليدي إلـى مجتمـع حديـث. وذلـك مـا أطلـق عليـه «زنانينكـي» و«إسـحاق تومـاس» الاضطراب الاجتماعـي أي عدم وجـود أي تأثير للقواعد والضوابـط الاجتماعية للسـلوكات على الأفراد[2].

ويذهـب «ويليـام فـوت وايـت» في نقـده لهـذه المقاربـة عبر دراسـته الشـهيرة بعنوان «Street Corner Society»، إلـى اعتبـار ما يسـمى خروجـا وانحرافا عن السـائد والمعتاد والمتفـق عليـه عرفـا أو بالقانـون، إنمـا هـو ردة فعـل بـل وتأقلـم مـن قبـل الفقـراء مـع وضعياتهـم ومكانتهـم الهشـة فـي الهامـش ضمـن مجتمـع رأسـمالي تتعالى فيـه النزعة الفردانيـة والتراتبيـة الطبقيـة[3]. ويعتبـر وايـت أن الفقـراء لا يشـاركون فـي المؤسسـات القائمـة بسـبب خوفهـم وشـكهم وريبتهـم مـن المجتمع الـذي يقصيهـم ويسـتغلهم حتى حيـن يدمجهـم، وليـس لكونهـم غيـر قادرين علـى التنظـم الاجتماعـي أو رافضيـن له. من خـلال هـذا التأطيـر السوسـيولوجي يضع هذا الباحـث مفهوم «ثقافـة الفقـر»[4]. وهي ثقافة تخـص العائـلات بالغرب كما فـي العالم الثالـث، ولا تصفالأوسـاط الشـعبية ككل، بل تعني العائـلات التـي تعانـي مـن الفقـر والبطالـة وسـوء التشـغيل وانعـدام المسـاعدات من أي طـرف سـواء كان حكوميًّا أو غيـرَ حكومي. وهكـذا فإنّ هـذه الثقافة تخـص المقصيين من المنظومـة الاقتصاديـة الرسـمية ولا تعنـي المندمجين في هـذه المنظومة كعمـال المصانع مثـلا الذيـن هم مـن بيـن أكثـر الفئـات انضباطـا للمعاييـر والقواعـد والقوانيـن[5]. على أنّ الإشـكال فـي هـذه المقاربـة على الرغـم من أهميـة ما تخلصـت إليـه، يتمثّل في أنّهـا تقدّم

1 Cortado Thomas, « L'économie informelle vue par les anthropologues », *Regards croisés sur l'économie*, vol. 14, no. 1, (2014), pp. 194–208

2 Idem

3 WhiteFoote William, Street Corner Society : *La structure sociale d'un quartier italo-américain*, (Paris : Éditions La Découverte, 2002), pp 15–100

4 Idem

5 Idem

تصوراجوهرانيّا يقوم على التأسيس لاعتراف بوجود بون طبيعي بين طبقة الفقراء والطبقات العليا. ويولّد هذا التّفاوتبطبعه بونا اقتصاديا واجتماعيا شاسعا بين الطّبقات بما يجعل الفقراء في فقر دائم. وهذا يطرح إشكالا سياسيّا بامتياز: فإذا كانت ثقافة الفقر ليست ناتجة عن اضطراب بل هي نظام خاص مختلف، فما الداعي لتغييرها؟

لقد مهّدت بحوث مدرسة شيكاغو كبحوث ويليام فوت، لظهور مقاربات «التخلف الاقتصادي أو ضعف التنمية/النمو» حيث الفكرة القائمة على وجود تضاد بين قطاع مدمج في المنظومة الاقتصادية الحديثة وقطاع آخر يتم إفراده[6] فعليا، وهنا يتضح صواب هذه المقاربة، كما يفسر ذلك «توماس كورتادو»[7]، فإنّ النزوح الريفي الناتج عن الطفرة الاقتصادية ما بعد الحرب العالمية الثانية فاقم من عدد العمال الفقراء دون عمل قار في المدن الكبرى للعالم الثالث. فلقد دافع منظرو التحديث عن كون «القطاع التقليدي» الذي يستوعب الفلاحة البسيطة وباقي الأنشطة التي تسمى اليوم موازية، سيتم احتواؤه واستيعابه من قبل «القطاع الحديث»، فقط حين يقوى الاقتصاد الرسمي .من جهة أخرى، دافع المنظرون المنطلقون من مقاربة «الهامش»، عن نظرة أكثر تشاؤما. إذ اعتبروا أن الزبونية السياسية والتزايد السلبي/العقيم لليد العاملة المؤهلة وتزايد صعوبات التأقلم مع نمط عيش المدينة، كلها عوامل تساعد على ديمومة ما يسمى بالقطاع التقليدي أو اقتصاد الهامش بصفته قطبا اقتصاديّا[8].

وبالحديث عن الفقر والفُقراء، يجب أن ننتظر سنة 1973 مع بحوث «كيث هارت» الإتنوغرافية في غانا لتتم مراجعة التعريف الماركسي لـ«اللّمبن بروليتاريا» أو «البروليتاري الرث» في العالم الثالث بما هي طبقة مكونة من العاطلين عن العمل. إذ تخلص «كيث هارت» إلى كون البروليتاري الرث ليس عاطلا عن العمل بل يكرس الكثير من وقته وجهده في أنشطة لا تحصى ولا تعد لا ترصدها أعين الخبراء الاقتصاديين

6 Thomas Cortado, op.cit.

7 Idem

8 المرجع نفسه

والأجهـزة البيروقراطيـة[9]. فقـط العيـن الإتنوغرافية قـادرة، عبر سـبر أغوار الحيـاة اليومية للنـاس العادييـن، علـى فهـم ما سـماه بـ«فـرص الدخل غيـر الرسـمية» أي الأنشـطة التي تولّـد مداخيـل خـارج الاقتصاد الرسـمي الذي تنظمـه الدولـة والمؤسسـات الكبرى[10].

مؤطررقم1:

تاريخية الفقر في تونس

في الإطار نفسه، وبالحديث عن البروليتاريا الرثة، في تونس، ما بين *1881* و*1956*، حسب ما يذكره الهادي التيمومي، كان للهشاشة الاقتصادية والاجتماعية شكلان مختلفان. إذ فرق هذا المؤرخ بين ما سماهم ب» العناصر الشعبية» و«الهامشيين»[1]. فأن تشترك الفئتان في ضآلة نصيبهما من الثروة فتختلفان في علاقتهما بالموارد والعمل والمجتمع والدولة. فتتمتع العناصر الشعبية بموارد محدودة لكنها موارد قارة أو شبه قارة. وكانت تتعاطى أصنافا من المهن يصعب حصرها. وكانت تقسم السوق بقوة الأواصر التضامنية التي تشد بعضهم لبعض، وتتميز بالقدرة على تجميع المال وتحمّل شظف العيش. ويسوق التّيمومي مثال «المهاجرين الجنوبيين» كـ«القوابسية» الذين اشتغلوا في مهن النقل، و«العكارة» الذين اشتغلوا في المقاهي و«الغمراسنية» الذين اشتغلوا في محلات الفطائر و«الدويرية» الذين اشتغلوا في الحراسة[2]. أما الهامشيون فهم أولئك الذين يقبعون في القاع البائس للمجتمع والذين رفضوا، إراديا أو لا إراديا، مؤقتا أو بصفة متواصلة، القواعد والسلوكات التي كان يقوم عليها المجتمع. هؤلاء، حسب التيمومي، ليسوا مرتبطين بقطاعات إنتاج وخدمات منظمة وهم على استعداد لبيع قوة عملهم مقابل أجر، لكنهم لا يجدون من يشتريها في أغلب الأحيان لأنهم يعيشون خارج التقسيم الرسمي للعمل[3].

1 الهادي التيمومي، **تاريخ تونس الاجتماعي: 1881-1956**، (صفاقس: دار محمد علي الحامي)، 2021، ص 203-204
2 المرجع نفسه
3 المرجع نفسه

يتخلـص كيـث هـارت لكـون عبـارة اقتصـاد رسـمي أو نظامـيّ هـي نتـاج لتصـور بيروقراطـي لـكل مـا له علاقـة بالشـكل والقاعدة التـي يبني عليهـا أي اقتصاد والـذي يراد أن يكـون تصـورا كونيـا للحياة الاجتماعيـة. هذا التصور أنتـج نظاما عقلانيـا مقننا ومهيمنا

9 المرجع نفسه
10 المرجع نفسه

ولكنه أنتج أيضا اقتصادا غير رسمي وتقليدي يقاومه [11]. ومع بداية الثمانينات ظهرت تسميات أخرى كالاقتصاد الشعبي أو الاقتصاد التضامني لتعريف الاقتصاد غير الرسمي أو غير الحديث، بأكثر من كونه غير خاضع لشكل قانوني وإداري ينظمه. فالاقتصاد التضامني مثلا يحيل إلى أنشطة اقتصادية تهدف إلى خدمة المصلحة العامة، حتّى وإن كانت تنطلق من مبادرات فردية وتخير الفائدة الاجتماعية على الربح. أما الاقتصاد الشعبي فيشمل المهن الصغيرة داخل القطاع غير الرسمي، وهي مهن ذات طابع سلس وغير معقد وهي بالأساس عائلية. سوسيولوجيا، يصف الاقتصاد الشعبي الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه كثافات سكانية بأكملها في «اللانظامي واللارسمي».

في سياق بحثنا الأولي عن النظريات والمقاربات التي يمكن أن تؤطر هذا الشكل من النشاط الاقتصادي الموجود في نهج إسبانيا، تعرضنا لمفاهيم أخرى كالاقتصاد التحتي. هذا المفهوم ورغم إمكانية اعتماده في فهم جانب مما يحدث بين الحدود التونسية والجزائرية وصولا إلى العاصمة، أي مسالك التهريب والتوزيع ثم البيع باعتباره محطة أخيرة، إلا أنه يُعتمد بالأساس في فهم اقتصاد المخدرات والتهريب المرتبط بالمافيا والجريمة المنظمة. وحتى مصطلحات اقتصاد شعبي أو تضامني أو لا نظامي على الرغم من قدرتها التفسيرية، لا يمكن من خلالها تأطير ظاهرة الانتصاب الفوضوي في سوق عشوائية تحول، بمرور الزمن، إلى انتصاب منظّم وسط الفوضى وإلى سوق ثابتة وقائمة الذات رغم لا قانونيتها وسيولتها يوميا بسبب مطاردات البوليس للباعة ورغم اعتراف غير علني للدولة بوجود اقتصاد لا تفهمه وإن فهمته فهي لا تريد أن تعترف به. فسوق نهج إسبانيا وباعتها المطاردون من قبل البوليس على متن عربات خشبية تجرها عجلات مطاطية (البرويطة) أو حاملين لعلب «الكردونة» أو لبسائط البلاستيك (الباش)، منتهجون لنظام اقتصادي «آخر» / «مختلف» ومنتجون له. وهو اقتصاد يحتاج ربما لزمن من الانتظار كي يتحقق: انتظار الدولة والباحثين، وانتظار منوط أيضا بحركة التاريخ الذي تعسفت عليه تجربة التحديث وحتى أقلام الحداثيين من باحثين ومفكرين. في انتظار ذلك، توصّلنا، بعد الانتهاء من البحث الميداني ثمّ الببليوغرافي، لتسمية مُثلى لما يحدث في سوق نهج إسبانيا: اقتصاد شارعي.

11 Cortado, Thomas, op.cit.

يشـير مصطلـح الاقتصـاد الشـارعي(street economy)، كما تناوله كيـث هارتKeith Hart، الـذي صـاغ مصطلح الاقتصاد غير الرسـمي، الى النشـاط الاقتصادي الـذي لا يرتبط الفاعلـون فيـه «بآليـات الاقتصـاد الرسـمي للدولـة». أي أنـه خارج عـن الآليـات الضبطية للبيروقراطيـة الرسـميّة. وهـو اقتصـاد لا يعيش داخلـه معظـم النّـاس، أي أن أغلبية الناس يعيشـون داخـل الاقتصاد الرسـمي الذي يتّسـم، علـى عكس الاقتصاد الشـارعي، «باتسـاق نظامـه» والتواتـر الـذي يمكن التنبؤ بـه، أي أنّ الاقتصاد الرسـمي يخضع لواجبـات منتظمة تفرضهـا السـلط الضريبيـة الرسـمية مثـلا، ويشـعر الفاعل فـي الاقتصاد الرسـمي»بحس السـيطرة» الـذي تنتجـه الرواتب الشـهرية والمعامـلات الماليـة المنظمة والائتمـان والغطاء الصحـي[12]. ولا يعنـي هـذا أنّ الاقتصـاد الشـارعي اقتصـاد غيـر منظّـم، أي أنّنـا عندمـا نُسـلم بـأن الاقتصـاد الرسـمي اقتصـاد منظّـم لا يعني هـذا ضرورة بأنّ أشـكال الأنشـطة الاقتصاديـة الأخـرى فوضويـة لا يحكمها نظـام من نوع ما. لذا، نشـير هنا الـى أنّ مصطلح الشـارع لا يعنـي فـي سـياق هـذه الدراسـة المجـال المرتبـط حصـرا بالجريمـة والجنحة والسـلوك الانحرافـي. لقـد تناولنا هذا المصطلح، أي الشـارع، في سـياق رمزيته السياسـيّة والاجتماعيـة ومـا يتيحـه من مسـاحة ينتج الأفـراد فيهـا أنظمة وآليـات اقتصاديـة خارجة عـن تلـك التـي تحدّهـا الدولـة. ففـي نهـج اسـبانيا يصبـح الشـارع فضـاءً ينتـجُ نظاما داخليـا مـن خلال شـبكة علاقـات قرابيـة ومن خـلال تفاعـل الباعـة المتجولين مع بعض أجهـزة الدولـة الرقابيـة. أي أنّ الشـارع، الـذي قـد يحيـل على نشـاط اقتصـادي فوضوي، يسـتحيل فضاء انتـاج نظام وعلاقـات اقتصادية تحكم السـوق وتضبط للفاعليـن فيه أدوارا وواجبـات وتحـدّد حقوقهـم أيضـا. لـذا، تُقـارب هـذه الدراسـة الشـارع مقاربة تشـبه الى درجـة مـا مقاربـة آصـف بيـات للشـارع أو «سياسـات الشـارع»[13] التـي تمكننا مـن تتبّع الاسـتراتيجيات الاقتصاديـة والسياسـية للفاعليـن – الباعة المتجولين في سـياق دراسـتنا- وعلاقتهـم بالدولـة. فالشـارع، كمـا تتناوله هذه الدراسـة، فضـاء يمكن للباحـث أن يُلاحظ

12 كريس هان وكيث هارت، **الأنثروبولوجيا الاقتصادية: التاريخ والإثنوغرافيا والنقد**، ترجمة عبد الله فاضل، (الدوحة: المركز العربي للأبحاثودراسة السياسات،2014)، ص23.

13 Asef, Bayat, *Street PoliticsPoor People's Movements in Iran* (New York: Colombia University Press, 1997).

فيه تشابك الاقتصاد والسياسة والتجارب الاجتماعية للباعة المتجولين من جهة وحضور الدولة من خلال بعض أجهزتها من جهة أخرى. فيكون الشارع بذلك فضاءً تلتقي فيه البنى السياسية political structures (الدولة في هذه الحالة) مع فاعلية البائع المتجول ويصبح الشارع فيه زاوية نظر تمكننا من الخروج عن زاوية نظر الدولة التي تُهيمن على تمثلاتنا للاقتصاد والسياسة. فإن كانت الدولة ترى الاقتصاد إما منظما أو غير منظم، أو رسميا وغير رسمي من خلال معايير تضبطها هي، فإن نهج اسبانيا، واقتصاده الشارعي، يدعونا لإعادة التفكير في هذه الثنائيات والحدود المفاهيمية.

في الختام، يجب الإشارة إلى إنّ الهدف من هذه الدراسة ليس تعريف طبيعة الاقتصاد القائم في نهج إسبانيا، بل إنّ الهدف البحثي هو بالأساس وصف وتفسير وفهم لماذا وكيف صار هؤلاء بصفتهم الفرديّة والجماعيّة، باعة في هذا المكان وبهذه الطريقة. وفي هذا المستوى، نسعى إلى فهم هذا الاقتصاد من خلال معيشهم وتمثلاتهم وكذلك تفاعلاتهم اليومية لنشكل واقعهم ونعيد بناءه ونرسمه لا كما يرسمه الحسّ المشترك أو كما تفترضه، دون معرفة إمبيريقية، «الدوكسا» السائدة في حقل البحوث العلمية، بل كما هو عليه واقعه فعلا. وفي الختام وجب القول إن هذه الظاهرة لا تحتاج لتسمية أو تعريف جديدين بقدر ما تحتاج لفهم جديد. وهذا ما نرنو إلى تقديمه في هذا المشروع البحثي الذي سنشرح، فيما يلي، السبل المنهجية التي اعتمدناها للإجابة عن إشكاليته.

لماذا هذا البحث وكيف أنجزناه؟

بعد إقامتنا[14] لمدة ثلاث سنوات في شقة مطلة على نهج إسبانيا بوسط مدينة تونس، وبعد معايشتنا لكل تفاصيل اليومي في هذا الفضاء الذي زِيدت إلى طبيعته التجارية المقننة، سوق للتجارة غير النظامية، أُسِرْنَا بمجموعة من الأسئلة حول هذا العالم الفريد الذي اختبرنا كل معالمه مواطنا مقيما وحريفا. ثم أردنا اختباره باعتبارنا

14 (نتحدث عن تجربة منسق البحث الذاتية)

باحثيـن في علـم الاجتماع. وبتبني المنتدى التونسـي للحقـوق الاقتصاديـة والاجتماعية لهذا المشـروع البحثـي، لتقاطعـه مع أهدافه بمـا هو منظمة تطالـب بالعدالـة الاجتماعية وتعمل علـى جعـل مطلـب تحقيقها ممكـن عمليا عبـر عدة وسـائل من بينهـا البحوث والدراسـات، صـار إنجـاز هذا البحـث ممكنـا. وإلى جانـب الدافـع الذاتي وتقاطعـه مع الخـطّ النضالي للمنتـدى، فـإن خصوصيـة ظاهرة الانتصـاب التجاري غير المنظـم في الشـارع، دفعتنا إلى محاولـة مقاربـة هـذا الموضـوع فـي تونس مـن جهة أخـرى. وهكـذا جعلنا هـذه الظاهرة مشـكلا بحثيـا بامتيـاز يدفع نحـو إنجاز بحـث سوسـيولوجي موضوعي يفصل بيـن كل ما يمكن أن نسـتبطنه من مواقـف وتمثلات ضديـة أو متعاطفة مع هؤلاء الباعة/المسـتجوبين، وبيـن مـا ينطق بـه الميدان مـن مكنونـات إمبيريقية.

وبالحديـث عـن الموضوعية العلمية لا يمكـن لبحث كهذا، وإن كان موضوعيا في دراسـته للظاهـرة، أن يكـون محايـدا. والبون شاسـع بيـن الموضوعية والحيـاد. إذ إن اختيـار هكذا موضـوع لدراسـته هـو فـي حـد ذاته ناتـج عـن تمثـل معيـن للواقع بـل وموقـف ضمني منـه. وفـي حالتنـا، هناك خلفيـة نقدية لتدخـل الدولـة والسيسـتام الاقتصـادي ككل القائم منـذ عقـود، لا فقـط فـي التعامل مـع الظاهـرة دون فهمهـا أصلا، بـل التدخل فـي إنتاجها والتسـبب فـي تطورهـا ثـم المـرور لمحاربتهـا مباشـرة. لكننـا، وحتّـى لا نسـقط في فخ مقاربـة إيديولوجية لهـذه الظاهرة قمنـا بوضعنـة (objectivation participante)علاقتنا بهذا الواقع لنتمكن من دراسـته لا دراسـة حدسـنا ومعتقداتنا عنه[15]، وفككنـا الدوافع الذاتية والموضوعيـة، كمـا بيناه أعلاه، ثـم اعتمدنا مقاربة إبسـتيمولوجية/ سوسـيولوجية لا تنطلق مـن فرضيـات مؤطـرة نظريـا جاهـزة إجاباتها وخاضعـة للدوكسـا المهيمنـة علـى حقـل البحـث العلمـي حاليا.وفـي تواصل مع هـذه المنطـق البحثي، اعتمدنـا مقاربـة إمبيريقية-اسـتقرائية (empirico-inductive)[16] انطلقنـا من خلالها بطرح أسـئلة بحثية دون تحديد

15 Jacques Hamel, « Qu'est-ce que l'objectivation participante ? Pierre Bourdieu et les problèmes méthodologiques de l'objectivation en sociologie », Socio-logos [En ligne], 3 | 2008, mis en ligne le 24 mars 2008, consulté le 13 février 2022. URL:http://journals.openedition.org/socio-logos/1482; DOI : https://doi.org/10.4000/socio-logos.1482

16 Pierre Pailléet Alex Mucchielli, « Chapitre 1 – Choisir une approche d'analyse qualitative », in : *L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales*, sous la direction de PierrePailléet Alex Mucchielli,(Paris : Armand Colin, 2012), pp. 13-32.

فرضيـات نظريـة وذلك لشـح البحـوث حـول الموضوع مـن جهة، ولاعتبـار هـذه الظاهرة مركبـة ومعقـدة وتتطلـب انغماسـا ومحايثة لفاعليهـا، أي الباعـة غير النظاميين، من جهة أخرى.كمـا تتطلّـب جمعـا لأكبـر كـم نوعي/كيفي ممكـن من المعطيـات وذلك باسـتنطاق إمبيريقـي للواقـع المـدروس وجعلـه يبـوح بكل مـا يحتويـه دون تحديده بحـدود تفرضها اعتقاداتنا/أفكارنـا عنـه. وقدأثبتـت هـذه التجربـة الميدانيّـة أن أغلـب مـا يقال ومـا يكتب ومـا قيـل أو كتـب عن هـذه الظاهرة هو مـن سـبيل «الفانتازمـات» أو الأسـاطير إن لم تكن وصمـا أحيانـا ووسـما إيديولوجيا أحيانـا أخرى[17].

وبالتالـي، اخترنـا منهجية البحث، وتقنياته، حسـب تمشّ منهجي مجدد اسـتلهمناه من مقاربـة الباحثـة في علـم الاجتمـاع ناتالي هينيـك[18]. إذ تعتبر هـذه الباحثة السوسـيولوجية أنـه لا توجـد منهجيـة في حـد ذاتهـا أفضل مـن منهجية أخـرى. إذ تقـاس جـودة منهجية معينـة وفاعليّتهـا بمـدى تأقلمهـا والقـدرة علـى تطويعهـا مـع ما هو منشـود مـن البحث. ومـا هو منشـود، بل مـا يحب أن يكون منشـودا مـن وراء أي بحـث ميداني، هو سـبر أغوار الإشـكالية البحثيـة وحلّهـا. وتعتبـر ناتالـي هينيـك أن كلَّ بحث ميدانـي لا يتـم اختزاله في موضـوع البحـث وميدانـه، يجب أن يسـتطيع تقديـم إجابة شـافية ووافية عن سـؤال مركب وهـو: أي إشـكالية وأي منهجية[19]؟

إنّنـا نعتبـر أن التحديـد الدّقيق لموضـوع البحـث وإشـكاليته وميدانه ومنهجيتـه يمكّن الباحـث مـن الانطـلاق علـى أسـس صحيحـة فـي دراسـته لظاهرة مـا. أمـا بالنسـبة إلى المفاهيـم والنظريـات، فهـذا التمشـي السوسـيولوجي القائم علـى تمفصل الركائـز الأربعة السـالفة ذكرهـا، ينتج نماذجـه النظرية ومفاهيمه أكثر مـن كونه تطبيقالنمـاذج جاهزة قبل الشـروع فـي البحثأو اختبـارا لها[20]. وتذهـب ناتالـي هينيك بهـذا التصور الإبسـتيمولوجي

17 سنتطرق لكل هذه التفاصيل في المدخلين الأول والثاني من الدراسة

18 NathalieHeinich, « Objets, problématiques, terrains, méthodes : pour un pluralisme méthodique », *Sociologie de l'Art*, vol. ps910, no. 2-3, (2006), pp. 9-27.

19 Idem

20 Idem

قدمـا حيـن تعتبـر أن المقاربة الإبسـتيمولوجية التي تضـع المفاهيم وتحددها قبل الشـروع فـي البحـث الميدانـي، تفقـد الديناميكيـة الضرورية لجعـل الباحث قـادرا على سـبر أغوار مناطـق لم تكتشـف بعد أو أنماط تفكير غيـر متوقعة[21]. وتضيف الباحثة أن الإبسـتيمولوجيا القديمـة والسـائدة فـي الآن نفسـه، أي إبسـتيمولوجيا الانطـلاق مـن نظريـات قديمة لبحث واقـع جديـد، يجـب أن تقلب، على غـرار ما فعلتـه الماركسـية بالجدلية الهيغلية، رأسـا على عقـب بـل ووضعها علـى أقدامهـا البحثية الأربعـة ألا وهي: الموضـوع والإشـكالية والميدان والمنهج[22]. وهـذا تمـش مسـنود، كما توضح ذلـك ناتالي هينيـك، في تاريخ السوسـيولوجيا بأشـهر الأعمـال البحثيـة لأكبر علمـاء الاجتماع مـن مختلف المـدارس والمراحـل التاريخية: كتـاب الانتحـار لدوركهايم وكتـاب أطر التجربـة الاجتماعية لإرفينـغ غوفمان[23].

وبالعـودة إلـى دراسـة الاقتصـاد الشـارعي، الاقتصـاد الخـارج عـن سـيطرة الدولـة ومؤسسـاتها وحتـى عن سـيطرة رأس المـال المنظـم وعلاقاتـه الإنتاجية، اقتصاد الشـارع المتمثل في سـوق نهج إسـبانيا العشـوائية وظاهرة الباعـة غير النظاميين فيهـا، أي بالعودة لبحثنـا عن إجابات سوسـيولوجية لسـؤالي: كيف صـار الباعة باعة بهذا الشـكل بالذات وفي هـذا المكان بالـذات؟ ولماذا اختاروا هذه المهنة؟ سـرنا فـي ركاب التعدديّـة. فجاءتمناهجنا متعـدّدة، وتولّـدت منهـا تقنيـات متعـدّدة لجمـع المعطيـات، فشـكّل هـذا التّعـدّد ضرورة منهجيـة. وإذا كان البحـث عـن الأسـباب والشـروط والمحـددات الاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة والتاريخيـة والمجاليـة المنتجة لهـذه الظاهرة قد قادنـا إلى تبنّي مقاربة سـببية تطلّبـت بدورهـا بحثـا كميا عبـر تحديد عينـة من المجتمـع الأصلـي واسـتبيانها، هو بحث قـادر علـى تقديـم تشـخيص عام وتفسـير سـببي واسـع، إلّا أنّـه ليـس كافيا لفهم سـؤال: كيـف صار هـؤلاء الأفـراد باعة في هـذا المـكان دون غيرهـم من الذيـن لديهـم «البروفيل» السوسـيولوجي نفسـه؟ فليـس كل الشـباب المخفـق فـي مسـاره التعليمـي والعاطـل عن العمـل والـذي يعيـش دخـولا متأخـرا في سـن الرشـد قد تحـول إلى هـذا النشـاط.وفضلا

21 Idem

22 Idem

23 Idem

عـن ذلـك، لم يمتهـن أغلبية الشـباب في الوسـط الغربـي هذه المهنـة. فهناك إذن مسـارات فردية/بيوغرافيـة تخـص الـذوات تجعـل فـردا بعينه مرشـحا أكثر مـن غيره ليصيـر بائعا غيـر نظامـي بسـوق نهج إسـبانيا في مراوحـة بين التسـيير البنيـوي والخيـار الفردي.

1- المقاربة التفسيرية/ المنهجية الكمية: في « بروفيل» البائع غير النظامي والأسباب والعوامل والمحددات الاقتصادية والاجتماعية لهذه الظاهرة.

قمنا طيلة شـهر، بتعمير 100 اسـتمارة اسـتبيان مـع الباعة غير النظاميين بسـوق نهج إسـبانيا وذلـك علـى امتـداد فضاءاتـه مـن تقاطعـه مع شـارع الجزيـرة وصولا إلـى آخره مـن جهـة محطة برشـلونة ونهج هولنـدا[24]. ينتصـب هـؤلاء المسـتجوبون، أي كل بائع غير نظامـي، للبيـع فـي إحـدى المسـاحات (مـن متـر إلـى متريـن مربع علـى أقصـى تقدير) عبـر إحـدى أدوات/وسـائل البيـع المعتمدة (كرتـون مقوى، رقعة بسـاط بلاسـتيكي، عربة خشـبية أو المراوحـة بيـن أداتيـن أحيانا) يمثلـون ثُلُـث مجتمع الدراسـة الأم المقـدر، بعد ملاحظـة كميـة للواقع لمدة أسـبوعين، بـ300 فرد.

24 المزيـد مـن المعطيـات حـول سوسـيولوجيا المـكان في المحـور المخصـص للتشريـح الخرائطـي للنهـج والمحـور المخصص لتاريخيـة الظاهـرة الاقتصاديـة فيـه

مؤطررقم 2: الملاحظة الكمية/تكميم الواقع:

مبدأ تكميم الملاحظات الإتنوغرافية صار متداولا بكثرة خاصة في إطار البحوث الميدانيّة التي تنجز في ميادين العمل. الملاحظة الكميّة تقوم على شكل «هجين» من التمشي الإمبيريقي تمكّن من إظهار زاوية مختلفة في الموضوع المدروس[4].

إبستمولوجيا،تولّدتهذه التقنية البحثّية من تصوّر قائم على «النظريّة المتأصلة» أو «الاستقراء التحليلي»، ومرتكز على مرونة المناهج المتموقعة في وسط عمليّة التعديل ما بينما هو نظري وتكوين ما هو نظري[5].

الملاحظة الكميّة باعتبارها شكلا مخصوصا من «السوسيولوجيا المرئية»، هي تقنية جمع معطيات تقوم على ألّيّة عدّ وحساب بالصّورة أو الفيديو، وفي موضوع دراستنا، أضفنا الحساب بالعين المجرّدة كما اعتمدها «كوفمان» في دراسة لـ«سوسيولوجيا الحقائب اليدوية للنساء»[6]. هذه الآلية تمكّن من تكميم وصفيّ يحوّل الملاحظة إلى إحصائيات[7].

4 NormandFilion, « Compter le réel. Réflexions autour de l›observation quantitative », *Terrains & travaux*, vol. 19, no. 2, (2011), pp. 37-55.

5 Idem

6 Jean-Claude,Kaufmann, *Le Sac : Un petit monde d'amour*, (Paris : Éditions LATTÈS, 2011), pp 12-78

7 Normand Filion, op.cit.,pp. 37-55

إذن، وباستجواب بائع وترك بائعين بجانبه للمرور إلى البائع الرابع، تمكننا من استجواب ثلث الباعة على طول النهج باتباع التوجيهات والتقديرات التي حددناها مسبقا رفقة الباحث المختص في الإحصاء والباحث المسؤول عن البحث الميداني الكمي وذلك عند تحديد العينة واختيارها قبل إنجاز البحث[25]. وقد قمنا باختيار عينة الدراسة (مائة بائع/مستجوب) باعتبارها مجموعة من مجتمع الدراسة الذي قدرناه باعتماد الملاحظة الكمية كما شرحنا أعلاه (في المؤطر المنهجي) بين 300 و330 شخصا، وذلك وفق طرق وأدوات محددة ليكون للعينة خصائص مجتمع الدراسة نفسها،حتّى نتمكن من تطبيق النتائج النهائية على كل مجتمع الباعة غير النظاميين بسوق نهج إسبانيا. فهذه العينة هي عبارة عن نموذج مصغر لمجتمع « النَصّابة» كما يُسمِّيهُم الجميع، وتتوفر فيهم كافة خصائصهذا المجتمع وصفاته (السن، الجنس، المهنة، مكان الإقامة، مكان

25 كلّ الشكر للباحثين عماد شُكري المختص في التحليل الإحصائي وأمير صميدة المراقب للبحث الميداني الكمي.

العمـل، الانتمـاء القبلـي والجهوي، علاقـات القرابة..). كما قمنـا بمنح جميـع الباعة الفرصة الكافيـة ليكونـوا ضمـن عينة الدراسـة. وقـد أخذنا بعيـن الاعتبـار، عند تحديد حجـم العينة بالأسـاس، الهـدف الأساسـي من هذا البحث ألا وهو تفسـير كيـف صار هؤلاء الأفـراد بالذات باعـة غيـر نظاميـن بنهـج إسـبانيا ولماذا صـاروا كذلك مـن جهـة؟ وفهم كيفيـة حصول هـذه الصّيـرورة وأسـبابها من جهـة ثانية. وحرصنـا على أن نزيـد في حجمهـا (100 على 300 هـو عـدد كبيـر فعليـا) إذ كان بإمكاننـا الاشـتغال على عدد أقـل، وذلك لتوفيـر تمثيل أعلـى لخصائـص مجتمـع «النصابـة» المـدروس، الأمـر الـذي يمكننـا مـن تعميـق أصدق وتعميـم أكبـر لنتائج هذا البحـث العلمي.

لذلـك قمنـا في مسـتوى أول بتحديـد مجتمع الدراسـة تحديدا دقيقا يشـمل ضبط اسـم لهـذا المجتمـع (الباعة/ النصابـة غير النظاميين بسـوق نهج إسـبانيا العشـوائية) وتحديد الخصائـص التـي تميـز أفـراده عـن غيرهـم (لا يملكـون محـلات أو رخـص ويمارسـون تجارتهـم فـي الشـارع ويلاحقهم البوليـس ويطاردهـم يوميا. وتجمـع بينهم وشـائج أولية قبليـة مولـدة لتضامـن عضـوي) وتحديـد السـمات الخاصة بهـم (شـباب، ذكـور، عزاب، تتـراوح أعمارهـم بين 16 و35 سـنة، وينحدر أغلبهم من ولايات الوسـط الغربـي، القصرين ثم سـيدي بوزيـد، وبالتحديـد مـن المعتمديتينالمتجاورتين، سـبيبة وجلمة).

وقـد كانـت هـذه الخطـوة المنهجيـة مهمـة فـي اختيـار عـدد أفـراد العينـة ونوعيتها. فقـدكان تحديـد العدد المناسـب لأفـراد العينة مبنيا على معيـار التجانس بيـن أفراد مجتمع الباعـة غيـر النظاميين في سـوق نهج إسـبانيا العشـوائية. فاعتمدنا عينة عشوائية بسـيطة غيـر احتماليـة حيـث لا تخضـع لقوانيـن الاحتمـال أي لا يوجد حجـم معين للعينـة ففضلنا منهجيـا أن تكون كبيـرة قدر المسـتطاع مقارنة بحجـم المجتمع الأم/الكلـي (300/100) لضمان دقـة النتائـج النهائية.

2- المقاربة السوسيو-أنثروبولوجية : في سيرورات التحول لبائع غير نظامي في سوق نهج إسبانيا أو كيف يصير فرد بعينه دون غيره بائعا؟

اعتمدنا، إلى جانب المقاربة الكمية، مقاربة سوسيو-أنثروبولوجية تقوم على منهجية كيفية مركبة فيها مراوحة بين المقابلة البيوغرافية بما هي تقنية كيفية، والملاحظة بالمشاركة باعتبارها تقنية إتنوغرافية. وتعتمد هذه المقاربة أساسا على «الوصف». وهنا، كما يفسر ذلك «أوليفييه دو ساردان» Olivier de Sardan[26]، يجب اعتماد الوصف في معناه الضيق، الذي يمثل جوهر السوسيو-أنثروبولوجيا. لأن الوصف، في المعنى العام، أي وصف الثقافات، ليس خاصا بهذه المقاربة بالذات. فالوصف، في معناه الضيق، القائم على المزج بين تقنية المقابلة وتقنية الملاحظة، هو الركيزة الأساسية للبحث الميداني باعتباره جهازا منهجيا يميز هذا الاختصاص البحثي[27]. لذلك فالبحث الميداني «الممدد» يقوم على شكلين اثنين من أنماط إنتاج المعطيات: وتمثّلا لمقابلات، الشّكل الأوّل المعتمد. وهي مقابلات يتم تحويلها إلى معطيات عبر الرقن والتفريغ الكتابي. وتُعدّ الملاحظات، الشّكل الثّاني. والتي يتم تحويلها بدورها إلى معطيات عبر الوصف[28].

وسيكون لهذين النمطين حضور متداول في النص النهائي للبحث. لأن الكتابة السوسيو- أنثروبولوجية كما يصفها «دو ساردان»، وبتوظيف المقولات التي تحيلنا إلى المقابلات، تمكننا من أن «ننصت إلى الظاهرة المدروسة»، وبتوظيف الوصف الذي يحيلنا إلى الملاحظة، نتمكن من أن «نرى الظاهرة»[29]. وباتباع التمشي السوسيو-أنثروبولوجي، نتجنب قدر الإمكان أن تنعكس إسقاطاتنا الذاتية وحدسنا وأفكارنا المسبقة على الفاعلين الاجتماعيين موضوع الدراسة وأن نتجنب بيع هذه التصورات الماقبلية للقارئ وكأنها هي وجهة نظر الفرد المدروس. إذن، وحرصا على هذا التوخي

26 Jean-Pierre Olivier de Sardan, *La rigueur du qualitatif. Les contraintes empiriques de l'interprétation socio-anthropologique*, (Paris : Éditions Academia, coll. « Anthropologie prospective », 2008), pp 5-150

27 Idem

28 Idem

29 Idem

المنهجي، راوحنا بين «الفئة الاتيكية» (Etic) أي المولدة من منظور الباحث و«الفئة الاميكية» (Emic) المولدة من منظور المبحوث[30]. وهكذا، وبتعدد تقنيات البحث، أساسا الملاحظة بالمشاركة والمقابلة البيوغرافية، ارتكز بحثنا الميداني، في هذا المستوى، على المراوحة بين هاتين التقنيتين.

أ. المقابلة البيوغرافية

تُعدّ المقابلة البيوغرافية شكلا من أشكال المقابلة نصف الموجهة التفهمية. وبإجراء هذه المقابلة نسعى إلى فهم ظاهرةأو فعل أو ممارسةأو موقف أو سلوك ما من خلال العودة إلى الوراء وإعادة رسم المسار الذي جعل ما حدث يحدث. وكما يوضح الباحث «دومازيار»، «كلّ مقابلة بيوغرافية هي إعادة تشكيل لمسار تكون مسنودة بحجج ومن خلالها يروي المستجوب ويسرد حادثة أو ذكرى أو فترة من حياته أو بعدا من أبعاد سيرته ويكون ذلك في إطار تفاعلي وتبادلي مفتوح ومعمق وتفهمي.[31]»

وفيما يلي جدولة للمستجوبين عبر تقنية المقابلة البيوغرافية:

جدول رقم1: المُستجوبين عبر تقنية المقابلة البيوغرافية

الرمز/الرقم	السنّ	الجنس	أداة العمل	موقع/مكان العمل
X1	18	ذكر	بساط بلاستيكي (باشْ)	أوّل النهج
X2	21	ذكر	بساط بلاستيكي (باشْ)	أوّل النهج

30 Idem

31 Didier, Demazière, « L'entretien biographique comme interaction négociations, contre-interprétations, ajustements de sens », *Langage et société*, vol. 123, no. 1, (2008), pp. 15-35.

X3	28	ذكر	علبة كرتون مُقوَّى (كردونه)	أوّل النهج
X4	30	ذكر	عربة خشبية (برْويطه)	وسط النهج
X5	22	ذكر	عربة خشبية (برْويطه)	وسط النهج
X6	23	ذكر	عربة خشبية (برْويطه)	وسط النهج
X7	19	ذكر	عربة خشبية (برْويطه)	وسط النهج
X8	20	ذكر	بساطبلاستيكي + علبة كرتون (شَطّار)	آخر النهج
X9	25	ذكر	علبة كرتون مُقوَّى (كردونه)	آخر النهج
X10	19	ذكر	عربة خشبية (برْويطه)	آخر النهج
X11	22	ذكر	بساطبلاستيكي + علبة كرتون (شَطّار)	أوّل النهج
X12	20	ذكر	علبة كرتون مُقوَّى (كردونه)	أوّل النهج
X13	24	ذكر	علبة كرتون مُقوَّى (كردونه)	وسط النهج
X14	24	ذكر	بساطبلاستيكي + علبة كرتون (شَطّار)	وسط النهج

ب. الملاحظة بالمشاركة:

لقد كان اللجوء إلى هذه التقنية، كما وضحناه أعلاه بالاستناد إلى مقاربة أوليفي دي سردان، لجوء يرنوإلى استنطاق ما لم تنطق به الظاهرة بعد أو ما لا تنطق به ولم تنطق بعد به وربّما ما لن تنطق به دون اعتماد تقنيتنا هذه. وكما يؤكد» ليفي ستراوس»، «لا يمكن دراسة البشر إلا بالتواصل معهم. هذا يفترض مشاركتهم عيشهم بصفة دائمة أو عابرة»[32]. وكما يسميها غوفمان، الملاحظة بالمشاركة هي أن يقوم الباحث الملاحظ بخوض التجربة التي يدرسها (الانتصاب اللانظامي مثلا) وذلك بعرض جسده وذاته

32 AlexMucchielli, « Observation participante », Dans *Dictionnaire des méthodes qualitatives en sciences humaines*, [dir] Alex Mucchielli, (Paris : Éditions Armand Colin, 2009),p.166.

وتعريضهـا لكل مـا يمكن أن يتعـرض إليـه المبحوثون (العلاقة مـع الحرفاء ومـع البوليس ومـع المـكان والطقس) حتـى يتمكن مـن اختراق جسـدي وإيكولوجـي لإجاباتهـم في ظل وضعيـة اجتماعيـة معينـة[33]. وفي هـذا الإطار قام أحـد أعضاء فريـق البحث الموسـع، وهو باحـث مرحلـة ثالثـة في علـم الاجتمـاع، بإمضاء أسـبوع كامل بصفـة البائع غيـر النظامي «نصـاب» فـي نهـج إسـبانيا بعـد مفاوضة مـع أحـد الباعة الـذي سـمح له بنصب بسـاط بلاسـتيكي بجانبه ومنحـه كمية من السـلع لبيعها.

ج- المقابلة نصف الموجهة:

لا يمكـن تفسـير ظاهـرة «اعتناق» هـذه المهنـة وفهمهـا باعتبارها سـيرورة وصيرورة، بالاعتمـاد فقـط علـى مـا يتمثله المسـتجوبون ومـا نتمثلـه وما نرصـده بصفاتنـا باحثين. بـل تظـل تمثـلات المتدخلين ومواقفهـم ورؤاهم، أفـرادا ومؤسسـات، في المحيـط والمجال والإطـار الـذي تنشـأ وتتطـور فيه هـذه الظاهـرة، ضروريـة وجوهرية لرسـم كامـل ملامح هـذا الموضـوع البحثـي. لذلـك قمنـا بإجـراء مقابـلات نصـف موجهـة مـع (علـى سـبيل الذكـر لا الحصـر) أحد التجـار النظاميـين المالكين لمحـل في النهـج والذي يبيـع، تقريبا، السـلع نفسـها التـي يبيعهـا النصابـة. والتقينـا كذلك أحـد المقيمين فـي شـقة مطلة على النهـج. والتقينـا كذلـك شـرطيا بلديـا يقـوم بالمداهمـات اليومية علـى النصابـة على طول النهجويواكـب هـذه المداهمات. والتقينا أخيرا، مؤسـس نقابـة مهنية للباعة غيـر النظاميين لا يعتـرف بهـا الباعـة غيـر نظاميين بنهج إسـبانيا.

33 Ibid, p,167.

وفيما يلي جدولة للمستجوبين عبر تقنية المقابلة «نصف الموجهة»

جدول رقم 2: المُستجوبون عبر تقنية المقابلة نصف الموجهة

الرقم	فئة المستجْوَبِ	طبيعة العلاقة مع "النصَّابَه" في سوق نهج إسبانيا
1	شرطي بلدي يواكب/يشارك في المداهمات اليومية علىالنصَّابَه"	علاقة مباشرة: صراع
2	تاجر صاحب محلّ في نهج إسبانيا	علاقة مباشرة: حياد
3	مؤسس/رئيس نقابة تتحدث بإسم مجموعة من الباعة اللا نظاميين خارج نهج إسبانيا	علاقة مباشرة: قطيعة
4	مُقيم مُستأجر شقّة في الطابق الثالث لعمارة تطلّ على نهج إسبانيا	علاقة مباشرة: حياد
5	بائع غير نظامي «نصّابْ» سابق	علاقة صداقة/زمالة سابقة
6	مسؤول بالاتحاد التونسي للصناعة والتجارة	علاقة غير مباشرة: ضدّ
7	مسؤول بالاتحاد العام التونسي للشغل	علاقة غير مباشرة: تعاطف

3- في استراتيجية النفاذ/الولوج إلى ميدان/مجتمع البحث:

تمكّنا من إقناع الباعة بفضل إقامتنا لأكثر من سنتين في نهج إسبانيا وباستثمار شبكة الوشائج والعلاقات والصداقات التي نسجناها طيلة هذه المدة مع كل من الجيران والتجار النظاميين والباعة غير النظاميين بصفتنا جيرانا وحرفاء. وبفضل قدرات مراقب البحث الميداني على الانغماس في مجتمع البحث بتكوين الصداقات وخلق تصاد ثقافي مع الباعة أساسه التواضع واحترام المستجوب وتجنب العلاقة الفوقية القائمة على عنف رمزي (باحثvs بائع) وتفسير مبسط وصادق لماهية البحث

والجهة المؤطرة له وأهدافه ومسألة المعطيات الشخصية[34]. وهكذا حصلنا على موافقة غير مشروطة لتعمير استمارات الاستبيان والمقابلات البيوغرافية والملاحظة بالمشاركة والملاحظة الكمية وخاصة تصوير الفيلم الوثائقي حول البحث.

بإتمام البحث الميداني وتحليل معطياته نكون قد أجبنا، إمبيريقيا في مستوى أوّل، عن أسئلتنا وإشكاليتنا البحثية متبعين التمشي الموسوم بـ The grounded theory (نظرية التأصيل الجذري) لنمرّ، في مستوى ثانٍ نظريّ، إلى تحليل النتائج الإمبيريقية. وقد أنتج هذا التحليل تسعة محاور ولّدتها مقاربات متعدّدة الاختصاصات بأقلام عدّة باحثين في إطار عمل جماعي.

وسيكون المحور الأول مكونا من مدخلين اثنين اعتمدنا فيهما على أسلوب تفسيري يكثف فهم ظاهرة اقتصاد الشارع في نهج إسبانيا ويبسطها في الآن نفسه. ويمثّل المدخل الأول تلخيصا مكثفا لنتائج البحث الميداني الكمي عبر الاستعانة بتقنية «الغرافيك-ديزاين» مجسّدة في رسوم تقدّم للقارئ لمحة شاملة عن سمات هذه الظاهرة وخصائصها. أمّا المدخل الثاني فهو عبارة عمّا سميناه «مفاتيح سوسيولوجية» تطرقت إلى دراسة كل النتائج التي يمكن لنا دراستها في المحاور الثمانية وكذلك لاعتبار الظاهرة المدروسة خريطة معقدة تسهّل المفاتيح السوسيولوجية فهمها وفك شيفراتها العويصة على الفهم.

ويتأسّس المحور الثاني على مقال يعتمد مقاربة تاريخية لنهج إسبانيا نسعى من خلالها، عبر العودة تاريخيا للوراء، إلى فهم المنطلقات التاريخية التي جعلت من هدا النهج مكانا لازدهار اقتصاد الشارع.

ونعرض في المحور الثالث رسما خرائطيا لنهج إسبانيا وللمجال الجغرافي لمعتمدتي السبيبة وجلمة التي ينحدر منها أغلب الباعة بالنهج فضلا عن تقديم تعليل إحصائي يسند التحليل السوسيو-جغرافي لنجعل من خلاله الظاهرة المدروسة مقروءة

34 كل التحية والشكر للباحث الميداني السيد أمير صميدة على المجهودات التي بذلها لإنجاح هذا العمل البحثي

مجاليا وقابلة للتحديد والتأطير اقتصاديا واجتماعيا عبر إبراز أهمية النهج بما هو موقع استراتيجي أيضا.

ونحاول في المحور الرابع تفسير ديناميكية التهميش وعوامل الطرد بولايتي سيدي بوزيد والقصرين والبحث، تاريخيا، عن الإجابة عن إشكالية سوسيولوجية تبحث في العلاقة بين العمق التاريخي للتجارة الحدودية بالوسط الغربي ومتانة شبكات القرابة والعائلة وديناميكيات التهميش باعتبارها عوامل ساهمت في «احتلال» أهالي السبيبة شوارع وأرصفة في العاصمة تونس.

وبنينا المحور الخامس على دراسة ديناميكيات مأسسة ونشاط اقتصادي موصوم بأنه غير منظم وموازي بعد 2011 وسياسات «شرعنته»، مع محايثة سوسيولوجية لتاريخية تنظم الانتصاب الشارعي ومسارات توطنه في نهج إسبانيا.

ونسعى في المحور السادس إلى دراسة تجربة البائع المنتصب في سوق نهج إسبانيا واستكشاف تنشئته الاجتماعية ورسم صورته الراهنة وتأويل منهجه «الذكوري» من أجل فهم آخر لهذا «الآخر» المنتج لاقتصاد «آخر» لم تتمكن السوسيولوجيا الراهنة من فهمه بطريقة «أخرى» ولا يبدو أنّها مستعدّة لمهمّة مماثلة.

وننشد من خلال المحور السابع تثمين المادة الإمبيريقية التي استقيناها من بحث ميداني اعتمد على تقنية الملاحظة بالمشاركة في نهج إسبانيا واستثمارها اعتمادا على مقاربة سوسيو- أنثروبولوجية لواقع الباعة عبر تفاعلهم اليومي مع بعضهم البعض ومع الدولة والحرفاء والبوليس. وبالتالي ندرس كيفيّة إنتاج السلطة والبائع معا نهج إسبانيا باعتباره سوقا واقتصادا وسردية «موازية».

ونسائل في المحور الثامن مفهوم الصحة العمومية بمقارباتها المخصوصة عبر زحزحة هذا المفهوم من معقله البديهي، اعتمادا على مبحث علوم الصحة. ثم نعيد موضعة المفهوم أكاديميا (Objectivation) لنجعل منه مدخلا ضروريا لمعالجة المعطيات التي أنتجها البحث الميداني حول نهج إسبانيا ونبين بذلك المخاطر الصحية

العضويــة والنفســية التــي يتعرض لها الباعــة المنتصبون في نهج إســبانيا بمناســبة عملهم ومختلــف العوامــل الاجتماعيــة التــي تحكم ظــروف حياتهم المتســمة بانعــدام الأمان.

ونريــد مــن خــلال المحور التاســع فهــم الصــراع القائم بيــن الباعــة والدولــة من خلال عجــز النــص القانونــي عــن اســتيعاب ظاهــرة اجتماعيــة وبالتالــي فهم أســباب مســارعة المشــرع لزجرهــا ووصمهــا ومحاربتها ●

1

المحور الأول

مداخل مكثّفة من أجل قراءة مغايرة لظاهرة الاقتصاد الشارعي بنهج اسبانيا

مدخل 1

بورتريهات مرسومة

تقديم الرّسومات:

لتكثيف المعطيات المولّدة من البحث الميداني الكمي وتبسيطها واختزالها بطريقة فنية وعلمية وسهلة وسريعة القراءة في الآن نفسه، لم نجد أفضل من اعتماد الرسوم الإيضاحية. لذلك جعلنا من تتحدّث عنهم أرقام إحصائيّات البحث الكمّي المعالج إحصائيّا ونسبها المختلفة، أي المنتصبين المنسيّين، متجسّدين ومرئيّين سوسيولوجيا عبر الرّسومات بالأساس في بضع صفحات عوض نسخ الإحصائيّات وتحريرها كلاسيكيا. وهو ما قد ينجرّ عنه اجترار المعطيات الميدانية وإثقال كاهل القارئ بالأرقام.

بورتريه الفرد والمجتمع

97% لا يتمتّعون بالضمان الإجتماعي

80% لديهم ديون

90% ليس لديهم دفتر علاج

99% ليسوا منخرطين في الاحزاب

100% غير منخرطين في الجمعيات

72% متشائمون من امكانية تحسن وضع البلاد

82% ليس لديهم حسابا بنكيا

99% غير منخرطين في النقابات

89% لم يشاركوا في الانتخابات

67% يعتبرون ان ما حدث بين 2011/2010 هو مؤامرة خارجية او انقلاب

55% يعتبرون أن وضعية البلاد صارت أسوأ بكثير بعد 14 جانفي 2011

55% متشائمون من امكانية تحسن وضعيتهم في المستقبل

98% يعتبرون الوضع حاليا كارثيا

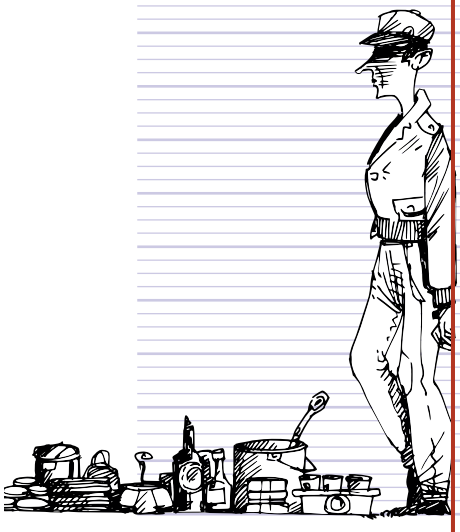

الأرقـام تتكلـم حين تعجـز الكلمـات. سوسـيولوجيا هـذه النسـب كافيـة ولا تحتـاج لتأويل كي نشـخص كيـف تتفق هـذه المجموعة مـن الأفراد حـول تأطير سـلبي للواقـع ولمـاذا تتّفـق حـول الواقـع نفسـه؛ واقـع وضعيتهـم وعلاقتهـم في/بالدولـة والمجتمـع والاقتصـاد، الواقـع الـذي «شـيطنهم» وأفردهـم، فانسـحبوا واسـتقالوا منـه بدورهـم. ولـولا بعـض العلاقـات التجاريـة القائمـة بينهـم وبيـن المواطـن المسـتهلك وعـدم وجـود عقيـدة دينيـة لاسـتقام اعتبارهـم طائفـة بـكل مـا للمفهـوم مـن معنـى.

بورتريه عام

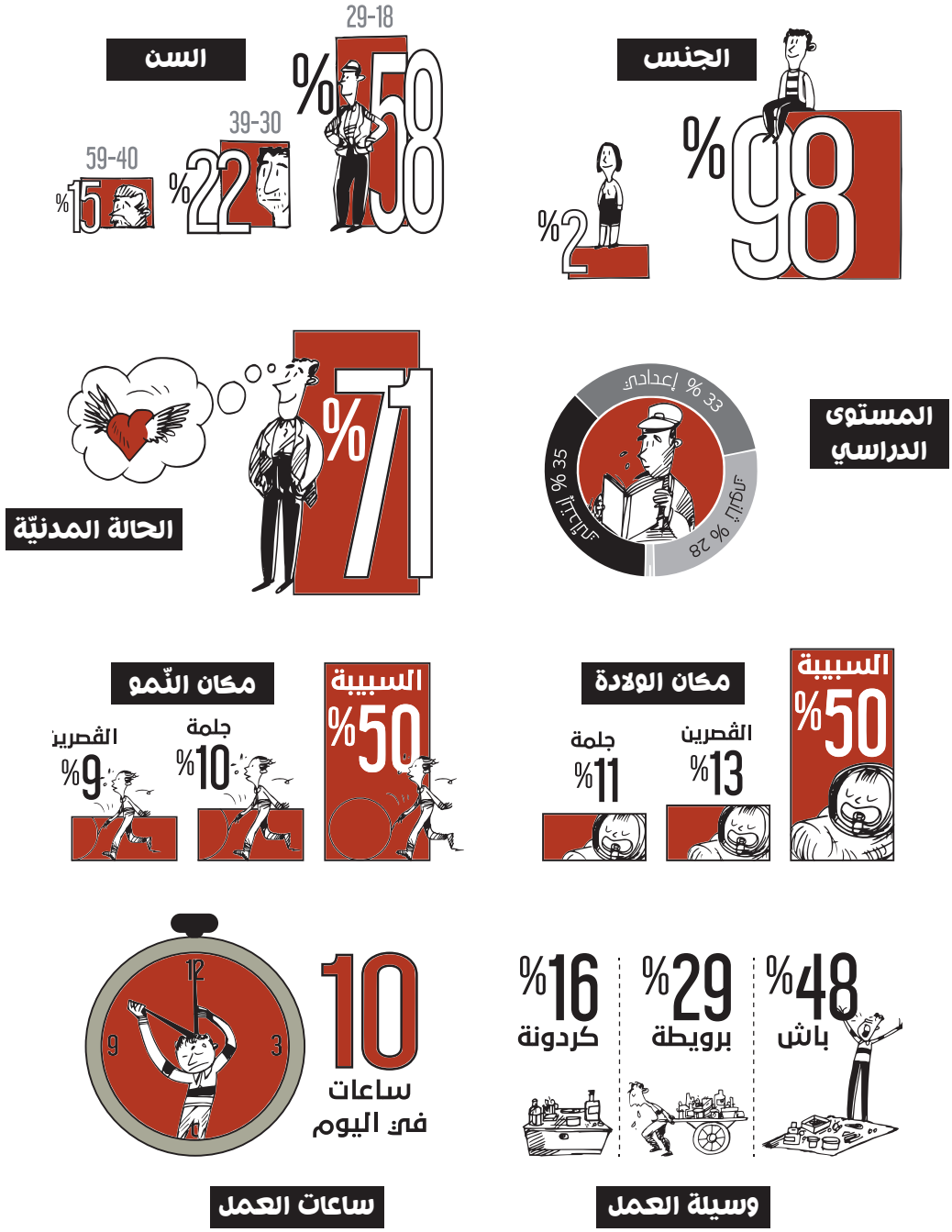
الجنس
%98
%2
السن
29-18
%58
39-30
%22
59-40
%15
المستوى الدراسي
%33 إعدادي
%28 ثانوي
%35 جامعي
الحالة المدنيّة
%71
مكان الولادة
السببية %50
القصرين %13
جلمة %11
مكان النّمو
السببية %50
جلمة %10
القصرين %9
وسيلة العمل
%48 باش
%29 برويطة
%16 كردونة
ساعات العمل
10 ساعات في اليوم

إحصائيـا، سـمات البائـع العامـة هي كالتالـي: ذكر، رجـل، شـاب، أعـزب، ذو مسـتوى تعليمـي متوسـط أو أقـل مـن المتوسـط (أكثـر مـن نصفهم لـم يصل للمرحلـة الثانويـة) يعيـش دخـولا متأخـرا في سـن الرشـد (علائقيا/اجتماعيـا واقتصاديا/مهنيـا)، وينحـدر جينيالوجيـا مـن عـرش « الغلايقيـة» مـن مدينة سـبيبة ويعمل في ظروف عمل هشـة وقاسـية وغيـر آمنـة. هذه السـمات، هي أكثر السـمات تواجدا لدى الشـاب التونسـي المنتمي إلى الطّبقة المتوسطة الدنيـا والفقيـرة فـي تونس.

بورتريه ثقافي

المستوى التعليمي للوالدين

مهنة الوالدين

أسباب الانقطاع المدرسي

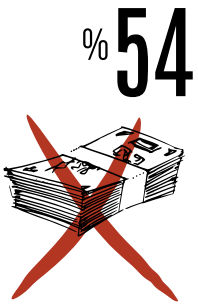

لا يمكـن أن نجـد أفضـل مـن هكـذا نتائـج بحثيـة ميدانيـة لنختبـر سوسـيولوجيًّا فرضيـة تولدهـا نظريـة إعـادة الإنتـاج والرأسـمال الثقافي لـــ «بيار بورديـو». فالمسـتوى التعليمي للوالدين والرأسـمال الثقافـي للعائلـة مـن جهـة، والوضعيـة الاقتصادية والاجتماعيـة مـن جهة أخـرى، عوامـل تجعل حظوظ الأبنـاء فـي مواصلـة الدراسـة ضعيفـة منـذ نعومـة تكوينهـم، وتجعـل أمل التفوق المدرسـي بـل وحتى النجـاح العـادي، منذ البدايـة، ضعيفا. وفي مسـتوى آخـر، هـذه الشـروط الموضوعية تؤسّـس مـن إعادة إنتاج الفقـر ووراثة الانتمـاء الطبقـي وامتهان المهن الشـاقة (الطبقـة الفقيرة أو المتوسـطة الدنيـا) قدرا يمكن قياسـه سوسـيولوجيا.

بورتريه عائلي

مكان استقرار العائلة

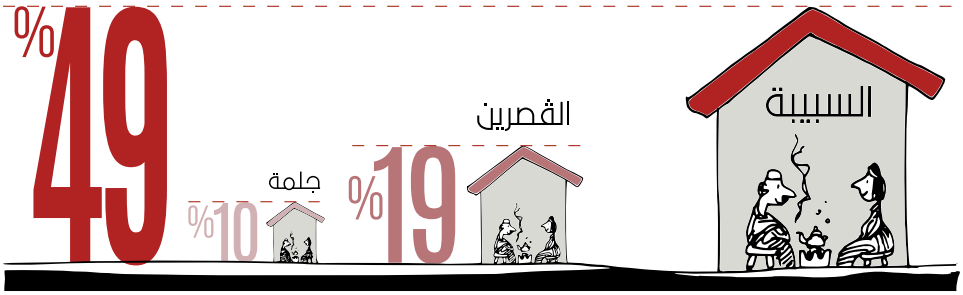

الحالة الاجتماعية للوالدين

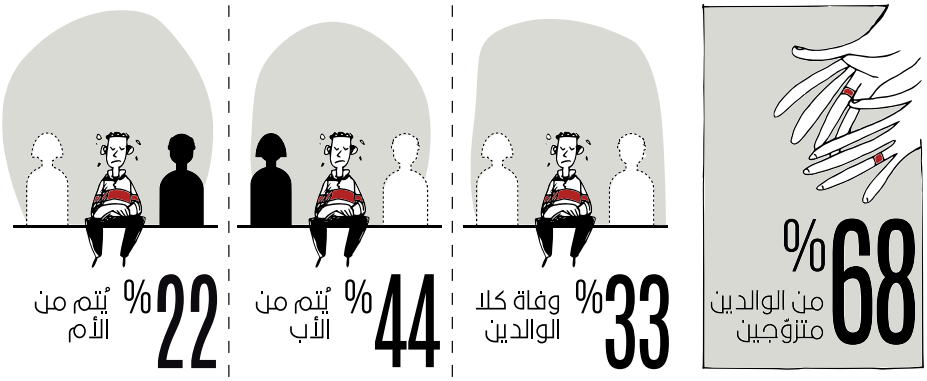

الحالة الاجتماعية للباعة

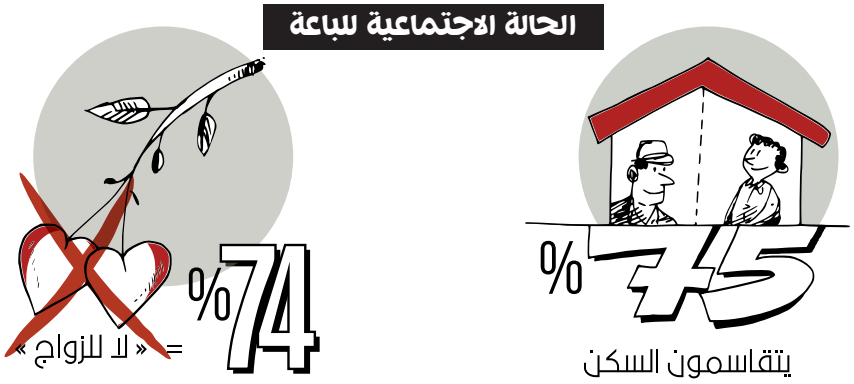

بورتريه العلاقة بالعمل

لا يكفي أن يعمل الفرد ليعتبر نفسه عاملا. فالاغتراب في العمل يجعل العامل يعتبر نفسه عاطلا عن العمل. ويتولّد هذا الاغتراب من الفهم الثقافي السائد لمفهوم العمل في تونس باعتباره، حسب مخرجات البحث الميداني، عملا قارا يتضمّن عقدا ويضمن الاستقرار في وظيفة عمومية أو مشروع تجاري قائم الذات. أمّا بيع سلع الاستهلاك الجماعي بطريقة غير نظامية فهو إلى البطالة أقرب. حتّى أنّ الباعة يعتبرون أنفسهم ضحايا السيستام الاقتصادي والاجتماعي الموجود الذي اضطرّهم لهكذا تجارة، ولا يجدون الاقتصاد الشارعي مضرا بالاقتصاد الرسمي بل يرون في عملهم هذا فائدة للاقتصاد ككلّ.

بورتريه زمن الكوفيد

%98
تضرروا من جائحة كورونا

%95
لم يعودوا إلى النسق المعتاد

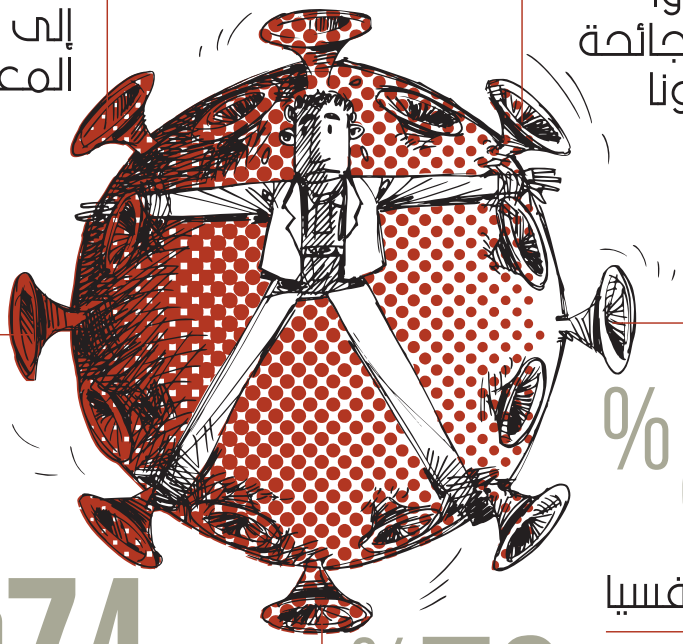

%84
تضرروا نفسيا

%74
زاد استهلاكهم للكحول

%72
راودتهم أفكار سوداوية

كنا في عمل سابق في المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، حول الفئات الاجتماعية الأكثر تضررا من تدبير الدولة لأزمة الكوفيد19، ساهم فيه أغلب من ساهموا في كتابة محاور هذه الدراسة، قد تطرقنا لوجود فئات سوسيو-مهنية معينة قد تضررت، لطبيعة عملها، أكثر من بقية الفئات. وهذه النسب تثبت، عبر إضافة فئة جديدة، فئة الباعة غير النظاميين، أن الوباء عادل في انتشاره لكن تدبير الدولة لأزمة الوباء، اقتصاديا واجتماعيا، ليس عادلا بالمرة. بل أثبت هذا البحث الميداني ما توصّلنا إليه سابقا من أن دولتنا هي دولة تقرر حتى من له الحق في العيش ومن يجب أن يموت (le droit du glaive) وذلك في النحو المجازي والمادي في الآن نفسه.

بورتريه الحرقة

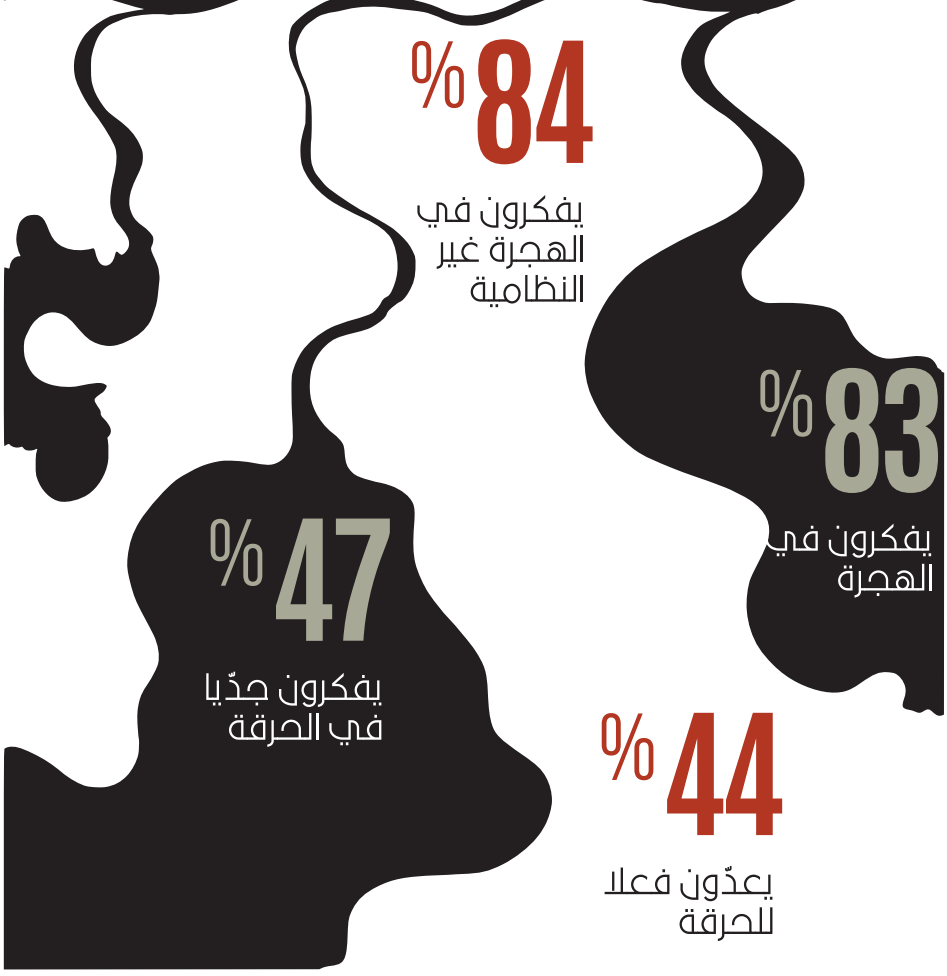

ولئـن كان الباعـة غيـر النّظامييـن في نهج إسـبانيا الأقـل إقبـالا علـى الهجـرة غيـر النّظاميـة لأسـباب عديـدة سـنتطرق إليهـا فـي هـذا العمـل، فإنهـم، وعلـى غـرار أغلـب الشـباب التونسـي المنتمـي إلى الطّبقـة المتوسـطة الدنيـا والفقيرة، يفكـر جديا في الهجـرة غيـر النّظاميـة، أو يعـد لهـا فعليـا، لأنه لن يمنح التأشـيرة النظاميـة أبدا ولأن واقعـه الاقتصادي والاجتماعـي هـش للغايـة، وخاصّة لأن آمال تحسـين هـذا الواقـع تبـدو أكثـر هشاشـة وضعفا مـن الواقع نفسه .

مدخل 2

مفاتيح سوسيولوجية

لقراءة ظاهرة الاقتصاد الشارعي في سوق نهج اسبانيا

هـذا المحـور هـو بمثابـة مفاتيـح يمكـن لقـارئ هـذا البحـث اعتمادهـا لفـكّ شـيفرات خارطـة بحثيّـة ولسـبر أغـوار ظاهرة معقـدة ومركبـة لا يمكـن التعهّد بالإلمام بـكلّ أبعادهـا، رغم أنّنا اسـتنزفنا، في المعنـى الإيجابي، مواردهـا الإمبيريقيـة. وتُمكِّنُنَا، نحـن المشـرفين علـى هذا العمـل، مـن تحليـل مكثّفٍ لم يتسّـع المجـال أو الوقـت أو المـوارد لتحليلـه فـي إطار هـذا البحث.

المفتاح الأول: التحول الدلالي، «الجْلامه» أو الهويّة السائلة دلاليّا للباعة في نهج إسبانيا:

يفيـد مفهـوم التحـول الـدلالي إلى اكتسـاب كلمـة او وصـف مـا لمعنـى مغايـر / مخالف لمعنـاه الأصـلي. وكل انـزلاق دلالي يسـتوجب، لسـانيا، توضيحـا دلاليا[1].

ولعـل أولى نتائـج البحـث الذي أنجزنـاه حول ظاهـرة الباعـة اللانظاميين بنهج إسـبانيا هـو اكتشـاف وجود تحـول دلالي. إذ من أبرز خصائـص البحث الميداني السوسـيولوجي الذي لا ينطلـق من مسـلمات وأحكام مسـبقة والـذي يختبر فرضيـات البحث إمبيريقيـا، أنه يرفع الغشـاوة ويكـسر «الدوكسـا» السـائدة في حقـل بحثي معـين بل ويضيـف إلى المعرفـة دائما إمـا بتصحيـح معطيـات خاطئـة او بإنتـاج معـارف جديدة. هـذا ما أثبتـه البحـث الميداني الـذي أنجزنـاه في سـوق نهج إسـبانيا. فأول صدمـة، بالمعنـى الإيجابي، لنـا بوصفنا باحثين (وذلـك رغـم معرفتنا الكبـيرة بهذا الفضـاء ومـن يرتادونه ومـن يعملون فيـه واطلاعنا على أغلـب المقـالات التـي كتبت عنه رغـم ندرتهـا)، كانـت أن الباعة العاملـين بهذا المكان ليسـوا «جلامـه» (أي ليسـوا مـن مدينـة جلمـة) كما هو سـائد ورائـج لدى الـرأي العام بـل وحتى

1 Annabelle Seoane, « Deux néologismes par glissement sémantique : quand l'euphémisme cristal-lise », *La linguistique*, vol. 52, no. 2, (2016), pp. 271-290.

لـدى الباحثـين أنفسـهم وحتـى لـدى الحرفـاء اليوميـين والتجـار المجاورين والسـاكنين في العمـارات المحيطـة. فمـا أثبتـه البحـث الكمـي أن أكثر مـن 80 بالمئة مـن الباعـة ينحدرون مـن مدينـة سـبيبة وينتمـون تحديـدا لعـرش « الغلايقيـة». ولا يمثـل الباعـة القادمـين من مدينـة جلمـة إلا مجموعـة لا تتجـاوز أصابع اليـد الواحدة مـن أصل مئة مسـتجوب.

فمن أين جاءت تسمية «الجلامة»؟

مـن الجـليّ أنّ «الجلامـة» هـم أقـدم مجموعـة اشـتغلت في هـذا القطـاع بـين نهـج «الكوميسـيون» وسـوق «سـيدي بومنديـل» وعرفـت باسـمها هذه المهنـة تاريخيًّـا. وبمرور الزمـن، صـار لهـذه المجموعة محـلات قارة ونظامية في سـوق «سـيدي بومنديل» على سـبيل المثـال أو سـوق المنصـف بـاي وعزفوا (بعـد ارتقاء طبقـي ومراكمـة رسـاميل مختلفة) عن البيـع اللانظامـي في الشـارع. لكـن لمـاذا ظلـت التسـمية قائمـة رغم تغير المسـمى؟

لقـد تحولـت كلمـة «الجلامـة» إلى توصيـف لفئـة سوسـيو-مهنية تعمـل بالأسـاس في السـوق العشـوائية لبيع سـلع الاسـتهلاك الجماعي الرخيصة (سِلعة شِـنوَه) الموردة حدوديًّا بشـكل غـير قانوني (الكونـترا) وذلك في الأنهـج الخلفيـة للعاصمة وخاصـة في تقاطع نهجي الجزيـرة وإسـبانيا وصولا لسـيدي بومنديل والكوميسـيون. وبالتـالي، فإنّ الجلامـة، وإن لم ينحـدروا مـن مدينـة جلمة لا هـم ولا عائلاتهـم، وإن لـم يولدوا فيهـا ولم يسـكنوها بل وإن لـم يزوروها أو يسـمعوا عنهـا يوما، هـم بالنّهايـة المجموعة الّتـي تبيع السـلع في ذلك المكان وبتلـك الطريقـة. فالجلمـي هـو البائـع اللانظامـي في السـوق اللانظاميـة في نهـج إسـبانيا ومحيطـه وليـس الفـرد المنحـدر أو القادم مـن مدينة جلمة بالأسـاس.

وتوجـد أمثلـة أخـرى على هـذه الظاهـرة السوسـيو- لسـانية المتعلقـة بالمهـن والجهات في المجتمـع التونـسي، وهـي «العطـار الجربـي» و«الفطايـري الغمراسـني» و«الحمـاص التطاوينـي». ففـي أيامنـا هذه، العديـد من «العطارة» ليسـوا مـن جربـة أو «الفطايرية» أو «الحماصـة» ليسـوا بالضرورة من جهـات تطاوين أو غمراسـن أو مدنين. لكـن ارتبطت هذه المهـن في مخيلـة التونسـيين بتلـك الجهـات. بل صـارت الجهة تحيـل إلى مهنـة والمهنة تحيل

إلى جهـة. ورغـم تسـارع وتـيرة التغـير على مسـتوى هـذه المهـن، تبقـى متوارثة جيـلا بعد جيـل. وهـي في أغلبهـا، مهـن محتكرة من قبـل منطقة الجنـوب الشرقي بما هي مهـن عائلية بالأسـاس كمـا هـو الحـال بالنسـبة إلى النصابـة في نهـج إسـبانيا. وهكـذا، مـازال المخيال الجمعـي يولـد تسـمياته من حقبـة تاريخيـة انتهـت. ولكنها، رغـم انتهائهـا، مازالـت تُولِّدُ المعانـي، وهـي مسـتمرة في الزمن مـن خلال تمثـلات أفـراد المجتمع.

المفتاح الثاني: البوعزيزي والبائع اللانظامي في نهج إسبانيا، في جينالوجيا المصائر

أحـرق البوعزيزي نفسـه، ثـم اندلعت الثـورة، بوصفهـا عامـلا دالّا على اختـلال التوازن في سرديـة العيـش الطبيعـي وبوصفهـا قطرة أفاضـت الكأس وليسـت مجرّد سـبب أو مولّد رئيـسي لديناميكيـة الفعـل الاجتماعي. لقـد أحـرق البوعزيزي نفسـه لا ليحتجّ عـلى البطالة والفقـر أو ليطالـب بالتشـغيل أو بالوظيفـة العموميـة تحديدا، بـل ليحتجّ على الاعتـداء عليه باعتبـاره إنسـانا (الكرامـة) ومصـادرة مـورد رزقه (الخبـز) وحقـه في مزاولـة العمل الذي يريـده كمـا وأين ما [ي] شـاء (الحريـة) أي الاعتداء عليـه بصفته بائعا لا نظاميّـا في اقتصاد غير رسـمي مـن قبل عـون نظامـي متحدث باسـم الاقتصاد الرسـمي.

وعـلى عكـس السردية المهيمنـة في منطوق المتحدثين باسـم الثورة وعنها وعن أسـبابها وفي روايـة المنتصريـن فيهـا (موظفي القطـاع العام بقـوة نقاباتهم على سـبيل المثـال)، فالثورة، إن اعتبرنـا البوعزيـزي ومأسـاته قادحـين لهـا، اندلعت بسـبب اعتـداء النظـام الحاكم، عبر جهـاز الدولـة الممثـل للاقتصـاد الرسـمي المهيمـن، عـلى عامـل في الاقتصـاد غـير الرسـمي لعـدم اعـتراف العامل اللّانظامـيّ بـه وبالمصفوفـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافية التي تُولِّـدُه ولوصمهـا لـه ومحاربتها إيّـاه. ومن هـذا المنطلق، نعتبر تعامل السـلطة الرسـمي مع الاقتصـاد غـير الرّسـمي، تعامـلا قوامه الوصـم والإقصـاء والاسـتغلال (براغماتيـا) وإنتاج المشـكل ثم تسـميته مشـكلا، وهو تعامل تحـول إلى عامل من عوامـل اندلاع اللحظـة الثورية 17 ديسـمبر 2010- 14 جانفي 2011.

مـن جهة أخـرى، وبالاسـتناد إلى بحثنا الميداني حول الاقتصاد الشـارعي في نهج إسـبانيا، وجدنـا تشـابها كبـيرا بـين بروفيـل (Profil) محمـد البوعزيزي بما هـو بائـع لا نظامي في أحد شـوارع سـيدي بوزيد والباعـة اللانظاميين في نهج إسـبانيا. وسـنبيّن هذا التشـابه فيما يـلي، عـبر جدول بيانـي مُقارن، ثـمّ سـنقدّم اسـتقراء تحليليا له.

جدول بياني/مُقارن رقم3

مُقارنــة بــين بورتريــه البوعزيــزي في 2011 وبورتريه البائــع غير النّظامي في ســوق نهج إسبانيا في 2021

نقاط التشابه والاختلاف

المتغيرات	محمد البوعزيزي	البائع غير النّظامي في نهج إسبانيا
السن:	26 سنة	معدل أعمار الباعة 29 سنة
الجنس:	ذكر	98 بالمئة ذكور
الحالة المدنية :	أعزب	71 بالمئة عازبون
مكان الولادة والتنشئة:	الوسط الغربي-سيدي بوزيد.	63بالمئة الوسط الغربي-القصرين 14 بالمئة الوسط الغربي-سيدي بوزيد
المهنة:	بائع غير نظامي	بائع غير نظامي
مكان العمل:	الشارع	الشارع
المستوى التعليمي:	تعليم ثانوي/ لم يتحصل على الباكالوريا	98 بالمئة لم يتحصلوا على الباكالوريا
مهنة الأب:	عامل يومي	أكثر من70 بالمئة من آباء الباعة يمارسون عملا يوميا هشّا
مهنة الأم:	لا تعمل/شؤون المنزل	أكثر من 87 بالمئة أمهاتهم لا تعمل / يقمن بشؤون المنزل
العلاقة مع البوليس والشرطة البلدية:	سلبية/ صدامية	سلبية/ صدامية
الوضعية المهنية:	غير نظامية- غير مقنّنة	غير نظامية- غير مقنّنة
عدد الإخوة في العائلة:	9	معدل عدد الإخوة6 :

إذا كان «البروفايلان» متشابهان بنسبة 90٪، ويعيشان وضعية عطوبة اجتماعية (dé-sociale saffiliation)[2]، على مستوى الوضعية المهنية الاقتصادية أو الاجتماعية العلائقية تسببت في التوجه إلى هذه المهنة بالذات، فما الذي يفسر اختلاف الوضعيات والمآلات والمصائر؟

هناك عاملان أساسيان مرتبطان ببعضهما البعض ومحددان لهذا الاختلاف ويمكّناننا من تفسير تباين المصائر. العامل الأول هو النزوح نحو العاصمة والعامل الثاني هو القدرة على إيجاد عمل هناك. بالنسبة إلى البوعزيزي كان الأمر (النّزوح) غير ممكن، إذ لم يتوفّر لديه ثمن تذكرة الحافلة التي تقله إلى مدينة تونس. بل إنّ عدم انتمائه إلى قبيلة (عرش) بعينها يجعل ذهابه إلى تونس عدميا. فللذهاب إلى العاصمة والعمل بائعا، في ظل غياب الدولة واستقالتها من دورها الاجتماعي والاقتصادي الراعي والتنموي والتعديلي من جهة، ولضعف الوشائج الثانوية التي تُمكِّنُ من العثور على عمل لائق (الرأسمال الثقافي، الكفاءة، الحرفية الخ..) من جهة أخرى، يجب أن يحالفك حظ الانتماء الجينيالوجي. إذ في واقع مماثل، تصير الوشائج الأولية (علاقات القرابة والجينيالوجيا القبلية) المُولِّدَ الوحيد للاندماج الاجتماعي عموما ولإمكانية العثور على عمل خصوصا. ففي ظل عدم انحدار البوعزيزي من سبيبة وجلمة، ولعدم انتمائه إلى قبيلة «ولاد خلفة» المحتكرة للاقتصاد الشارعي في وسط العاصمة، سيكون عمله في العاصمة ضربا من المغامرة ذات العواقب غير المأمونة. وذلك رغم أن البوعزيزي ينحدر من الولاية نفسها دون أن يشارك «الجلامة» الأصل القبلي الأول نفسه: ماجر أو الفراشيش) يعود أصل البوعزيزي القبليّ، جينيالوجيا، إلى فرع «أولاد بوعزيز» من فرقة «الحرشان» التي تتفرّع عن عرش «الهمامه» وتتموقع في منطقة غير حدوديّة، وهي منطقة بئر الحفي (. فالانتماء مثلا إلى عرش الغلايقية أو الجلامة هو انتماء إلى قبيلة ممتهنة لنشاط تجاري جيلا بعد جيل، من الحدّ إلى الشارع، محتكرة إياه، منظمة له، تنتدب له قوة العمل جينيا من أبناء العمومة فتخلق بذلك تضامنا ميكانيكيا يحمي الفرد والمجموعة ويعوض غياب الدولة. فالذهاب إلى العاصمة وإيجاد سكن ورأسمال لبداية الاتجار ومن ثمّة العثور على مساحة داخل الموقع الاستراتيجي تجاريا، أي سوق نهج

2 Guibet Lafaye Caroline, « Anomie, exclusion, désaffiliation : dissolution de la cohésion sociale ou du lien social ? », *Pensée plurielle*, vol. 29, no. 1, (2012), pp. 11–35.

إسبانيا، والتحصل على حماية سواء من البوليس أو من المنافسين الآخرين، مرتهن بالانتماء، في حالة نهج إسبانيا مثلا، إلى عرش «الغلايقية». ولم تتوفّر جميع الشّروط المتقدّمة في حالة محمد البوعزيزي.

المفتاح الثالث: خصوصية الاقتصاد الشارعي بسوق نهج اسبانيا:

اقتصاد قبلي:

انطلاقا من اعتمادنا لتقنيتي الملاحظة والملاحظة بالمشاركة في سعينا لوصف ما يحدث في نهج إسبانيا وكيف يساهم الباعة المنتصبون هناك، بطريقة غير نظامية، في إنتاجه، رصدنا أن مسألة القرابة والدراية بالنسب واعتماد الوشائج الأولية، أي كل ما يولد العصبية القبلية، هي المنتجة لتضامن آلي بين الباعة. فثقافة الحوز والغزو والتصرف لمدة طويلة، في علاقة بحوز النهج وتملكه، باعتبارها راسبا ثقافيّا قبليّا، ولوجود ثقافة «أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب» في مواجهة البوليس أو أي فرد أو مجموعة تريد افتكاك متر واحد من النهج، بما هي شكل من أشكال العصبية القبلية، جعلتنا نطرح السّؤال التّالي: إلى أي مدى تتولّد ممارسات مجتمع الباعة وتفاعلاته، بل وسيرورته وصيرورته، من كونه مجتمعا تحدد كينونته رواسب القبلية (Tribalisme)؟ بل وإلى أي مدى يمكن اعتبار اقتصاد الحد (الذي تأتي منه السلع) والشارع (حيث تباع) اقتصادا قبليّا؟

في مستوى موازٍ من البحث الميداني، أكد أغلبية مستجوبينا، عبر تقنية استمارة الاستبيان في إطار البحث الكمي، انتماءهم مجاليا وجغرافيا إلى منطقة سبيبة من ولاية القصرين. كما أكدوا، في إطار المقابلات البيوغرافية التي أجريناها معهم، وجود دراية بالنسب وأهمية يعطونها للجينالوجيا القبلية أي انتمائهم قبليا إلى فرع الغلايقية من فرقة ولاد خلفة. وهكذا فقد تبيّن لنا أنّ العلاقة بين ما هو قلبي وما هو اقتصادي واجتماعي، بعد ما أثبته البحث الميداني، مسألة من الضروري مقاربتها بصفة أعمق. لذلك راوحنا بين السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والتاريخ، لنناقش المخرجات البحثية، الكمية منها والكيفية، على ضوء إشكالية جديدة طرأت إبان البحث ولم نفترضها في بداياته.

1- في مفهوم القبيلة:

لعل سؤال جاك بيرك الإنكاري والجاد، كما يقول الأزهر الماجري[3]، الذي بقي دون إجابة شافية، «ما هي القبيلة الشمال الإفريقية؟»[4]، يؤكد التوافق السائد في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية صعوبة تعريف القبيلة وتعقيدات تحديدها مفهوميّا. وحسب «المولدي الأحمر»، وبالاستناد إلى مخرجات التجربة البحثية الأنثروبولوجية لـ«دافيد هارت» في المغرب العربي، يختلف مفهوم القبيلة من باحث إلى آخر. وبالنسبة إلى هذا المختص في سوسيولوجيا القبيلة، فإنّ الأجدر بالباحثين استعمال هذا المفهوم بمضمون فضفاض ولين[5]. وبالاستناد إلى التعريف التقليدي العام الذي وضعه مؤسسو الأنثروبولوجيا الأوائل، يعتمد المولدي الأحمر تعريف «بيار بورت»، الذي يعتبر القبيلة «مجموعة من السكان تجمع بينهم علاقات قرابة دموية (حقيقيّة أو وهميّة) ذات استحقاقات متعددة ويعيشون متجاورين ويتكلمون اللغة نفسها ويشتركون في ملكية العناصر الأساسية للإنتاج (الماء والمرعى والأمن) بقطع النظر عن تنقلهم في الفضاء من عدمه، ويمارسون عادات وتقاليد ثقافية ملزمة تجسد الانتماء والاتحاد وتقويهما، ويتشبثون بفكرة العدالة والمساواة بين الجميع رغم أن ذلك لم يمنع من وجود هرمية اجتماعية داخلية، ولا يعرفون تمركزا داخليا حادا للسلطة يولد المؤسسات البيروقراطية القهرية ويديرون شؤونهم الاجتماعية عبر مؤسسات محلية باستقلال نسبي أو كامل، بحسب الانتماء إلى منظومة سياسية أشمل- مركزها الدولة- من عدمه»[6].

---

3 الأزهر الماجري، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي**، (تونس، منشورات كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة، 2005)، ص 3-36

4 Jacques Berque, « Qu'est-ce qu'une tribu Nord-Africaine ? », in *L'éventail de l'histoire vivante*. Hommage à Lucien febvre, Paris, colin, (1953). Pp.261-271

5 المولدي الأحمر، «**نحو استعادة المشاهدة من دون حجاب القبيلة**.» دورية عمران للدراسات الاجتماعية، 4.15 (2016): 113-132.

6 Pierre Bonte, "Tribu," dans : Pierre Bonte et Michel Izard, dirs., Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie (Paris : Presses universitaires de France, 1991), pp 720- 721, et André Béteille, « A propos du concept de tribu, » *Revue Internationale des Sciences Sociales* (Paris), vol. 32, no. 4 (1980), pp. 889- 892

ويتماهى هذا الفهم تماما مع وجدناه من نتائج طيلة المراوحة بين البحث الميداني والبحث النظري في سعينا لاستقراء تحليلي (induction analytique) مُمكن لظاهرة اقتصاد الحدّ والشارع بما هي ظاهرة نجد إحدى محدداتها في القبيلة بوصفها شكلا من أشكال التضامن وضربا من التنظيم الاجتماعي.

2- الجينيالوجيا القبلية لفرقة «ولاد خلفة»:

في كتابه «قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي»، درس الأزهر الماجري مجموعات ماجر والفراشيش بما هي وحدة قبلية على اعتباره أنّهما قبيلتان طرفيّتان في علاقتهما بالسلطة المركزية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[7]. إذ يعتبر هذا المؤرخ كلا من ماجر والفراشيش مجموعات قبلية تميزت عبر تاريخها بنوع من الاستقلالية المحلية في إدارة حياتها اليومية ومقاومة كل أشكال الهيمنة الخارجية. كما يوضح، انطلاقا مما هو مثبت في الأرشيف الرسمي، أنّه لطالما تم تصنيف ماجر والفراشيش باعتبارهما مجموعتين قبليتين في مواجهة السلطة وخارج الشرعية [8]. كما أنّهما تشتركان في كونهما مجموعة بشرية تحتل الجزء الحدودي مع الجزائر من الوسط الغربي للبلاد التونسية ولهما مميزاتهما وظروفهما الخاصة الّتي قد تلتقي أيضا في عديد المستويات مع بقية مكونات المجتمع التونسي بجزأيه الحضري والقبلي [9]. وهكذا، يعتبر هذا المؤرخ أن احتفاظ المجموعات القبلية الكبرى في البلاد التونسية بأسمائها ومجالاتها وبنوع من الهوية الجماعية المحلية تفيد أن هذه التركيبة الاجتماعية مازالت «حية» رغم ما تعرضت له من تفكيك وتشتيت من قبل السلط السياسية التي تعاقبت على البلاد التونسية [10]. من جهة أخرى، يركز الأزهر الماجري على توحيد الخطاب حول ماجر والفراشيش باعتبارهما وحدة قبلية تمثل منطقة الوسط الغربي أو جهة السباسب العليا الغربية من السفح القاري، وتعرضتا

7 الماجري، الأزهر، مرجع سالف ذكره، ص 3-4.

8 المرجع نفسه

9 المرجع نفسه، ص7

10 المرجع نفسه، ص 27-28

لتهميش ممنهج في الفترة الحديثة عكس النمو والتعمير الذي شهدته في عصور سابقة. كما أنهما تحتلّان موقعا استراتيجيّا بالنسبة إلى محاور المبادلات وتمثّلان فضاء عبور ضروري بين الشمال الحبوبي والجنوب التمري إضافة إلى أهمية المعاملات مع الشرق الجزائري باعتباره فضاء حدوديا استراتيجيا [11].

لقد شكّل معطى الجوار الجغرافي بين المجموعتين عامل تقارب تطور تدريجيّا نحو نوع من الوحدة بينهما وقسوة الطبيعة والمناخ الّتي تظهر في تعدد سنوات الجفاف فضلا عن تجارب الألم المشتركة والمتعددة. وهو ما عمّق الشعور بالوحدة لا المجالية فقط، بل وحدة الواقع والمصير أيضا [12]. وهكذا يتخلص الأزهر الماجري إلى أن هذه الوحدة المجالية والجغرافية والطبيعية وتشابه نمط العيش والتاريخ المشترك، أفرزت انسجاما داخليا لمجموعات ماجر والفراشيش. ولقد بلغ هذا الشعور المشترك حد الوحدة [13]. كما أفرزت أيضا التحرك الموحد خلال الأحداث الكبرى التي ميزت تاريخ البلاد التونسية الحديث (الحرب الأهلية 1740-1728/ انتفاضة إسماعيل بن يونس/ وانتفاضة علي بن غذاهم)[14]. كل هذه المعطيات، وبتوظيف كتابات الضباط الفرنسيين وما كتبه أيضا «جون غانياج»، جعلت الأزهر الماجري يتخلص إلى أن بطون ماجر والفراشيش كانوا يمثلون اتحادا قبليا بين عدة مجموعات بشرية متنوعة أو أنّهم كانوا يمثّلون قبيلة واحدة برأسين (Bicéphale)[15]. أما فيما يخص ماجر بالذات، كي ننزل التشخيص في سياق ما نبحث عن اكتشافه في بحثنا هذا، يذهب هذا المؤرخ في حديثه عن قبيلة ماجر وفروعها وفرقها المختلفة، إلى تقسيمها إلى ثلاثة عروش أو بردعات كبرى. من بينها عرش أولاد مهني المتكون من عشرة فرق، إحداها فرقة «ولاد خلفة» التي ينحدر منها فرع «الغلايقية» الذي ينتمي له أكثر من تسعين بالمئة من الباعة اللا نظاميين في نهج إسبانيا موضوع دراستنا.

11 المرجع نفسه، ص-ص 35-34

12 المرجع نفسه، ص-ص 43-41

13 هنا يستند الماجري على رواية المخبر حمودة ابن عبد العزيز

14 المرجع نفسه، ص-ص 47-46

15 المرجع نفسه، ص 48

وحسب الأمجد العثماني، في كتابه «نبش الذات: مدينة جلمة في ذاكرة الأيام»[16]، تتكون قبيلة ‹‹ماجر›› من عدة فِرَقٍ، ويذكر من بينها فرقة ‹‹ولاد خلفه›› (التي ينتمي إليها فرع الغلايقية أي 90 بالمئة من الباعة المستجوبين كما ينتمي له فرع ‹‹الجلامة›› الذي يمثل 5 بالمئة من المستجوبين) التي تنتمي لبردعة ‹‹أولاد مهنى›› وهي أحد البرادع الثلاث لقبيلة ماجر[17]. إذن حسب الأمجد العثماني،»أولاد خلفة» هي فرقة تنتمي إلى بردعة «أولاد مهني» من قبيلة ماجر. يسكنون سبيبة وجلمة حاليا. من أبرز هذه الفرق «الغلايقية» والعواونةوالفراحتيةوالشعايريةوالمناصريةوالسبابلة... وغيرهم من الفرق. تاريخيا، حسب نفس الكاتب، اشترى «ولاد خلفة» الأراضي من فرق» أولاد سباع» في نهاية القرن الثامن عشر في جهة جلمة الشرقية بين حاجب العيون وجلمة وكونوا منطقتين رئيسيتين في التل والسباسب إحداهما وراء جبل مغيرة والأخرى في الجهة الشرقية لجلمة[18].

وبالاستناد إلى مراجع تعود لفترة الاستعمار الفرنسي، لسنة 1900(مونتشيكور)[19]، يشير الأمجد العثماني إلى أنّ فريق «ولاد خلفة» يضمّ العديد من الفروع من بينها «الجلامة والغلايقية» تحديدا، باعتبارها مسيطرة على جزء من اقتصاد غير رسمي من حدود ولاية القصرين مع الجزائر وصولا لشوارع العاصمة وأنهجها، كما أنهم، أي «الغلايقية» و»الجلامة»، يشتركون جينيالوجيا في انتماء مشترك لقبيلة ماجر، وجغرافيا في التجاور بين كل من معتمديتي سبيبة وجلمة. من جهة أخرى، يشير العثماني إلى أن «أولاد خلفه» يمثلون ركيزة أساسية لقبيلة ماجر في أكثر من ميدان ويقطنون بجلمه وسبيبة ويتمركزون تجاريا في العاصمة دون أن يذكر طبيعة هذه التجارة إن كانت منضوية في الاقتصاد الرسمي أو غير الرسمي[20].

يؤكد محمد علي الحباشي، من جهته/ هذا التشخيص في كتابه «عروش تونس» حين

16 العثماني، الأمجد، **نبش الذات: مدينة جلمة في ذاكرة الأيام**، (تونس: دار الاتّحاد للنشر والتوزيع، 2021)، ص-ص 345-356.

17 المرجع نفسه.

18 المرجع نفسه.

19 Monchicourt, Charles, La région du haut Tell en Tunisie, Éditions 1913, pp, 174-291.

20 العثماني، الأمجد، م س، ص-ص 345-356.

يذكـر، بالاعتمـاد عـلى إحصائيـات الحماية الفرنسـية، وجـود تقسـيم ترابـي إداري للقبائل وضعـه الفرنسـيون (1881 – 1956) وفيـه يذكر عـرش ولاد خلفـه التابع للمراقبـة المدنية بتالـة .[21] وحسـب الكاتـب نفسـه، وفي وصفـه للتنظيـم الترابي الجديـد لدولة الاسـتقلال[22]، يذكـر أنـه، قبل إعـلان الجمهوريـة، ضمّت ولاية سـبيطلة، باعتبارهـا إحدى المناطـق الترابية الإحـدى عـشر، كلا مـن جلمـة وسـبيبة. ثـم سـتفصل كلا المنطقتـين بمقتـضى قانون سـنة 1959 ثـم قانـون 1973 لتصبح كلا القريتـين تابعتين لولايتين مختلفتين: القصرين وسـيدي بوزيد[23].

رسم بياني: تشريح جينيالوجي لفرقة «ولاد خلفة»

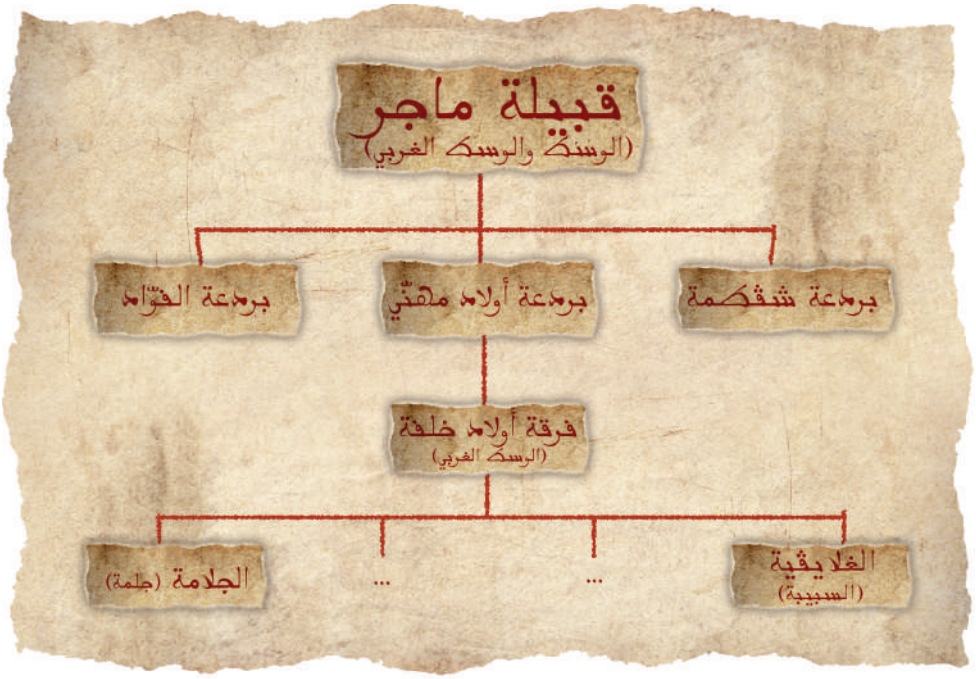

21 الحباشي، محمد علي، **عروش تونس**، (تونس: سوتيميديا للنشر والتوزيع 2017)، ص 152–153

22 المرجع نفسه، ص 118–121.

23 المرجع نفسه.

3- العصبية القبليّة كمفتاح لفهم اقتصاد الشارع في نهج إسبانيا:

مؤطر رقم4

حسب جلبير أشقر شهد الفضاء الناطق باللغة العربية دائما تنافس عدة أشكال من التضامن الاجتماعي تصارعت بحدة في مراحل مختلفة في تاريخه. أقدم هذه الأشكال هي التضامن عبر النسب *(lignagère)* والتي تتميز بها/تميز القبائل بالأساس. هذه الأشكال القديمة للتنظيم الاجتماعي تواصل الوجود منذ أمد بعيد حسب طبيعة توظيفها من قبل أشكال السلطة المهيمنة المختلفة التي تعاقبت على المنطقة. هذا النمط من التضامن القبلي يعادل، حسب جبير أشقر، ما سماه دوركهايم التضامن الميكانيكي في المجتمعات الانقسامية، وما سماه ابن خلدون، في مرحلة سابقة، العصبية القبلية. ويعتبرها خالقة لقوة الجماعات البشرية والمفتاح الذي يمكن من فهم تعاقب السلالات الحاكمة في شمال إفريقيا.

Achcar, Gilbert. « Le conflit des solidarités dans le monde arabe », Alain Supiot éd., La Solidarité. Enquête sur un principe juridique. Odile Jacob, 2015, pp. 213-220.

بالنسبة إلى ابن خلدون، في الباب الثالث من كتابه المقدمة [24]، تعتبر العصبية نزعة طبيعية لدى الانسان منذ بداية البشرية تولدها علاقات النسب والقرابة والتي تحدد، أي هذه العلاقات، عبر درجة قرب النسب وبعده، درجة قوة أو ضعف العصبية. فالقرابة، في مستوى أول، ضيقة. أي داخل العائلة. وفي مستوى ثان، هناك قرابة أوسع، تكون درجة النسب فيها قائمة على الولاء للقبيلة أي العصبية القبلية. يضيف ابن خلدون أن هذه العصبية تتحلل وتتلاشى إذا أصبح النسب مجهولا وغامضا ويعتبر أن النسب لا يختفي ولا يختلط في العمران البدوي لأن قساوة الحياة في البادية تجعل القبيلة تعيش حياة العزلة والتوحش[25]. وبذلك يحافظ البدو على نقاوة أنسابهم ومن ثم على عصبيتهم. وهكذا يؤكد ابن خلدون على أن الصريح من النسب يوجد لدى من هم الأكثر فقرا. أي أن تطور الوضعية الاقتصادية والاجتماعية، والانتقال من الريف

24 ابن خلدون، عبد الرحمان، **المقدّمة، الباب الثالث**، (بيروت: دار صادر للنشر، 2009)، ص 119-246.

25 المرجع نفسه

إلى المدينة، سيضيّع نسبهم حتما بسبب كثرة الاختلاط، فيفقدون بذلك عصبيتهم [26]. وفي الحالة التي ندرسها، أي عرش «الغلايقية» المنحدر من فرقة «ولاد خلفة»، لم يفقد هذا العرش عصبيته رغم «انتقال أفراده إلى المدينة» لأنّهم يعيشون وضعية هشاشة مهنية واقتصادية واجتماعية من جهة، ولأنهم، من جهة أخرى، لم ينتقلوا فرادى بل جماعات، ولم ينتقلوا ذهنيا وثقافيا وفعليا. وفي الواقع فإنّ انتقالهم إلى المدينة هو انتقال جسديّ بصفة مؤقتة (سواء كان انتقالا لأسبوع أو عقد من الزمن) بل هم في حالة سفر من أجل بيع السلع التي يوردها حدوديا أبناء القبيلة الأم نفسها، قبيلة ماجر، (وكأنهم قافلة تجارية منتمية إلى قبيلة حلت في العاصمة وستعود إلى موطنها بعد انتهاء المهمة في نهج إسبانيا). فهم لا يتزوجون في العاصمة ولا يستوطنون فيها وحين يتزوجون، يتزوجون بنات العم هناك في سبيبة حيث يبنون بيوتهم ويدخرون أموالهم أو يستثمرونها (أكثر من 09 بالمئة من المستجوبين لا يملكون حسابا بنكيا).

إذن هم لم يأتوا بحثا عن العمل وعن الاستقرار في العاصمة بل هم جماعات منعزلة تعيش مع بعضها في معزل عن بقية المجتمع، وهدفهم من الانتقال إلى المدينة هو التّجارة وسيعودون نهائيّا إلى مرابضهم الأولى، بل هم يعودون بين الفينة والأخرى، إلى سبيبة، « البلاد كما يقولون» ما إن يحين موعد تقاعدهم المرتبط بالمدخرات والسن وتوريث المهنة والتجارة للأبناء[27].فالنسب لديهم، وعلاقات القرابة، لا تحدد داخل العائلة فقط ، بل داخل العرش: القبيلة أو الوحدة التنظيمية داخلها. وذلك عبر دراية واضحة بشجرة النسب والتسلسل الجينيالوجي. فطيلة بحثنا الميداني تبيّنّا أن البائع لا يعرّف نفسه عبر لقب العائلة بل بالمنطقة (سبيبة) أو بالعرش (الغلايقية ثم ولاد خلفة).وبالتالي، تثبت الظروف الاقتصادية والاجتماعية الهشة لهؤلاء الباعة، بوصفهم عينة من المجتمع الأصلي في الوسط الغربي عموما والطبقة الفقيرة أو المتوسطة الدنيا على وجه الخصوص، إلى حد معين نظرية ابن خلدون حول صراحة النسب لدى الفئات الأكثر فقرا. لكنّ حفاظهم على معرفة واسعة بالنسب وتوليد تطبعهم انطلاقا منها، رغم ذهابهم إلى

26 المرجع نفسه

27 لمزيد من المعطيات الكمية حول البروفيل الاقتصادي والاجتماعي للباعة انظر المدخل الأول من هذا المحور.

المدينـة، لا ينفـي النظريـة الخلدونية لكنـه يحيّنها، كما فسرنـا أعلاه، وذلك بعـدم اندماجهم في مجتمـع المدينة(العاصمـة) ومحافظتهـم على تضامن قبـلي وميكانيكي وعيـش منعزل عن بقيـة المجتمـع[28]. بالتـالي، العصبية القبلية تنشـأ في العمران البـدوي ولكن، في حالـة الباعة الغـير نظاميـين بنهـج إسـبانيا، لا تفقد هـذه العصبيـة في العمـران الحضري عـلى عكس ما حـدث مـع القبائـل، تحديدا قبائل الوسـط والوسـط والشـمال الغربي، التي تـم تهجيرها من مناطقهـا (عهـد البايـات بالأسـاس) أو نزحـت قسريـا لأسـباب اقتصادية (دولة الاسـتقلال تحديـدا) نحو العاصمـة، أو على هامشـها، ففقدت عصبيتهـا القبلية.

4- نزوح ذو شكل جديد: ترحال القوافل:

في كتابـه، العـروش مـن النشـأة إلى التفكيـك[29]، يعتـبر الحبـاشي أن فشـل انتفاضـة 1864 بقيـادة ‘‘ عـلي بـن غذاهـم‘‘ أدى إلى تسـليط سـلطة المخـزن عقوبـات جماعيـة عـلى العـروش الثائـرة أدت بدورهـا إلى انتقـال ملكيـة الأراضي لأرسـتقراطية المـدن (حليفـة البايـات) وتحـول مـن تبقـى مـن مزارعـين إلى «خمَّاسـة» أو صغـار «ملاكـة» لـدى كبـار المزارعـين مـن البورجوازيـة المحليـة بعدهـا لـدى المعمريـن. هـذا أجـبر أهـل القبائـل العاملـين في الأرض عـلى الرحيـل عنهـا والنـزوح لأطـراف العاصمـة في تجمعـات سـكنية هامشـية مـا يفـسر السـبب التاريخـي للتفـاوت بـين المـدن والأريـاف ومعضلـة الفلاحـة. بعد الاسـتقلال تواصـل هذا الاختلال بانتهاج سياسـة تمييـز بين الجهات. في سـياقنا الحالي، وعـبر بحثنـا الميدانـي المعمق في ظاهـرة اقتصاد الشـارع في تونـس، لاحظنا أن نـزوح الباعة هـو نزوح مؤقـت وخاضع لتقسـيم للعمل الاجتماعـي داخل الوحـدة التنظيميـة القبلية التي ينتمـون لهـا. فتوريـد سـلع الاسـتهلاك الجماعـي عبر الحـدود بصفة غـير قانونيـة يتم عبر العائـلات الأثـرى في عـرش «الغلايقيـة» وبيعهـا موكـول لأبناء العائـلات الأقل حظـا المنتمين لنفـس العـرش. فالقبيلـة لـم تعـد تهاجر قسريـا، تحـت قمـع البايـات أو تنقسـم حدوديا

28 لعلنا، وربما في بحوث قادمة، سنتجرأ على انتاج مفهوم جديد نسميه تضامن القوافل لتفسير التماسك الاجتماعي لمجتمع الباعة غير النّظاميين في نهج إسبانيا.

29 نسخة سنة 2000

بحكم الاستعمار او تتفكك بضغط دولة الاستقلال وتفقير الجمهورية لها، بحثا عن العمل. بل استحضرت ماضي قوافلها التجارية المرتحلة لتسافر ببضائعها وتنتج اقتصاد الحد والشارع في هيمنة على المركز لا خضوعا له.

5- اقتصاد الحَدّ والشارع بما هو اقتصاد قبيلة/قبليّ.

لم تعد فِرَقُ «ولاد خلفة» التي، وفي تغيير عميق لعلاقاتها مع السلطة باعتبارها فرع قبيلة تشكّل امتدادا لقبيلة ماجر، تطالب الدولة ولا تترك المجال لهذه الأخيرة لمطالبتها. إنّها قبيلة تحرك اقتصادا كاملا لا يخضع إلى سلطة العاصمة من طبقة تجارها مرورا ببنوكها ووصولا إلى حكومتها. إنّه اقتصاد خفي ومعلن في آن. وهو من جهة أولى، لا نظامي (لايخضع للاقتصاد المقنن الرسمي) وغير منظم (لا يخضع لتنظيم العمل التعاقدي المتعارف عليه). لكنه من جهة ثانية، نظامي (لاعتراف الدولة بوجوده حيث تعجز عن تدميره لا من ناحية العجز الامني بل لعجزها عن تعويض مكانته الاقتصادية والاجتماعية لأنه يعوض غيابها) ومنظم (بتعاقد غير معترف به) قائم على تضامن ميكانيكي بين مجتمع الباعة المرتبطين بوشائج أولية والمتشابهين جدا من زاوية أشكال تقسيم العمل المنخفض والتخصص شبه المنعدم وتطابق الأعمال، فهم يبيعون السلع نفسها، تقريبا، وينتمون للجيل نفسه وللجهة نفسها وللقبيلة نفسها.

نعم، لقد عوضت الثورة الصناعية، كما يفسر ذلك «يوفال نوح حراري» منذ مئتي عام، بالدولة والسوق بالعائلة والجماعة[30]. لكن ماذا إن لم تحدث ثورة صناعية في مجتمع ظلت دولته وسوقه تابعتين لدول واقتصادات أخرى ولم يشهد إقطاعا ليتحول إلى الرأسمالية بل وانخرمت علاقات إنتاجه بسبب استعمار مطول؟ هنا يمثل الباعة اللانظاميين بسوق نهج إسبانيا الدليل، ولو جزئيا، على جينالوجيا التأخر التاريخي التونسي كما يفسّره المؤرّخ «الهادي التيمومي» وتأثيرها على واقعنا الاقتصادي والاجتماعي اليوم[31].

30 Yuval Noah Harari, *Sapiens, Une brève histoire de l'humanité*, trad. de l'anglais par Pierre-Emmanuel Dauzat, (Paris, Albin Michel, 2015), 5-95.

31 Hedi Timoumi, *Généalogie d'un retard historique : Le Maghreb pré-moderne*, (Tunis, Éditions Mohamed Ali El Hemmi, 2011), 45-60

فغيـاب الدولـة والسـوق مـن جهـة، أو غيـاب الدولـة الراعيـة وعـدم القـدرة عـلى خلق اقتصـاد سـوق ذي قدرة عـلى إدمـاج غالبية المواطنـين، وتهميـش الريف لصالـح مدن صار هـذا الأخـير ينـزح إليها بحثا عـن الدولة وعن السـوق، هو مؤشّر يمكنّنا من تفسـير الأسـباب الّتـي أدّت إلى تواجـد هـؤلاء «النصّابة» أفـرادا وجماعات بنهج إسـبانيا، دون غيرهم. فدولتنا واقتصادنـا الوطنـي وسـوقنا لا تتسّـع للجميـع. وذلـك بِفعـل سـيرورة إصلاح هيـكلي منذ عقـود، خاضـع لتقسـيم عالمـي غير عـادل للعمـل، عجز عـن الإصلاح بـل زاد من المشـاكل. لذلـك سـيكون عصرنـا التّونـسي هـذا، عـصر العائلـة ربمـا، أو العـودة إليهـا، ولكنـه عصر الجماعـات والمجموعـات، بـل عـصر القبيلـة وعصبيتهـا وتضامنهـا لا محالـة وإن تغيرت/ ستتغير أشـكالها وتشكيلاتها.

مـن جهـة أخـرى، وعـلى عكـس الجرابـة الإباضيـين، الذيـن، بفضـل حلقـات العزَّابـة، اسـتفادوا اقتصاديـا واجتماعيـا وخاصة سياسـيا مـن نزوحهم نحـو العاصمـة وجعلوا من هـذه المؤسسـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة مؤسسـة سياسـية تجـاوز نفوذهـا بـلاط البـاي إلى مشـارف البـاب العـالي العثمانـي[32]، لـم تتمكـن، أو لـم تتمكن بعـد، فرقـة «ولاد خلفة» المنحـدرة مـن قبيلـة ماجر، من تجـاوز المسـتوى الأول، أي مأسسـة أنشـطتها التجارية رغم وجـود تضامـن قبـلي ميكانيكي متين جعلهـا تحتكر جـزءا من السـوق الموازية. ولـم تتمكن بعـد مـن تحويل القـوة الاقتصاديـة لقوة سياسـية وانحـصر المـردود الاقتصـادي لتجارتها عـلى تنميـة عقاريـة او تكبـير رأس المـال دون اسـتثمار عـلى عكـس مـا حـدث مـع التجّار الصفاقسـية او الجرابـة. ذلـك مـرده، حسـب افتراضنـا، الأسـباب التالية:

. غيـاب البنيـة التحتيـة الاجتماعية والثقافيـة والوحـدة المجالية المعوضة لسـقوط القبيلة الأم وتفكّكهـا وتشـتتها (قبيلة ماجـر خصوصا) ترابيا وسياسـيا على عكـس مدينة صفاقس الممثِّلـة لوحدة عائـلات وتطبع اجتماعي مشـترك ومجال سـياسي.

32 إينـاس، الطبجـي، **شـتات أهـل جربـة في مدينـة تونـس خـلال العـصر الحديـث مـن بدايـة القـرن 17 إلى نهايـة القـرن 19**، مذكـرة ماجسـتير في التاريـخ الحديـث، تأطـير عبـد الحميـد بـن هنيـة (تونـس: كليـة العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، 2007)، ص 24-60

. غيـاب المنطلق المذهبـي العقائدي المولِّد للمعاملات والسـلوكات والاسـتراتيجيات والتطبّع والمـشروع السـياسي والحضـاري كمـا هو الحـال مع الجرابـة عبر حلقـات العزَّابة والسـعي إلى تعويض سـقوط الدولة الرسـتمية.

. لـم تكـن ماجر قبيلـة مخزنية ولا موالية للسـلطة في تونـس ولا حتّى محايـدة، بل كانت «سِـيبَه» ومُعارضـة للسـلطة، ويمكـن موضعـة ذلك تاريخيـا من الفتنة الباشـية الحسـينية مـرورا بانتفاضتهـا، انتفاضـة بـن غذاهـم، مُعارضـة للسـلطة. وبالتـالي عـدم وجود سـند سـياسي لـ «ولاد خلفـة» تحديـدا، وماجـر عمومـا، لـدى المخـزن أو السـلطة ككل في المركز (السُـلطة في العاصمة).

ولكـن، إذا مـا أجبنـا، في حـدود ما يسـمح بـه ومـا مكّننا إيـاه هـذا الإطـار البحثي، على سـؤال: لماذا لـم تتحول الوحـدة التنظيميـة القبلية إلى مؤسسـة اقتصادية وسياسـية؟ فكيف نفـسر صمـود الراسـب القبـلي أي التضامـن الآلي القائـم عـلى عصبيـة قبليـة في نمـط عيش «الغلايقيـة» وبالتـالي اسـتمرار القبليـة باعتبارها نزعـة (Tribalisme)؟

يذهـب «نجيـب بوطالـب» إلى أن عجـز الدولـة رغـم كل إجـراءات التغيير التي سـعت من خلالهـا إلى إلغـاء البنية القبليـة وتفكيكها في كل المسـتويات يعود إلى مقاومة هـذه الجماعات لمفهـوم الدولـة وإمكانيـة تحـول هـذه المقاومـة إلى نـوع مـن التعايـش الحـذر بـين بنيتين تنفـي كل منهمـا الأخـرى[33]. في مسـتوى آخر، يعتـبر بوطالب أن بـطء التحـولات الاقتصادية والاجتماعيـة في الأريـاف وتعثـر مشـاريع التنميـة أدى إلى جمود في أسـس البنـاء الاجتماعي وتحكـم المحـددات التقليديـة في المجتمعـات المحلية[34]. كمـا يعتـبر أن التهميـش الاجتماعـي والجهـوي سـاهم في الحفـاظ على طابـع الانكفـاء في العلاقات ما بـين المجموعـات والجهات، أي ضعـف الاندمـاج الوطنـي. من جهـة أخرى، يفـسر أن عملية إعادة تشـكل الوعـي القبلي واسـتمراره تعتمد بالأسـاس عـلى الظهور الخفي والمناسـباتي عبر تشـكل قائم عـلى التخفي والتلون[35].

33 بوطالب، محمد نجيب، مرجع سالف ذكره، ص 24-25

34 المرجع نفسه

35 المرجع نفسه

وفي موضـوع دراسـتنا، يقـوم هذا التشـكل على حيازة النهـج لتحويله إلى سـوق يحتكرها أفـراد العـرش نفسـه عـبر اعتمـاد عصبية قبليـة. في مسـتوى آخـر، يتسـاءل بوطالب حول إمكانيـة القـول إن اسـتمرار تحكـم البنـاء الاجتماعـي التقليـدي يجـد بعـض تمييزاتـه في اسـتمرار ظاهـرة الضيـم الجهوي.

نهج إسبانيا: ملكية قبلية:

مؤطّر رقم5

نهج إسبانيا نهج استراتيجي لا يقبل الباعة اللانظاميّون الذين يملكونه بمنطق قبلي (منطق الغزو والحوز والتصرف لمدة طويلة) بتقاسمه مع الدولة ودفع الجباية لها أو تشريك من هم من خارج القبيلة فيه من جهة، وبمغادرته نحو فضاء منظم تعترف به الدولة لكنه لا يدرّ عليهم القيمة الربحية نفسها ويهدم أواصر قوتهم القائمة على القبلية وعلى استراتيجية النهج في حد ذاته من جهة أخرى. فالنهج، إلى جانب مجاورته للسوق المركزية وقربه من شارع الحبيب بورقيبة، هو قريب أيضا من محطة برشلونة ومحطات النقل الجماعي لكن أيضا من سوق "الكوميسيون" وسوق "سيدي بومنديل" ومن أسواق المدينة العتيقة حيث يعتبر شريانا اقتصاديا بعبور ومرور عشرات آلاف المستهلكين منه يوميا.

بالاعتمـاد على نتائج البحـث الميداني، خاصة السوسـيو-أنثروبولوجي منـه، عبر المقابلات البيوغرافيـة والملاحظـة بالمشـاركة، اكتشـفنا أن الباعـة المنتصبـين عـلى طول نهج إسـبانيا، وإلى جانـب انتمائهـم لنفـس الوحـدة التنظيميـة القبليـة (الغلايقيـة من فرقـة ولاد خلفة/ منطقـة سـبيبة)، فهم يمتلكـون الشـارع ملكية جماعيـة ماديّة، وليسـت مجازيّـة أو رمزيّة فقـط، ولكـن دون عقـود رسـمية تثبت ذلـك. وقد تحصّلـوا على هـذه الملكية عبر اسـتحضار المنهـاج القبـلي (الغزو-الحـوز- التصرّف لمـدّة طويلة) أي عـبر قدرتهم على افتكاك الشـارع لا مـن الدولـة فقـط بل من كل المنافسـين الذيـن لا ينتمون إلى العـرش. إنّها ملكيـة تُورَّثُ من الجيـل الأول إلى الجيـل الثاني حاليـا والجيل الثالث ربمـا في ظرف عقدين آخريـن من الزمن. فالبائـع، وإن كانـت أداة عملـه عربـة أو علبة كرتـون مقـوى أو غلافا بلاسـتيكيّا للتمكن من الانتصـاب صباحـا وجمـع البضاعة مسـاء والهروب مـن البوليس كلمـا توجب الأمـر، يمتلك

فعليا المكان الذي يضع فوقه أداته وسلعته. أي أنه حاز المكان وامتلكه بقرار فرديّ، أو ورثه عن أبيه أو أجّره له ابن العم لأنّه منتم إلى القبيلة التي حازت العمل في ذلك النهج واحتكرته منذ أكثر من عقدين من الزمن. فكل بائع يمتلك فعليا، من السادسة صباحا إلى حدود السادسة مساء مساحة معينة دون عقد كراء أو ملكية ودون رضا الدولة والبوليس أو أيّ فرد آخر يرغب في نصب سلعه هو أيضا في المكان نفسه. فنهج إسبانيا، من تقاطعه مع شارع الجزيرة وصولا إلى تقاطعه مع نهج هولندا، هو يتقاطع رمزيا مع معتمدية سبيبة وإن كانت تبعد مئات الكيلوميترات، وهو يخضع لسلطة عرش الغلايقية وإن كان ملكا للدولة وفق وثائقها الرّسميّة.

يتحدث نجيب بوطالب في كتابه « سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي»، عن «الجبرية القبلية» بما هي إحدى محددات الإيديولوجيا القبلية[36]. فالأفراد "تتحدَّد مكانتهم داخل القبيلة بانصهارهم في إطار الجماعة وبالتالي لا يعبرون عن ارادتهم الخاصة بل عن فعلهم الفردي او الجماعي من خلال إرادة القبيلة» [37]. فالفرد حين يغزو مثلا، أو يحوز نهج إسبانيا ويبقيه تحت سيطرة أبناء عمّه، فهو لا يفعل ذلك لنفسه فقط بل من أجل القبيلة. أي أنه « يمارس بذلك فعلا اجتماعيا سياسيا نابعا من قهر الجماعة الذي يمنعه من ممارسة فعل مغاير لذلك الفعل»[38].

فكيف يمكن أن نفهم ذلك سوسيو-تاريخيا؟؟

يوكد نجيب بوطالب أن المجتمع القبلي في كثير من مظاهره يقوم على المساواة والعدالة بالمقارنة مع مجتمع المدينة. وهذا ما يدل عليه ضعف الفروقات بين أفراد

36 بوطالب، محمد نجيب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2002)، ص 108.

37 المرجع نفسه.

38 المرجع نفسه.

القبيلــة، كما يغطــي التضامن القبلي بــين الأفراد والمجموعــات الفوارق الفرديــة ويضعفها[39]. فالطبيعــة الهرميــة تــكاد تختفــي لأن الملكيــة مشــتركة في أغلــب الأحيان.[40] وحســب المــؤرخ التونــسي «إبراهيــم بن جمعه بلقاســم» الذي اشــتغل على مســألة الاقتصاد والمجتمــع في الإيالة التونســية تاريخيا ولكن كذلك بالاســتئناس بالتحليل السوســيولوجي كلمــا اقتضت الضرورة التحليليــة[41]، فــإنّ ملكية الأرض بالنســبة إلى القبيلة في تونــس تظل دائما ملكيــة جماعية على الشــياع لكنهــا تواجــه تهديــدا مســتمرا مــن الجــيران ولا بــد مــن الدفــاع عنها ممــا يعطي للحــرب دورا اقتصاديــا مهمــا خاصــة وأن الأرض هــي الأســاس المــادي لإعادة إنتــاج القوى البشريــة[42]. وبالتــالي، مهمــا كانــت طريقــة امتــلاك القبيلــة لأراضيهــا (الغــزو- المصاهرة- الهبــة) فــإن الأرض تعــد أهم شيء بالنســبة إليها إذ تمكنها مــن توفير الــشروط المادية للبقاء. ومهمــا كانــت الحــدود غامضة فــإن العــرف والعادة والحــوز والتــصرف لمدة طويلــة، وقوة القبيلــة العســكرية، هي الــشروط الكفيلــة بإثبات الملكيــة واســتقرارها[43]. ولتحافــظ القبيلة عــلى وحــدة الأرض يفضــل الــزواج مــن بنــت العم[44].مــن جهــة أخــرى، ومواصلــة للتحليل السوســيو-تاريخي نفســه، يخضــع مجتمــع الباعــة في نهــج إســبانيا أيضا إلى تقســيم قبلي للعمــل الاجتماعــي ولّــده قانون إعــادة إنتاج لا يمكــن تفســيره إلا جينيالوجيــا أي بالبحث في النشــأة والتكويــن والوقوف عنــد الأصل.

وبالاســتناد لمــا شرحه بن جمعــه بلقاســم في كتابه الاقتصــاد والمجتمع في الإيالة التونســية مــن 1861 إلى 1864، هنــاك ديمقراطيــة اقتصاديــة واجتماعية بــين أفراد مجتمــع النصابة ومســاواة فيمــا بينهــم فيمــا يتعلق بــالأرض بوصفها وســيلة إنتــاج. هذا مــا يرادفــه ملكية نهــج إســبانيا باعتبارهــا أرضا أُمتُلِكــت جماعياً وتــم توزيع المســاحات فيهــا ديمقراطيا بين

39 المرجع نفسه.

40 المرجع نفسه، ص 105

41 بلقاسم بن جمعة إبراهيم، **الاقتصاد والمجتمع في الإيالة التونسية من 1861 إلى 1864**، (تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس)، 2002.

42 المرجع نفسه، ص 145

43 المرجع نفسه

44 أغلب الباعة هم أبناء عم والمتزوجون منهم تزوجوا من بنات أعمامهم

الأفـراد المنتمـين للقبيلـة والمنطقة نفسـها.[45] من جهة أخـرى، يوجد تفاوت وتمايـز اجتماعي داخـل القبيلـة لـه ركائزه التي تسـتند عـلى الأدوار والوظائف التـي يلعبها الفـرد وعلى علاقة العنـف، بأنواعه، بفرض نـوع من تقسـيم العمل[46].

فالمـورّد الحـدودي للسـلع بصفة غـير قانونيـة، أو المهـرب / الكناتـري في روايـة أخرى، يهـرب السـلع، بقيمـة عـشرات أو مئـات الآلاف مـن الدنانـير يوميـا، عـبر الحدود عـلى متن شـاحنته الرباعيـة الدفـع مواجهـا خطـر المـوت رميـا بالرصـاص أو في حـادث مـروريّ أو السـجن في مواجهتـه لحـرس الحـدود الذي يترصـده ويلاحقـه، ليس هـو البائع الـذي يبيع سـلعا بقيمـة مئـات الدينارات يوميـا في نهـج إسـبانيا. فالأول هو امتـداد تاريخـي للفارس في القبيلـة الـذي كانـت عائلتـه قـادرة على توفـير الحصـان والسرج والسـلاح (مـا يعادلهم شـاحنة ال Isuzu أو Toyota اليـوم) لتحتكـر شرف حمايـة القبيلـة وما ينتجـه هذا الشرف مـن فوائـد (أي مراكمـة رأس مـال رمـزي ينتـج أو يحافـظ عـلى إنتـاج رأس المـال المـادي وبالتـالي بقـاء القبيلة).

مـن نافلـة القـول التّأكيد أنّ شـباب العـرش ليسـوا جميعا قادريـن أن يصيروا فرسـانا، "كناتريـة" في عصرنـا وسـياقنا وواقعنـا، وذلـك مرتبـط بقـوة الوحـدة التنظيميـة العائلية داخـل القبيلـة ككل ممـا يفـرز طبقتـين: طبقـة عاملـة متمثلـة في الباعـة في نهـج إسـبانيا تبيـع مـا تـورده لها طبقـة ثرية (مالكـة ومتحكمة في وسـيلة الإنتـاج) متكونة مـن الموردين الكبـار، أي العائـلات صاحبـة رأس المـال الذي ولدته مـن توريد السـلع، عبر أبنائهـا، لهؤلاء الباعة، عـلى حـدود الجزائـر. يجـب ذكـر أن البائع لا يدفـع ثمـن البضاعة إلا بعـد ان يبيعها في إطـار تعامل تحـدده الوشـائج الأولية القبليـة بين الطبقتين السـالف ذكرهمـا. وأن تكون بائعـا لا نظاميـا للسـلع أو أن تكـون مـوردا حدوديا غـير نظامي لهـا، فذلك مرتبط أساسـا بقَـدَرِكَ (Destin) الاجتماعـي أي موقع عائلتك ورأسـمالها الرمزي والمـادي: فهل هي منتجة للعمـال أم للفرسـان؟ فلـشراء سـيارة والسـماح لـك بقيادتهـا حدوديـا وجـب أن تنتمي إلى

45 المرجع نفسه، ص 147

46 المرجع نفسه

عائـلات معينـة داخـل العرش لها علاقاتهـا مع الأمن الحـدودي (حرس حـدود وديوانة) ومع الضفـة الأخـرى (الوحدات القبليـة الجزائرية المجاورة/المتصاهرة أو المتشـاركة في الانتسـاب لأصـل قبلي مشـترك التـي تبيع لهـم السِـلع /والأمـن الحـدودي في الجزائر). كذلـك هناك،في مسـتوى تحليـلي آخر، شـخصيات قـادرة عـلى المخاطـرة ومقدمـة عليها وهناك شـخصيات تخشـاها. وحسـب شـجاعة الفرد ومـدى قابليتـه للمخاطرة بحياتـه، في علاقة طبعـا بما هو رأس مـال مادي للعائلـة، تتحدد نوعيـة مواجهتك للدولـة وكمّية مرابيحك وكيفيّـة تحقيقها: أن تواجـه شرطـة بلديـة تنهرك أو تشـتمك من أجـل فائض ربحـي مقداره عـشرات الدنانير يوميـا وأن تواجـه رصاص حـرس الحدود مـن أجل مئـات الالاف من الدنانـير. إذن باحتكار مهنـة التوريـد، يسـتوجب على الفئـة الموردة تسـليم وظيفـة البيـع، في إطار تقسـيم للعمل، لفئـة أقـل في سـلم الهرم الاجتماعـي وهي فئـة الباعة اللانظاميـين في نهج إسـبانيا، موضوع دراستنا.

في هـذا الإطـار، وبالحديـث عن تقسـيم المجموعـات القبلية حسـب مؤشر تقسـيم العمل، يتحـدث الباحـث المتخصـص في علـم اجتمـاع القبيلة، نجيـب بوطالـب، عن وجـود نوع من التخصـص الوظيفـي ونـوع مـن التقسـيم القبـلي للعمـل الاجتماعـي. فتنقسـم المجموعات القبليـة وفروعهـا حسـب الأعمـال والوظائـف التـي تقـوم بهـا (فلاحيـة، مقاتلـة، تجارية، دينيـة)[47]. وبنـاء عـلى مـا تقـدّم يمكـن تصنيـف فرقـة «ولاد خلفـة» باعتبارهـا مجموعـة متفرعـة جينيالوجيا مـن قبيلة ماجر، وهـي الوحدة القبلية التجارية الرّاسـخة (تجارةسـلع الاسـتهلاك الجماعـي) وذلـك في تباين مـع الأعمـال والوظائف التي تقـوم بهـا تاريخيا فرق أخـرى تنتمـي إلى القبيلة نفسـها، الفلاحية منها (وظيفـة الرعي)، أو دينيـة (الزاوية والزرد مثـلا) أو مقاتلـة (دور الدفاع).

47 بوطالب، محمد نجيب، مرجع سالف ذكره، ص 112.

اقتصاد الحد والشارع، في أفق المقارنة: دراسات ميدانية حول الاقتصاد الموازي في قبلي والقصرين

بالاستناد إلى دراسات ميدانية في ولاية القصرين، يذهب الباحث حمزة المدب إلى أن ما يسميه «التهريب» ارتكز، منذ مراحله الأولى، على روابط القرابة والشبكات القبلية[48]. ويتخلص إلى أن تجذر ظاهرة التهريب في القصرين، يعود إلى الاختلافات التنظيمية والاقتصادية التي تخلقها الحدود، وإلى علاقات القرابة والتضامن بين ساكنة الحدود من بلدي الجوار. فقد صار التهريب في هذه المنطقة الطرفية والمهمشة منذ أمد طويل طريقة للاستفادة من الحدود وجعلها منتجة[49]. كما يشير إلى أن أهالي المنطقة يرون أن خط الحدود يقسم فضاءهم الحيوي الاقتصادي والاجتماعي حيث أن عددا كبيرا من المجموعات القبلية [على غرار اولاد سيدي عبيد وأولاد سيدي تليل والفراشيش] فقد قسمتها الحدود نتيجة تقلبات التاريخ وترسيم الاستعمار للحدود الوطنية[50]. وفي دراسة ميدانية أخرى حول الاقتصاد الموازي واللاشكلي بمنطقة نفزاوة الحدودية (ولاية قبلي)، اتضح أن الأهالي يعتبرون السوق غير النّظامية مجالا للتبادل الرمزي للثقة بين شعب واحد في بلدين (الجزائر-تونس) حيث العلاقات عريقة وتقوم على القرب الجغرافي والتشابه الثقافي وعلاقات المصاهرة[51].

■ الاقتصاد غير الرّسمي باعتباره اقتصادا قبليّا:

لماذا لم تتحول ثروة فرق «ولاد خلفة» الاقتصادية المتأتية من التوريد الحدودي غير المقنن لسلع الاستهلاك الجماعي ثم بيعها في الشارع، إلى سلطة سياسية؟ أليس

48 المدب، حمزة، «الشباب والتهريب في منطقة القصرين التونسية: قصص حول الاستلاب وديناميات الإقصاء»، في: **في سوسيولوجيا الهوامش في تونس: دراسات في المناطق الحدودية والأحياء الشعبية**، بن زينة، عبد الباقي، للوم (محررين)،(تونس: دار محمد علي الحامي، 2018)، ص 84-85

49 المرجع نفسه.

50 المرجع نفسه.

51 محمد علي بن زينة، **عندما تلتقي التجارة الموازية مع النوع الاجتماعي**، (تونس: كلمات عابرة، 2019)، ص 67-70

الاقتصـادي مولـدا للسـياسي؟ يذهـب عزيـز كريشـان إلى أن الاقتصـاد التونـسي باعتبـاره اقتصـادا غـير رأسـمالي، تنشـأ فيـه المعادلة بشـكل معكـوس تمامـا. فالوصول إلى السـلطة السياسـية، حسـب هـذا الباحـث، هـو الـذي يمكـن مـن الوصـول إلى الثـروة الاقتصادية[52]. هـذا طبعـا صحيح، داخـل الاقتصاد الرسـمي. لكن مـاذا إذا قامـت المعادلة خـارج الاقتصاد الرسـمي كمـا هـو الحال مـع اقتصاد الشـارع الذي يولـده اقتصـاد التوريد الحـدودي (غير القانونيّـين)، فهـل تتغـير النتائـج؟ الإجابـة هـي نعم. فحسـب ما توصلنـا إليه عـبر البحث الميدانـي وكذلـك بالتثبـت في المراجـع النظريـة والتاريخيـة، فان وصـول جهـات أو مجموعة عائـلات مترابطـة دمويـا ووحـدات تنظيميـة ذات طبع قبـلي للثـروة الاقتصاديـة، من خلال الاقتصـاد غير الرّسـمي، لا يمـرّ وغير مرتهن، بالـضرورة، بالوصول إلى السـلطة السياسـية. بـل إن وجودهم خـارج المعادلة الرسـمية للعلاقة بـين الاقتصادي والسـياسي، كان، من جهة، «رُبّ ضـارة نافعـة» مكنتهـم مـن خلـق الثـروة الاقتصاديـة لكنه منعهـم، من جهـة أخرى، مـن تحويلهـا إلى سـلطة سياسـية وجعـل السـلطة القائمـة تتعامل معهـم في الـسر والعلن بسرعـات متفاوتـة وأوجـه مختلفة. بـل إن الثقـافي، ثقافة قبيلـة وتاريخها ومجالهـا الحيوي جغرافيـا وتاريخيـا، أنتـج نمط إنتـاج اقتصـادي فريـد، في علاقة تآلـف اصطفائـيّ (affinité élective) بـين الواقـع الاقتصـادي والبنـى الثقافية، كمـا يفسر ذلك «ماكـس فيبر» في دراسـته للعلاقة بـين الـروح الرأسـمالية والعقيدة البروتسـتانتية[53].

52 عزيـز كريشـان، **اليسـار وسرديتـه الكـبرى: مـن أجـل فهـم الاقتصـاد الريعـي**، ترجمـة فتحـي بالحـاج يحيـى، تونـس، (تونـس: كلمـات عابـرة، 2022)، ص67-70.

53 Michel De Coster, «Chapitre VII – L'analogie entre protestantisme et capitalisme : une autre manière de reconsidérer l'essai de Weber», *L'analogie en sciences humaines*. Sous la direction de De Coster Michel. (Paris, Presses Universitaires de France, 1978), pp. 120-140.

1- توريد السلع عبر الحدود وبيعها في الشوارع بشكل غير قانوني: من أجل موضعة الاقتصاد الغير رسمي في تونس:

مؤطَّر رقم6

الاقتصاد الريعي: مقاربة مجددة

يذهب عزيز كريشان إلى تأسيس فهم جديد لمفهوم الاقتصاد الريعي في سياقه التونسي. إذ لا يضفي على عبارة الريع المعنى نفسه الذي تأخذه في اللغة المتداولة. فإن كان التعريف السائد للريع يقوم على تصنيف اقتصادي دال عن المردود العائد من مورد نادر (قد يكون ماديا كالأراضي أو آبار النفط أو غير مادي كالابتكار التكنولوجي..)، فإن التعريف الذي يعتمده هذا الكاتب يقوم على اعتبار أن النظام الريعي في تونس لا يستند إلى أي ملكية مادية أو اختراع علمي أو تكنولوجي بل يقوم على منطق مغاير جذريا حيث يستند إلى مورد سياسي، لا غير، بمعنى القرب من السلطة السياسية ودرجة الولاء إلى الحاكم. وهكذا يعرف عزيز كريشان النظام الريعي التونسي على أنه « الدخل المتأتي من مورد نادر ألا وهو القرب من السلطة السياسية حيث يعود للسلطة السياسية وحدها اختيار الشخص (بورقيبة وبن علي) الذي بإمكانه الارتقاء إلى مقام صاحب الريع ومن يمنع من ذلك». يميز هذا الكاتب بين مختلف الأنظمة الاقتصادية بحسب الطريقة التي يقتطع بها الفائض الاجتماعي، أي الطريقة التي يتم بها تحويل قسط هام من الثروة المنتجة من قبل المنتجين المباشرين لصالح الطبقات الحاكمة والدولة الاي تمثلهم. فان كان النظام الإقطاعي يتأتى الفائض فيه من استغلال العمل الفلاحي واقتطاع الريع العقاري بامتلاك الأرستقراطية الحاكمة للأرض، فان النظام الرأسمالي، المعملي بالأساس، يتأتى الفائض فيه من قسط العمل غير المسدد إلى الأجراء والذي يتحول إلى أرباح لفائدة صاحب رأس المال. هنا يعتبر عزيز كريشان أن النظام الاقتصادي الريعي في تونس هو، أولا، اقتصاد يتحرك فيه كبار الأعراف ضمن اقتصاد محكم الإغلاق، وتتمتع مؤسساتهم بوضعية المحتكر أو شبه المحتكر. وبالتالي، لا شيء يحثهم على العمل، خلافا للمستثمر في النظام الرأسمالي، الذي يحب عليه ان يجدد ويطور ليظل قادرا على التنافس، بل يكرسون طاقتهم ويصرفونها في اتجاه الولاء والتقرب وتمتين العلاقة مع السلطة. وثانيا، هو نمط أقرب إلى النمط ما قبل الرأسمالي منه إلى الرأسمالي. أخيرا، يتخلص كريشان إلى ان النظام الريعي هو في حد ذاته ظاهرة انتقالية وهجينة ومركبة تستلف من الرأسمالية مظهرها الخارجي مع مواصلة الاشتغال وفق سلوكيات هي في جوهرها ما قبل رأسمالية وما قبل حداثية.

عزيز كريشان، **اليسار وسرديته الكبرى: من أجل فهم الاقتصاد الريعي**، ترجمة فتحي بالحاج يحيى، تونس، (كلمات عابرة، تونس، 2022). ص 71-75

شبه إقطاعي، شبه مستعمر، رأسمالي تابع، رأسمالي، ما قبل رأسمالي، ريعي، كلها تفسيرات، من مقاربات إيديولوجية وعلمية مختلفة، لطبيعة نمط الإنتاج الاقتصادي الرسمي في تونس. لكن كيف نفسر إذن طبيعة نمط الإنتاج الاقتصادي غير الرّسمي وغير المهيكل؟ هل هو ظاهرة فرعية ناتجة فعليا عن ظاهرة الاقتصاد الريعي أو أنه، كما يذهب لذلك عزيز كريشان: «فرصة سانحة إضافية لأصحاب الريع من خلال التعاون والتنازع مع بارونات القطاع الموازي أي مافيا الموردين السريين للمنتجات الاستهلاكية الجماعية» والتي « بقدر ما تكون ضارة بالمنتجين الوطنيين فهي لا تزعج في شيء أصحاب الريع طالما أنها لا تضر بمصالحهم» بل يذهب إلى أن «أصحاب الريع يقمعون البورجوازية الصغيرة والمتوسطة الحضرية عبر إخضاعهم إلى منافسة غير نزيهة عن طريق تمويل الواردات المهربة إلى حد كبير»[54].

في تفاعل مع هذه المقاربة، واستنادا للبحث الميداني الكمي والكيفي وكذلك للمراجع التاريخية، لا نتفق مع هذا الكاتب في اعتباره الاقتصاد الريعي منتجا للاقتصاد غير الرسمي للاستفادة المادية منه وخاصة لضرب البورجوازية الصغيرة والمتوسطة. فالاقتصاد الرسمي «الريعي» يمكن أن يكون مساهما، بصفة أو بأخرى (لا توجد أدلة ومعطيات علمية تدل على وجود هذه العلاقة بل يظل ذلك من باب الافتراض) في ازدهار الاقتصاد غير الرّسمي/ الموازي، خاصة اقتصاد توريد السلع بشكل غير قانوني عبر الحدود وبيع هذه السلع الموردة في الشوارع. ولكن لا يمكن أن يكون هذا الاقتصاد غير المقنّن وغير النّظامي ظاهرة أو نتيجة ثانوية للاقتصاد الرسمي الريعي. وليس الهدف من التنازع والتعاون بينهما ضرب البورجوازية الصغيرة والمتوسطة وصغرى المؤسسات. بل فعليا هذا الضرب هو نتيجة ثانوية استفاد منها أصحاب الريع ولا يمكن اعتبارها هدفا رئيسيا من تعاملهم مع الاقتصاد الموازي. فهذا الاقتصاد غير المهيكل وغير المقنن، خاصة اقتصاد التوريد الحدودي والبيع في الشوارع لسلع الاستهلاك الجماعي، نشأ ونما وتطور كميا وكيفيا في إطار نسق كامل. نعم، ساهمت سياسات الدولة منذ البايات إلى اليوم، ومن الاستعمار إلى دولة الاستقلال مرورا بالإصلاح الهيكلي ودولة بن علي، في جعل الريف والمناطق الداخلية عموما مهمشة ومفقرة مقارنة بالمدن الكبرى خاصة

54 عزيز كريشان، مرجع سالف ذكره، 103-104.

العاصمة والساحل. لكن لم تكن ردة الفعل هي نفسها في غرب البلاد شمالا ووسطا وجنوبا. فردات الفعل اختلفت أشكالها تاريخيا من الانتفاضة إلى الخضوع إلى المهادنة حسب السياقات والمناطق والقبائل. لنجد اليوم ردة فعل من شكل جديد : اقتصاد غير رسمي بأسره يتحرك داخل نسق قبلي، يبدأ بتوريد السلع (عبر أبناء العرش) بطريقة غير نظامية من الحدود مع الجزائر (من قبائل يجاورونها ويتصاهرون معها أو يعودون إلى القبيلة الأم نفسها) حتى ينتهي ببيعها في أنهج العاصمة وشوارعها (من قبل أبناء العرش أيضا) تتحكم فيه وحدات تنظيمية (الجلامة والغلايقية المنحدرين من فريق ولاد خلفة من فرق/بردعة ولاد مهني) والتي تنتمي جينيالوجيا إلى القبيلة الأم (ماجر) نفسها، وتتمركز بالأساس في منطقتين صغيرتين متجاورتين في الوسط الغربي (سبيبة وجلمة).

تطوّر هذا الاقتصاد موضوعيا أيضا بفضل وجود اقتصادين بترولين لدولتين غنيتين على الحدود تصنعان أو توردان السلع وتدعمهما. نتحدث هنا، في هذا الإطار، عن الاقتصاد الجزائري. إذن، وبتوفر عوامل مختلفة تاريخية وجيو سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية، بات هذا الاقتصاد غير الرّسمي قادرا على خلق الثروة الاقتصادية خارج سلطة الدولة، باعتباره نمط إنتاج وشكلا من التماسك الاجتماعي استحضرته(أو هو ساكن في تطبعها رغم مرور القرون) جهات ومناطق عبر وحدات تنظيمية قبلية (فرق تعود لعروش) لمقاومة واقع سياسي واقتصادي واجتماعي هش همشها وجعلها هي بالذات، دون غيرها، من الجهات والمناطق (التي تقطنها عروش أخرى) التي تضررت أيضا من نمط الإنتاج الاقتصادي الرسمي في تونس عبر مئات السنين، الأكثر قدرة على جعل التوريد السري عبر الحدود والبيع الفوضوي في الشوارع للسلع، خلاصا جماعياً.

إذن، لقارئ هذه السطور أن يسأل، لماذا لا يقضي الاقتصاد الرسمي «الريعي» على هكذا اقتصاد «متصعلك» إن لم يكن هو من أنتجه أو من يتحكم فيه؟ لا نتفق مع الأطروحة القائلة إن الاقتصاد غير رسمي/ الموازي هو اقتصاد يتحكم فيه الاقتصاد الرسمي الريعي (مثلا عبر تمويل الواردات المهربة كما يشير لذلك عزيز كريشان)[55]،

55 المرجع نفسه

بـل نذهـب لوجود الاقتصاديـن معا في نسـق يجمعهما في علاقة تـوازن براغماتـي بل ونذهب أيضـا لاعتبـار الاقتصاد غير الرّسـمي بدوره اقتصـادا ريعيّا!

2- الرّيع والرّيع الآخر:

المستوى الأولّ: ميزان القوى بين الاقتصاد الرّسمي والاقتصاد غير الرّسمي:

لنفـسر هـذه الأطروحة وجـب في مسـتوى أول، أن نوضح أن نزاع سـلطة الريـع وتعاونها مـع ما يسـمى بباروناتالتهريب نسـبي ولا يرتقي لعلاقة قوامها سـيطرة طـرف على الآخر، لأن الدولـة، مـن جهـة، باعتبارهـا جهـاز حكـم عائـلات الريـع، لم تسـتطع حسـم المواجهة أمنيـا، بحـرس الحدود والديوانـة والبوليس والشرطـة البلدية، لا في الحدود التـي تحولت كلها إلى معابـر ولا في الأنهـج والشـوارع التـي تحولـت إلى أسـواق، مـع اقتصاد غير رسـمي صار أكـبر من الاقتصاد الرسمي[56] وينافسـه في عدة سـلع لا يرغب في دخولها بأسـعار تنافسـية إلى الأسـواق التونسـية (خاصة الالكترونيـك «كوندور» مثلا والمـواد الغذائية) ومـن جهة أخرى، الدولـة، ومـن ورائهـا سـلطة الريـع، لا ترغـب، وليس مـن مصلحتهـا، القضاء عـلى اقتصاد يوفـر سـوقا رخيصة لغالبية مسـتهلكي الطبقـة المتوسـطة والطبقات الفقـيرة وأيضا موطن شـغل مبـاشر وغير مبـاشر لآلاف الأشـخاص، أي عدم قدرة السيسـتام الحاكـم على تعويض هـذا الاقتصـاد ولا رغبته في خسـارة السـلم الاجتماعيـة وهي سياسـة متجـددة ومتلونة منذ عقـود في تونـس حيـث تتدخـل السـلطة، بمـا هي فاعـل رئيـسي، في تعديـل الاقتصـاد غير الرّسمي.

كذلـك، الريـع، ريـع الاقتصاد الرسـمي، عبر تحكمـه في المنافـذ المالية والبنكيـة والقانونية الرسـمية كلّهـا، جعـل تبييـض أمـوال الاقتصـاد غير الرّسـمي مسـتحيلة وغير ممكنـة إلا في النطـاق الـذي يسـمح بـه هـو ويرسـمه بـل ويخلقه. وهكذا، مـن خـلال هذين المسـتويين، تنشـأ علاقـة ارتبـاط كلا الاقتصاديـن أحدهمـا بالآخر وهي ليسـت علاقـة تبعيـة ولا علاقة

56 المرجع نفسه، ص 79

صراع بل هي الأقرب لعلاقة تحالف وتواطؤ على مضض مبنية على ميزان قوى متعادل نسبيا .

المستوى الثاني: الاقتصاد غير الرّسمي (اقتصاد الحد والشارع) بما هو اقتصاد ريعي:

مؤطّر رقم 7:

قبيلة واحدة في دولتين:

قبيلة ماجر ممتدّة في الوسط والوسط الغربي لتونس والوسط الشرقي للجزائر. حيث عُرفت، إلى جانب قبيلة الفراشيش أساسا، بعروش السباسب العليا حيث استوطنت منطقة الوسط الغربي والسباسب المتاخمة لربوع الشمال. هذه المنطقة عرفت أيضا، تاريخيا، ببلاد العروش الكبرى (بالأساس قبيلتي ماجر والفراشيش). شتتها البايات ثم قسّمها الاستعمار لتفكّكها دولة الاستقلال[1]. اذن يمكن الحديث عن وجود»أبارتايد«، إن صحّ التعبير، جزأ القبيلة وشتّتها. إذن فهي لا تقوم بالتهريب بل تواصل، على طريقتها، عيشها الطبيعي منذ قرون. إنه رأب صدع وترميم لما انهار من بنيان العصبية القبلية وأسس تمكّنها.

ويذكر محمد علي الحباشي في كتاب «عروش تونس»، كيف «كانت الحدود شبه مفتوحة في الزمن الذي كانت فيه إيالات تونس والجزائر وطرابلس مقاطعات تابعة للامبراطورية العثمانية قبل ان يتولى الاستعمار الفرنسي رسم الحدود من جهة الجزائر بعد احتلالها سنة *1830* ويرسم الاستعمار الإيطالي الحدود من جانب ليبيا بعد احتلالها سنة *1911* على حساب الروابط البشرية في هذه الجهات الحدودية إلى حد انشطار عروش وعائلات بأكملها، بقي بعضها تابعا للإيالة التونسية والبعض الآخر لإيالتي الجزائر أو طرابلس»[2]. وفي نفس الإطار، وتأكيدا لما خلصنا إليه من كون الاقتصاد الحدودي والشارعي هو امتداد لاقتصاد كان شرعيا ومشروعا تاريخيا، لولا فعل حكم البايات والاستعمار من جهة، ثم سياسات دول الاستقلال من جهة أخرى. يذكر محمد علي الحباشي كيف أثرت الأجواء المشحونة بين تونس والجزائر بسبب الأزمة البورقيبية اليوسفية على التجارة الحدودية وكيف نشأت بفعل الاجراءات الجمركية الجديدة، ظاهرة التهريب.[3]

1 محمد علي الحباشي ، **عروش تونس**، (تونس: منشورات سوتيميديا، 2017)، ص 190
2 المرجع نفسه
3 المرجع نفسه

يحتكر اقتصاد الحدّ والشارع، الذي يتولّد باحتكار مجموعات معيّنة لثنائية القُرب والقرابة، القرب من الحدود والقرابة القائمة على تضامن مبني على النسب القبلي (So-lidarité lignagère)، التجارة عبر الحدود وفي الأنهج والشوارع وذلك باحتكار القدرات الاجتماعية والثقافية والمجالية من قبل قبيلة، أو بالأحرى، العائلات المنتمية إليها. يتم ذلك، من جهة، عبر احتكار العلاقة مع الجهاز الامني في تونس وفاعلي الضفة الأخرى: إن كانوا قبائل جزائرية مجاورة (أولاد سيدي يحيى بوطالب- النمامشة-اللمامشة) تاريخيا لقبائل بلاد العروش الكبرى (ماجر وفراشيش بالأساس) في تونس، أو إن كانوا قبائل تابعة لهذه العروش وجدت نفسها بسبب الاستعمار الفرنسي (1830 ثمّ 1881) تابعة للتراب الجزائري[57].

وعبر احتكار علاقة القرب من أجهزة الأمن، الحدودية بالأساس، التابعة لسلطة الريع الرسمي من جهة أخرى[58]. وهكذا يمثّل هذا الشكل من الاقتصاد غير الرّسمي، اقتصاد توريد سلع الاستهلاك الجماعي عبر الحدود وبيعها في أسواق الشوارع، اقتصادا ريعيّا لا تتحكم فيه عائلات المخزن الحاكمة والمتجددة (من أرستقراطية إلى بورجوازية) منذ قرون، بل تتحكم فيه وحدات تنظيمية قبلية (الغلايقية والجلامة من فرقة ولاد خلفة) من الوسط الغربي تعود جبنيالوجيا إلى قبيلة ماجر التي دفعت المجبى طيلة مئات السنين لكن عبر خلق علاقة توازن قوى مع سلطة الاقتصاد الرسمي الريعي.

ولتلخيص هذه الفكرة، نقول إنّ الاقتصاد الرسمي الريعي هو تحويل علاقة القُرب من السلطة السياسية إلى ثروة اقتصادية ثمّ احتكارها. أمّا الاقتصاد غير الرّسمي الريعي فهو تحويل علاقة القرب من الحدود وعلاقات القرابة[59] إلى نمط إنتاج وثروة اقتصادية.

57 المرجع نفسه، ص 20

58 يجب الإشارة إلى أنّ فِرق ولاد خلفة التابعة لعرش ماجر، كتشكيلات تولِّدُ تنظّمها وتحدّده العصبية القبلية، هي ليست/ولم تكن قبائل مخزنية، أي لم تكن موالية للسلطة/ليست خاضعة تاريخيا لسلطة البلاط ولعائلات الحاكمة والمتنفّذة.

59 بما هي شكل تضامني وعصبية وقدرة على تحويل (مع احتكار هذه القُدرة) واقع موضوعي: اقتصادي واجتماعي وثقافي ومجالي يشكّل امتدادا لتاريخ سياسي طويل عبر زاد ثقافي وتضامن ميكانيكي وتقسيم للعمل الاجتماعي يحدده الانتماء القبلي وموقع جغرافي وتواجد مجالي.

فـالأول يُولِّدُ الاقتصـادي من السـياسي والثاني يولـد الاقتصادي مما هو ثقـافي واجتماعي وإثنـي ومجـالي جغـرافي. وبذلـك يسـاهم الاقتصاد الرسـمي الريعـي في بقـاء الاقتصاد غير الرّسـمي وتسـبّب في وجوده كأثر جانبيّ (effet pervers) عبر سياسـات السـلطة عبر قرون لكنـه ليـس متحكما فيه ومسـيطرا عليه بـل متعاونا معه كمـا فسرناه أعلاه. هُمـا بالأحرى في علاقة تبعيّـة مُتبادلة (Relation d'interdépendance).[60] فالاقتصاد الحدودي والشـارعي بمـا هما وجهـان لعملـة غير رسـميّة واحـدة، هو اقتصـاد لـه واقعـه وأسـبابه الخاصة به والسـاكنة فيـه (inhérentes) والخارجـة عـن سـلطة الاقتصـاد الرسـمي والدولة وسـلطة الريـع وذلـك بوجـود الاقتصـاد الريعـي الجار(ريـع الغـاز والبـترول)، وبوجود تشـكيلات اجتماعيـة شـبه قبليـة (منتميـة لأصـل مشـترك) عـلى حـدوده، وبوجـود واقـع اقتصـادي اجتماعـي يتسـم بتهميش المناطـق الداخلية خاصـة الحدوديـة في امتداد تاريخي لسياسـات السـلطة (كنـا فسرنـاه أعلاه) وامتـداد تاريخي لنمـط اقتصـادي قوامه بدواة قبليـة تجارية عـبر حـدود لا جمـارك تحاصرهـا وتنظم عبـور السـلع عبرها بل فقـط علاقة جبايـة تدفعها للسـلطة الحاكمـة أحيانـا أو تعلـن الانتفاضة أحيانـا أخرى[61]. وهـو ما يعود اليوم في شـكل آخـر عـبر اقتصـاد قائم على احتـكار فـرق بعينها مـن قبيلة معينة لتوريد سـلع الاسـتهلاك الجماعـي عـبر الحـدود مع الجزائـر ثم احتـكار بيعها في أنهج وشـوارع العاصمـة دون دفع المجبـى بالطريقـة المقننـة القديمة (المجبـى) أو الجديـدة (الضريبة). لكن بدفـع مرادف لها وهـو الرشـوة (الجعاله) لحـرس الحـدود أو الديوانية إذا مـا وقعت شـاحنة تهريب في كمين أو أحيانـا دون كمـين عـبر المعـبر أو في الطريـق من الحـدود إلى داخـل البلاد شـمالا وجنوبا أو عـبر رشـوة أعـوان الشرطة البلديـة في نهج إسـبانيا (عاشـور/ خاموس) أو أيضـا تمويل حملـة انتخابيـة لحـزب أو دعم مرشـح بعينه طلبا للسـلم واتقـاء للشر، أو طلـب الحماية.

في الختـام، ختـام هـذا الاسـتقراء، لسـائل أن يسـأل، إذا كان الاقتصـاد الرسـمي منظمـا عـبر منظمات ومؤسسـات بـل وبتسـخير الدولـة وقوانينهـا وأجهزتهـا للتفكـير والعمل من

60 Barreyre, Jean-Yves, « Les liens d'interdépendances », *Éloge de l'insuffisance. Les configurations sociales de la vulnérabilité*, sous la direction de Barreyre Jean-Yves. (Paris, Éditions Érès, 2014), pp. 17-30.

61 الحباشي، محمد علي، مذكور سابقا

أجلـه فكيـف يتنظم الاقتصـاد غير الرّسـمي؟ هنا نجيب، بإيجـاز، لأن الاجابة تتطلب دراسـة أخـرى حـول هـذه الإشـكالية الجديـدة التـي ولدهـا هـذا البحـث. نجيـب بأنـه يتنظم على مسـتويين، داخـلي وخارجـي أي مـن داخـل القبيلة ومـن خارجها.

في المسـتوى الأوّل، أي مـن داخـل القبيلـة (endogène)، يتنظّـم هـذا الاقتصـاد عـلى مسـتوى كبـار الموردين الحدوديـين كمـا على مسـتوى الباعـة، بواسـطة الوشـائج الأولية/ القبليـة، عـبر ثقافـة ابـن العـم: «أنـا وأخي عـلى ابن عمـي وأنـا وابن عمـي عـلى الغريب»، عـبر تضامـن ميكانيكـي تُولّده عصبيـة قبليّـة وتصاهر عائـلات. فالعائلة تعوض المؤسسـة، والقبيلـة تعـوض الدولـة، والحـدود تعويـض لسـوق الشـغل، والبيـع في الشـارع تعويض للشـغل، وعقيدة الغـزو والحوز تنافـس الاقتصاد الرسـمي الريعي المحتكر للقـدرة على بعث مـشروع وخلـق ثـروة. ولا يتنظم هـذا الاقتصاد بصفة رسـمية طبعـا كجمعية البنـوك مثلا، وهـي شـكل تنظيمـي للاقتصـاد الريعـي الرسـمي، لكنّـه يتنظّم مثـلا، ويظلّ صامـدا، عبر تجمّعـات كـ«زيـارات» الأوليـاء الصالحين و«الـزْرِدْ» أو الولائـم. فقُوّة الاقتصاد غير رسـمي، تكمـن في «لا رسـميته» وعـدم وجود جهـة رسـمية ناطقة باسـمه، ووجـود مصفوفة (ma-trice) اجتماعيـة وثقافيـة واقتصاديـة تولّـده وتحافـظ عـلى شروط إنتاجه وإعـادة إنتاجه.

أمّـا في المسـتوى الثانـي، أي مـن خـارج القبيلـة (exogène)، يُنَظِّـمُ أعـوان البوليـس والشرطـة البلديـة والديوانيـة وحـرس الحـدود هـذا الاقتصـاد بتعويضهـم لتدخـل الدولـة ودورهـا التعديـلي والجبائـي وذلك بفرض «رشـوة» مـن جهة، والتدخـل لفـضّ النزاعات أو ترسـيم الحـدود بينهـم وخاصّة لمنع السـلطة السياسـية من فـرض قبضتها، إن شـاءت، على هـذا الاقتصـاد وذلـك، وبالتنسـيق مـع الباعـة في النهج مثلا (هـذا مـا أثبته البحـث الميداني عـبر الاسـتبيان والمقابلـة والملاحظـة وحتّى عـبر الوثائقـي المصـوّر)، لتقديم قُربان في شـكل بضاعـة تُحجـز وتمثيـل مسرحيـة الهـروب يوميا لكـي تكـون الصورة عـلى الشـكل التالي: الدولـة تحـارب الاقتصـاد الـذي يخرج عـن نظامها الرسـمي ●

بيبليوغرافيا مُختارة

كُتب باللغة العربية:

الماجـري، الأزهـر. **قبائـل ماجـر والفراشـيش خـلال القرنـين الثامـن عشر والتاسـع عشر: في جدليـة العلاقـة بـين المحلي والمركـزي**. تونـس: منشـورات كليـة الآداب والفنون والانسـانيات منوبة، 2005

بـن جمعـة إبراهيم، بلقاسـم. **الاقتصـاد والمجتمـع في الإيالـة التونسـية مـن 1861 إلى 1864**. تونـس: منشـورات كليـة العلـوم الإنسـانية والاجتماعية بتونـس، 2002.

بوطالـب، محمـد نجيـب. **سوسـيولوجيا القبيلـة في المغـرب العربـي**. بـيروت: منشـورات مركز دراسـات الوحـدة العربيـة، 2002.

كريشـان، عزيـز. **اليسـار وسرديتـه الكـبرى: من أجل فهـم الاقتصـاد الريعـي**. ترجمة فتحي بالحـاج يحيى، تونس: منشـورات كلمـات عابرة، تونـس، 2022.

التيمومـي، الهـادي. **تاريخ تونـس الاجتماعـي: 1881-1956**. صفاقـس: منشـورات دار محمد علي الحامـي، 2021.

هان كريـس وهارت كيـث. **الأنثروبولوجيـا الاقتصادية: التاريـخ والإثنوغرافيـا والنقد**. ترجمة عبـد اللـه فاضل، الدوحة: منشـورات المركـز العربي للأبحاث ودراسـة السياسـات، 2014.

كُتب باللغة الفرنسية:

Timoumi, Hedi. *Généalogie d'un retard historique : Le Maghreb pré-moderne*. Tunis, Éditions Mohamed Ali El Hemmi, 2011.

WhiteFoote William, *Street Corner Society* : La structure sociale d'un quartier italo-américain, (Paris : Éditions La Découverte, 2002), pp 15-100

Bayat, Asef. *Street Politics Poor People's Movements in Iran*. New York: Colombia University Press, 1997.

2

المحور الثاني

نهج اسبانيا:
التأسيس والظاهرة الاقتصادية
مقاربة تاريخية

كلمات مفاتيح: تاريخ نهج اسبانيا، تونس، المدينة

مقدمة

نقـدّم في هـذا المحـور لمحـة تاريخية حـول نهج إسـبانيا انطلاقا مـن تاريخ تأسيسـه إلى اليـوم ودراسـة الفضـاء المحيـط به مثـل فنـدق الغلّة (السـوق المركـزي) وصولا إلى شـارع شـارل ديغـول (شـارع إيطاليـا) ونهـج سـيدي بومنديـل وذلـك لمحاولـة تفكيـك الظاهرة التجاريـة «بحـي الجزيـرة والصادقيـة»، ونعني المنطقـة التي تمتـدّ حاليا من نهـج الجزيرة وصـولا إلى شـارع جمـال عبـد الناصر وفهمهـا. فقد تبـيّن أنّ حـي الجزيـرة الصادقية منذ تأسيسـه لـه وظائـف عدّة مـن بينهـا الوظيفـة الديبلوماسـية من خـلال تواجـد العديد من السـفارات عـلى غرار سـفارة إيطاليـا وأنقلترا وإسـبانيا وبعض المنشـآت الإداريـة مثل أقدم مركـز بريـد (مركز شـارع شـارل ديغـول) والوظيفـة التجارية هامة إذ يتوسـط هـذا الحي أقـدم و سـوق بالبـلاد وأكثرهـا أهمية، وهو سـوق الجملـة (فندق الغلّـة) الذي تحـول فيما بعـد إلى السـوق المركـزي بعـد تغـير مـكان سـوق الجملـة (قـرب منطقـة تونـس البحرية حاليـا)، كمـا تحيـط بهذا السـوق عدّة أسـواق بيـع بالجملـة والتفصيل.

أدّت كل هـذه الظـروف إلى طغيـان الوظيفة التجارية على هذا الحي خاصة بعد الاسـتقلال وتغـير مـكان بعض السـفارات حيـث أصبحت أغلب الشـوارع والأنهـج ذات صبغـة تجارية مثـل نهج الكوميسـيون وشـارع شـارل ديغول وشـارع جمـال عبد النـاصر... ومنـذ نهاية فـترة التسـعينات مـن القـرن الماضي بـرزت ظاهـرة تعـرف بالتجـارة الموازية. وكان سـوق سـيدي بومنديـل أكـبر دليـل عـلى ذلك ثـمّ ظهـرت ظاهـرة النصابة غـير النظامـين ببعض الأنهـج المجـاورة لبومنديـل ونهـج الكوميسـيون مثل نهج إسـبانيا موضوع دراسـتنا.

تغـيرت وظيفـة نهـج إسـبانيا مـن وظيفـة ديبلوماسـية وتجاريـة منظمة ليصبـح بعد الثـورة نهجـا تجاريـا بامتيـاز، يمـزج بين التجـارة والاقتصـاد المنظـم ماتبقى مـن دكانين البقالـة والفواكـه وبـين ظاهـرة النصّابـة أو التجـار غـير الخاضعـين لقوانـين الدولـة

ونواميسها. وقد مثّلت هذه الظاهرة إجابة على حيف السياسة التنموية للدولة التونسية منذ الاستقلال إلى اليوم وعدم مراعاة التوازن بين الجهات الشيء الذي خلق عبر مراكمة عقود وسنوات، مئات الآلاف من العاطلين علن العمل وكثر عدد النشيطين صلب العمل الهش والعمل غير المنظم.

إذن نحاول من خلال هذا المحور تقديم تاريخ نشأة نهج إسبانيا وموقعه داخل المدينة الأوروبية وسنقدّم لمحة على أهم المنشآت والشوارع المحيطة بالنهج لأختم مع كيفيّة التحول النهج من الوظيفة الديبلوماسية والتجارية المنظمة إلى ظاهرة النصب.

I/ نهج إسبانيا أحدى مكونات النواة الأولى للمدينة الأوروبية

تأسست المدينة الأوروبية بتونس العاصمة على مرحلتين كانت المرحلة الأولى بين سنة 1835 و1881 والمرحلة الثانية انطلقت مع الاستعمار الفرنسي سنة 1881 إلى حدود الاستقلال 1956. ويعود أقدم معلم للمدينة المدينة الأوروبية إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر 1660 تاريخ بناء الفندق الفرنسي (السفارة الفرنسية القديمة)، إضافة إلى رمزيتها باعتبارها أو بصفتها المكان الذي كانت تجرى فيه الاتفاقيات الدبلوماسية والتجارية بين البلاد التونسية وفرنسا[1].

1/ الحي الأوروبي القديم

تشكّل الحي الأوروبي القديم في بدايات القرن التاسع عشر وكانت سفارات الدول الأوروبية الكبرى وكنسية «سان كروا» وبعض المدارس المسيحية أولى المنشآت التي كونت المدينة الأوروبية القديمة وتعتبر «ساحة البورصة»[2] المركزي الحيوي وقلب المدينة المنقسمة بين دواخل سور المدينة العربي انطلاقا من النهج الأهم «نهج الديوان» الذي يبدأ من ساحة البورصة أو باب بحر وتوجد به أهم السفارات تباعا بداية بالسفارة

1 Geneviève Goussand-Falgas, *Tunis, la ville moderne, les origines et la période Française*, (edition, Alan sutton, 2005), p. 11.

2 ساحة مساحتها صغيرة توجد بين باب بحر وسفارة انقلترا سابقا وسميت بساحة البورصة لأنّها مكان عقد الصفقات التجارية.

الأنقليزيــة فالفرنســية وتليها الســفارة الأمريكيــة ثمّ الإيطاليــة. هذا إضافة إلى نهج الكنيســة (نهــج الزيتونــة حاليــا) ونهج ســيدي صابــر...[3]. كما يعتبر شــارع البحرية (شــارع فرنســا حاليــا) أقــدم شــارع شــيّد خارج أســوار المدينــة المدينــة العتيقــة وكان ذلك ســنة 1860 ثمّ يليــه كل مــن شــارع الجزيــرة وشــارع إيطاليا (شــارل ديقــول حاليــا) وشــارع الصادقية (شــارع جمــال عبد النــاصر حاليا) ســنة 1875[4] والأنهــج الصغــيرة المتعامدة مع الشــوارع الرئيســية مثــل نهــج إســبانيا الــذي ســمّي نســبة إلى ســفارة إســبانيا القديمة ونهــج ألمانيا وروســيا وأنقلترا...[5].

يعــود تاريخ تأســيس نهج إســبانيا إلى النــواة الأولى للمدينــة الأوروبية ويؤكــد ذلك طابعه المعمــاري الإيطــالي إذ لا تتجاوز طوابق كل بنايات الشــارع الطابقين. كمــا كان عدد الإيطاليين المتواجديــن بالعاصمــة أكثــر بكثــير ولا يمكــن مقارنته بعــدد العائــلات الفرنســيّة. وتحدث الرحالــة الأوربيــون بــكل دقّــة عن أعــداد الســكّان الأوربيــين حيث قــدّر عددهم بــين 1840 و1881 في حدود 12000 نســمة ينقســمون كالتالي: قرابة 6000 أو 7000 مالطي، و 4000 ايطــالي، و50 أو60 عائليــة فرنســية[6]. وتحــدّث الرحالــة الأوروبيين الذيــن زارو مدينة تونس نهايــة القــرن الثامن عشر أنّ التونســيين كانــوا متعاطفين ويحســنون اســتقبال الزائرين من مختلف الدول [7].

كمــا يتنــزل تاريخ تأســيس الأحياء خــارج أســوار المدينــة العربيــة وبنائها، ومــن بينها حــي الجزيــرة الصادقيــة الــذي يوجــد بــه نهــج إســبانيا، مع إنشــاء بلديــة تونس مــن قبل محمــد بــاي في 30 أوت 1858. ومنــذ ذلــك التاريــخ، عــرف الجانــب العمرانــي والحــضري للمدينــة تتطــورا وأصبــح أكثــر تنظيمــا. كما أمــر الباي بــترك باب بحــر مفتوحا ليــلا نهارا لتســهيل الحركــة بين ســكان المدينــة الأوروبيــة والمدينــة العربية. هــذا ويعود توســع المدينة

3 مرجع سابق، ص 09.

4 Leila Ammar, *La rue à Tunis, réalités, permanence, transformation de l'espace urbain,* 1835-1935, (Tunis : centre de publication universitaire, , 2017), P 9.

5 مرجع سابق، ص. 14.

6 Geneviève Goussand-Falgas, op cit, p 16.

7 Ibid, p 11.

العربيــة خــارج الأســوار والأبــواب منذ ســنة 1770 ومــن ذلك ظهور أبــواب مثل بــاب عليوة وشــمال بــاب بحــر. وفي بدايــة المنتصــف الثانــي مــن القرن التاســع عــشر تــمّ ردم المنطقة الواقعــة بــين بــاب بحــر وتونــس البحريــة حاليا لبنــاء مدينــة حديثــة بمواصفــات أوروبية ترتكــز عــلى شــارعين متعامديــن ينطلــق الأول مــن بــاب بحــر ويســمّى بشــارع البحريــة، ويقــول المــؤرخ مارســال دالــب Marcel Dalp إنّ تأســيس المدينــة الأوروبية أنطلق رســميا ســنة 1860 تاريــخ بنــاء دار فرنســا التي كانــت أول منشــأة في المدينــة الأوروبية[8].

2/ المدينة الفرنسية أو الاستعمارية

تشــكلت المدينــة الجديــدة حول شــارع فرنســا والســفارة الفرنســية بداية مــن باب بحر الــذي ســمي لاحقــا باب فرنســا صولا إلى شــارع جيــل فــيري. وتمثــل المدينة الفرنســية أو الاســتعمارية النــواة الثانيــة للمدينــة الأوروبية الّتــي بُنِيت بــين ســنتي 1881 و 1956 أثناء الاســتعمار الفرنــسي نتيجــة تعــدد موجــات الهجــرة نحــو تونــس (عســكر، رجــال أعمال، تجــار، رجــال دين...)وكانــت المدينــة الجديــدة تلبية لحاجــة المســتعمر مقــرّات إدارية وإلى ســكن حيــث اســتقروا في البدايــة داخل المدينــة العربية ثمّ خرجوا شــيئا فشــيأ نحــو الفضاء الشاســع للمدينــة العصريــة لاحتوائهــا عــلى مخططــات عمرانيــة أكثــر تنظــم وتشــبه كثيرا تخطيــط المــدن الأوروبية.

قــام الفرنســيين بموجة واســعة للبنــاء شرق المدينة والأحياء التي توجد شــمال الشــارع الرئيــسي (جيل فيري. كان توســع المدينــة على الجهــة الغربية وحول شــارع باريس وقرطاج اللذان شــيّدا ســنة 1890 وهــو ثاني أهم شــارع في المدينة يربــط بين مقبرة الجــلاّز وحديقة البلفيدار.

شــيدت بقيــة المبانــي بــين ســنتي 1902 و 1912 وعددهــا 1306 مبنــى و537 مبنــى بحــي سيســيليا وتتــوزّع عــلى مبانــي خاصــة بالخدمــات العامــة والإدارية مثل الســفارات والمستشــفيات والمبانــي البلديــة والمدارس ومبانــي شركات النقــل.... نزل البريد ســنة 1893 والمحطّــة الفرنســية (1882-1878) والشــوارع والأنهــج التــي توجــد بين شــارع الجزيرة

8 Ibid, p 9.

والصادقيــة بنيــت بــين ســنة 1875 و 1880 اي قبل الاســتعمار وهما على الطــراز المعماري الإيطــالي وأشرفت عــلى البناء مؤسســات بنــاء إيطاليــة أو إيطالية فرنســية[9].

II/ تاريخ نشأة نهج إسبانيا وأهم المنشآت والشوارع المحيطة به

1/ تاريخ نشأة نهج إسبانيا

يقــع نهــج إســبانيا في حــي نهج الجزيــرة ونهــج الصادقية (جمــال عبد النــاصر حالبا)، وهــو نهــج تجاري منــذ بنائه بــين ســنتي 1875 و 1876 كما أنّــه نهج ضيّق بالــكاد يصل عرضــه إلى 10 أمتــار إذ نجــد تقاربــا كبيرا بــين النــاس والمبانــي والســيارات[10]. ويتميّز هذا النهــج بموقــع مهم جــدّا حيــث إذ يبدأ مــن نهج الجزيــرة وينتهي في ســاحة محطة فرنســا (ســاحة برشــلونة). وتكمــن أهميته في وجــود منشــآت حيوية ومهمّــة كفندق الغلّة (الســوق المركــزي حاليــا) ومركز البريد (أقــدم مركز بريــد بالمدينــة الأوروبية) ونزل البريــد ويتقاطع مــع شــارع إيطاليا (شــارع شــارا لدي قــول حاليا) وشــارع الصادقية (شــارع جمــال عبد النــاصر) وهــذا يجعلــه يجذب عــددا كبيرا مــن المارّة.

عــرف نهج إســبانيا بطــرازه المعماري الإيطــالي المتكوّن مــن طابقين[11]، مخصّــص لتجارة الجملــة وتبــاع فيــه المنتجات والســلع اليوميــة والتي لها علاقــة مباشرة بفنــدق الغلّة.

2/ منطقة ذات صبغة تجارية (حي الجزيرة الصادقية)

عــرف حــي الجزيــرة الصادقيــة بوظيفته التجاريــة منذ تأسيســه فهو يضمّ فنــدق الغلة (ســوق الجملــة) وعــدّة أســواق محاذيــة لــه إضافــة إلى الصبغــة التجاريــة لأغلــب شــوارع

9 Leila Ammar, *La rue à Tunis, réalités, permanence, transformation de l'espace urbain*, 1835-1935, (Tunis : centre de publication universitaire, 2017), p 127.

10 Ibid, P. 14

11 Idem

وأنهجه كشارع إيطاليا سابقا وشارل ديغول حاليا ونهج الجزيرة ونهج الكومسيون ونهج إسبانيا.

يعتبر فندق الغلّة (السوق المركزي) أهم مركز تجاري بتونس. وقد تمّ الانتهاء من بنائه سنة 1878 ويباع به سائر ما يتعلّق بالمعاش من الخضر والغلال واللحم والدواجن والبقول والحشائش والسمن والعسل والعجين الغذائي[12]. وفي سنة 1891 شيّد على أنقاض البناءات الخشبية (البرارك) وأطلق الأوروبيون على فندق الغلّة اسم السوق المركزي وشهد هذا السوق توسعات عديدة عكست زيادة حجم المعاملات التجارية. وكان فندق الغلّة عبارة على «سوق جملة» بالنسبة إلى الخضر والغلال واللحوم المعروضة للبيع، المكان الذي يجتمع المنتجين ووكلاء البيع والتجار والمستهلكين حيث يقوم هذا السوق باستقطاب وتجميع الخضر والغلال واللّحوم التي يجلبها الفلاحون ومربي الماشية والوسطاء وتتمّ فيه إعادة توزيع (تُوزَّع) المنتوجات حيث يتزود منها تجار الحاضرة والمناطق المجاورة والوكلاء الذين ينقلونها إلى مختلف أسواق الولاية[13].

وفي سنة 1954 نقلت سوق الجملة إلى منطقة البحيرة قرب ميناء تونس التجاري وقرب محطة البضائع التابعة لشركة السكك الحديدية التونسية.

12 محمود فروة، **التجارة والتجار في تونس**، 8151-1881، (تونس: 2009)، ص 68.

13 محمود فروة، م ن، ص 68.

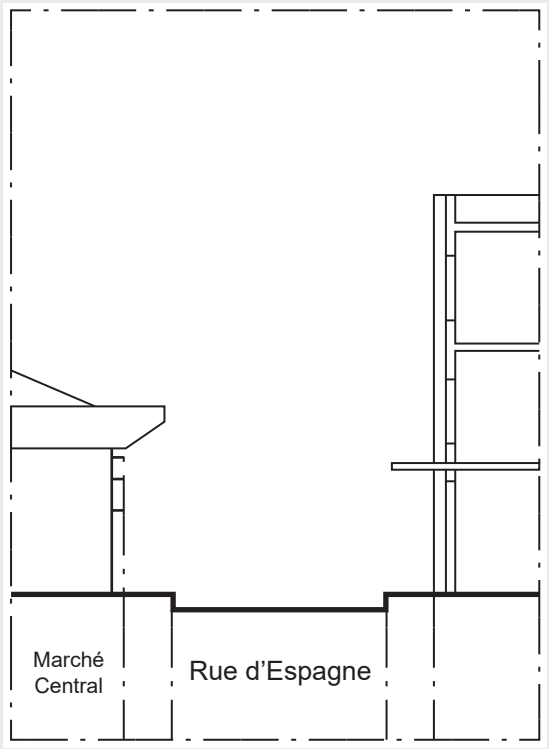

نهج إسبانيا

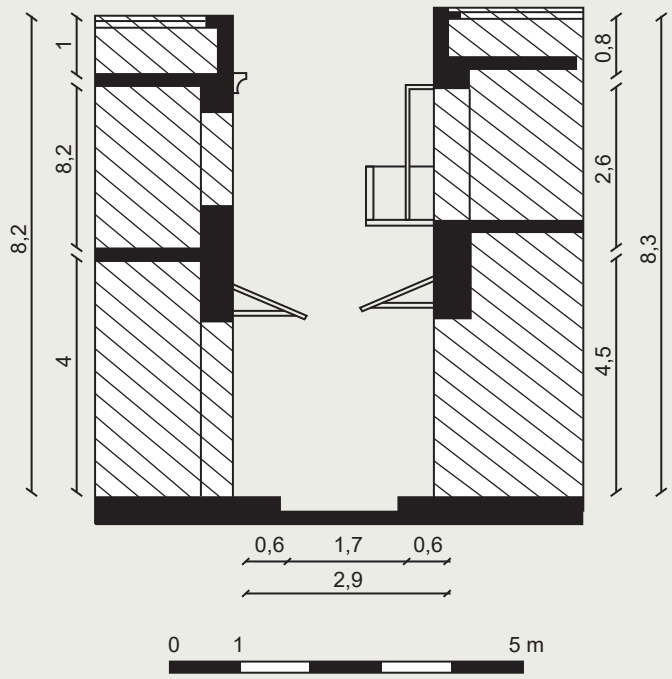

نهج إسبانيا (الاستاذة ليلى عمّار)

إضافة إلى فندق الغلّة تحدث بعض الرحالة إلى وجود قرابة 200 دكّان لبيع الخضر والغلال بمختلف أرجاء الحاضرة (1890) مع التأكيد على وجود العديد من المزابية[14]، كما توجد أسواق مجاورة لفندق الغلّة على غرار سوق الحوت الذي يباع به سائر أنواع الأسماك وهو محاذ لفندق الغلّة، وسوق الزّيت الذي اختص ببيع زيت الزيتون ويجاور بدوره فندق الغلّة[15]. ونجد كذلك سوق الزرارعية الذي يوجد بالانهج المجاورة نهج اسبانيا ونهج الجزيرة ونهج المالطيين.

14 سكّان مدن المزاب بالجزار مثل مدينة غرداية وبني يزقن وعطف وهي مدن عرفت بكثرة تجارها إلى اليوم

15 محمود فروة، م س، ص، 70.

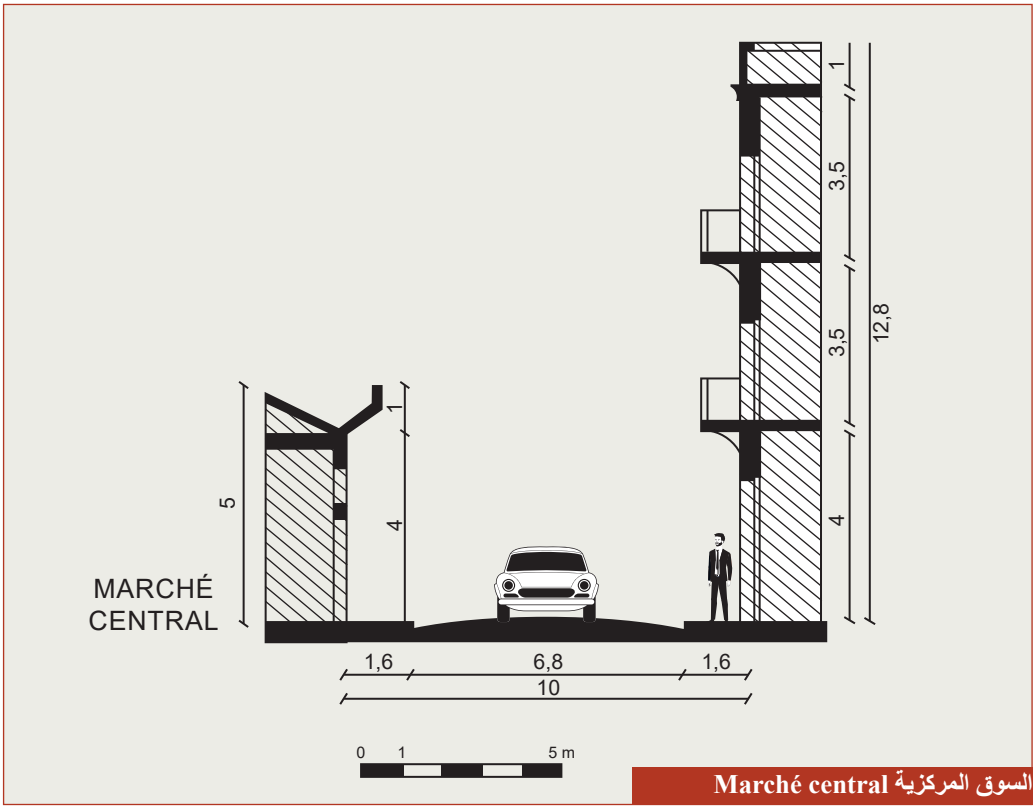

السوق المركزية Marché central

تعـدد هـذه المنشـآت التجاريـة بداية من أهم سـوق بالبلاد وصـولا إلى الأسـواق المجاورة سـاهم في غلبـة الصبغـة التجاريـة عـلى تلـك المنطقـة. لذلـك كان نهـج اسـبانيا كغـيره من الأنهـج والشـوارع التابعـة لحـي «الجزيـرة الصادقيـة» القديم ذا صبغـة تجارية.

حي الجزيرة الصادقية سنة 1893 وفيه نهج إسبانيا

3/ أهم الشوارع القريبة والمحيطة بنهج إسبانيا

تختلف طرقات المدينة الأوروبية بشكل كبير على طرقات المدينة العربية الإسلامية التي تعرف بممرّاتها الضيقة والملتوية واحتوائها على الكثير من «الزنقة» في حين أنّ مخططات شوراع المدينة الأوروبية تحاكي كثيرا المخطط الشطرنجي للمدينة الرومانية حيث قسّمت الشوارع بطريقة منظمة إلى شوارع رئيسية وأخري ثانوية. وتعبر كملة طريق الكلمة الأكثر رواجا للدلالة على شارع خلال القرن التاسع عشر إضافة إلى كلمة شارع ونهج فقد توقّف الأثر التّاريخي للتسميات القديمة مثل سكّة وزقاق ودرب. وتعود كلمة شارع إلى العهد العباسي حيث ذكرت عند ابراز المحاور الكبرى للمدن (الشارع الاعظم). ظهر مصطلح نهج خلال القرن التاسع عشر وهو مشتق من كلمة

منهـج. وتعنـي كلمـة نهج كذلك الشـوارع الثانويـة وجدت تسـميات لنهج وطريق وشـارع في القـرن التاسـع عـشر مع الرحالـة الأوروبيـين وكذلك المؤرخين التونسـيين مثـل أحمد ابن أبي الضيـاف وبـيرم الخامس[16].

يوجـد يقـع نهـج إسـبانيا قـرب أهـم شـوارع العاصمـة والبـلاد عـلى الإطـلاق فهو على بعـد قرابـة مائـة مثر من شـارع جيل فـيري (الحبيـب بورقيبة) وشـارع البحرية (فرنسـا) ويتقاطـع مـع شـارع الصادقيـة (جمـال عبد النـاصر) وشـارع إيطاليـا (شـارل دي غول) ونهـج الجزيـرة ويشـترك في سـاحة الـبرزلي مع نهـج الكومسـيون ونهـج سـيدي بومنديل. وفيمـا يلي بسـطة تعريفيّـة بالشّـوارع المذكـورة أعلاه:

أوّل هـذه الفضـاءات شـارع البحريـة: وهو أقدم شـارع سـمّي عند تأسـيه سـنة 1860 وعرف لاحقا بشـارع فرنسـا إبـان الاسـتعمار ينطلق من باب بحـر أو»باب فرنسـا» لينتهي عند شـارع جمـال عبد النـاصر (الصادقية) وشـارع الحبيـب ثامر ويبلـغ عرضه 40م.

وثانيهـا شـارع جيـل فيري(شـارع الحبيـب بورقيبـة) يبلغ عرضـه شـارع 60م وطوله وهـو أكبر شـوارع المدينـة. وفيه أغلب المؤسسـات وأهمّها، مثل دار فرنسـا والكنيسـة الكبرى والمـسرح البلـدي. وينتمـي هذا الشـارع إلى نمـط التهيئـة العمرانية للقرن التاسـع عشر.

وثالثهـا الشـوراع الثانويـة والأنهج: وتكون إمّـا بالتوازي مـع الشـارع الأول في المدينة أو تتعامـد معـه وتوجد هذه الشـوراع أساسـا في كافـة أرجاء المدينـة وهما حي سيسـيليا جنوبا والحـي الشـمالي في شـارع الجمهوريـة. ونذكـر عـلى سـبيل المثال شـارع الجزيرة، شـارع إيطاليـا، شـارع الصادقيـة، شـارع هولانـدا، شـارع أنقلترا، شـارع ألمانيا، شـارع إسـبانيا، شـارع روسـيا، شـارع الجزائر وغيرهم.

ورابعهـا نهـج الكومسـيون وهو نهج مميز بالنسـبة إلى التونسـيين حيث ترتبط تسـميته بذكـرى إنتصـاب الكوميسـيون المـالي بتونـس سـنة 1869 وتمّ بناء هـذا النهج بين سـنوات

16 محمود فروة، م س، ص، 85.

1872 و 1882 وهـو نهـج تجـاري بامتياز منذ تأسيسـه إلى اليوم ويوجد مكان نهج السـور القديـم ويفتـح على شـارع البورصـة وينتهي عند انطـلاق نهج سـيدي بومنديل.

وخامسـها شـارع الجزيـرة وهو شـارع يفصل بـين المدينـة العربيـة الإسـلامية والمدينة الأوروبيـة ويعتبر أولى المنشـآت التي بنيت خارج أسـوار المدينة وكان ذلـك بين 1875/1876 مـكان سـور المدينـة الذي يربـط بين باب بحـر وبـاب الجزيرة. عرف هـذا الشـارع بأهميته نظـرا لقربـه مـن نهج الكومسـيون وسـيدي بومنديـل اللّـذان يمثـلان نقطة تبـادل تجاري مهمّـة ومحطة نقل نحـو الجزائـر وليبيا.

وسادسـها نهـج سـيدي بومنديل ويحـده نهج الكومسـيون ويفتـح على شـارع الجزيرة عند سـاحة الـبرزلي أو سـاحة 03 أوت 1903(سـاحة الكاسـتيل القديمة) وعرف هـذا النهج بكثافـة نشـاطه التجـاري وخاصـة النصابـة ليصبح إنطلاقـا من تسـعينات القـرن الماضي سـوق شـعبي ومركـزا للتجارة الموازية حيث يشـترك معظـم التجار في كسـب قوتهم خارج الظوابط الرسـمية

III/ نهج إسبانيا من تجارة الجملة ومحلات البقالة والفواكه إلى بروز ظاهرة النصّابة

1/ الوظيفة الاقتصادية والإدارية لنهج إسبانيا

عـرف نهـج اسـبانيا منـذ تأسيسـه بكونـه النهج الـذي توجـد به سـفارة اسـبانيا وقد حمـل اسـمها، كما تميّز أيضـا بصبغته ووظيفتـه التجارية خاصـة تجارة الجملـة كما كانت تبـاع فيـه المنتجات والسـلع اليوميـة والتي لها علاقـة مباشرة بفنـدق الغلّة ومن أهم السـلع الموجـودة في هـذا النهـج البقول بـكل والفواكه بـكلّ أنواعهـا وكذلك المـواد الغذائية.

تغـيرت الملامـح الاقتصادية لهـذا النهج خـلال العقود الأخـيرة وخاصة العشريـة الماضية حيـث قلـت محلات البيـع بالجملة وقـد أحصينا عـدد المحـلات والدكاكين وفـق إختصاصها التجـاري وجدنـا الآتـي: مغـازة واحـدة لتجـارة الجملـة التـي تحمل اسـم «شركـة الفيضة

للتجـارة بالجملـة» ومغازتـين ببيـع القهـوة ودكّانا وحيـدا لبيع الـورق القديم بـكل أنواعه ودكانـا لبيـع الحشـائش دكانـين وفي حدد عشريـن مغازة بـين الكـبرى والمتوسـطة للبقالة والفواكـه الجافـة في حـين أصبحت محـلات بيع الملابـس الجاهـزة تهيمن على النهـج. إضافة إلى تواجـد النصابـة عـلى كل الأرصفـة بـدآ مـن مدخـل سـاحة برشـلونة وصولا إلى سـاحة الـبرزلي أيـن تلتحـم نصباتهم مـع نصبـات باعة نهج سـيدي بومنديـل ونهج الكوميسـيون.

ويمكـن اعتبـار نصابة نهج اسـبانيا امتـدادا للمثال الناجح و»الشـارع القـدوة» للتجارة الموازيـة وغـير المهيكلـة وغير الخاضعة. وهـو ما جعلهم يفكـرون في التواجد بالقـرب من هذا النهـج لمعرفتهـم بحيويتـه وكذلك بوصفه مثـلا ناجحا للتجـارة الموازية . ويعتـبر موقع نهج إسـبانيا موقعـا اسـتراتيجيا لأنّـه يطلّ على سـاحة برشـلونة ويتعامد مع شـارع الشـارعين التجاريـين المختصـين في تجـارة الملابس الجاهزة «شـارع جمال عبد الناصر وشـارع شـارل ديقـول» كما يـشرف الأبواب الأربعة الرئيسـية للسـوق المركزي عـلى هذا النهـج وينتهي عند سـاحة البرزلي التي تفتـح على نهج الجزيـرة والكوميسـيون وبومنديل.

يجـب التفكـير في الاقتصاد المـوازي واقتصاديات الهامـش عموما من خلال ربطها بشـكل التحـضر المشـوه ونمطـه وغـير المكتمـل. وبالانفجار الحـضري الـذي عرفته العاصمـة التي كانـت كغيرهـا مـن عواصـم دول الجنوب والـدول الفقيرة عمومـا تعرف تحضر غـير متحكم فيـه وغـير ناتج عـن ثـورة صناعيـة أو اقتصاديـة ولم تكـن بالتـالي في حاجة إلى يـد عاملة. بـل هـو تحـضر ناتج عـن العجـز في تنمية الأريـاف الّتـي تفتقر إلى أبسـط الأساسـيات مثل النقل والصحـة والتعليم.

واجهة نهج إسبانيا

2/ أصول التجار بنهج إسبانيا منذ التأسيس

هيمن التجار الجرابة في البداية على تجارة الزرارع أو ما يعرف بسوق الزرارعية الذي يوجد بجانب فندق الغلة[17] في المنطقة التي تبدأ من نهج المالطيين(منجي سليم لتصل إلى نهج الجزيرة ونهج إسبانيا وتحدّث الأستاذ محمود فروة على أنّ سوق الزرارعية تباع فيه البقول الجافة المسماة في الدارجة التونسية «بالزرارع» أو الخشاخش كالحمص والفول والقطانية والكروية والكمّون والتابل والفلفل المجفف بأصنافه واللّوبية والعدس والسينوج وقلوب البطيّخ والدلاع وغيره كما تباع المكانس والقرنيط المجفف وأغلب تجاره جرابة[18].

أجمعت كل المصادر التاريخية على حذق الجرابة التجارة وإمتلاكهم لمؤهلات فائقة

17 محمود فروة، م س، ص، 70.

18 م ن، ص، 70.

وأنّ أغلب ثروتهم من المتجر حيث بلغ عددهم سنة 1940 حدود 2229 تاجر بالعاصمة. ويكابد التاجر الجربي الذي يعمل في الحاضرة ظروف عمل مضنية وشاقة. فهو يعمل في دكّانه من الصباح إلى المساء كما أنّه لا يعيش حياة عائلية. وتمتاز هجر ة التاجر الجربي بكونها مهنية، فردية ومؤقتة. وعندما يعمل في العاصمة أو مكان أخر يكلّف أحد أقاربه أو أصدقائه بإدارة شؤونه بالجزيرة والإعتناء بفلاحته. وعند العودة إلى جربة لقضاء عطلة مطولة يعهد إلى أحد أصدقائه مهمة السهر على شؤون دكّانه. وما يميّز هذا التنظيم هو أنه في كلّ مراحله جربي صرف فالجرابة لا يشركون غيرهم في أعمالهم ولا يتعاملون غالبا إلاّ مع أبناء جزيرتهم الذين تربطهم بهم صلة قرابة أو ينمتون إلى إلى نفس القرية او المشيخة.

حسب الإحصاء الذي يعود إلى سنة 1840 يهيمن فرع العطارة والبقالة على توزيع التجار الجرابة بـ 81 % وتليها الملابس الجاهزة بفارق كبير 8%.

عموما كان التجار الجرابة لهم سيطرة كبرى على مجال البقالة والفواكه في كامل أرجاء البلاد إلا أنّ التغيرات السياسية والإجتماعية والإقتصادية كان لها دورا كبيرا في تغير أصول التجار ونوعية التجارية في عديد الأسواق والأنهج ولعلّ مثال نهج إسبانيا يمثّل دليلا ومثالا هاما ●

بيبليوغرافيا مُختارة:

Goussand–Falgas, Geneviève. *Tunis, la ville moderne, les origines et la période Française*, edition, Alan sutton, 2005.

Ammar, Leila. *La rue à Tunis, réalités, permanence, transformation de l'espace urbain*, 1835–1935, centre de publication universitaire, 2017.

Ammar, Leila. *Tunis d'une ville à l'autre cartographie et histoire urbaine 1860–1935*, nirvana 2010.

Ammar, Leila. *Cité et architecture de Tunisie*, nirvana, 2016.

Hamrouni, Ahmed. *La Tunisie d'après les voyageurs occidentaux*, Sahar Edition, 2006.

فروة محود، **التجارة والتجار في تونس 1815–1881**، تونس 2009.

دونـان هنـري، **مذكرة عـن إيالـة تونـس 1856–1857**، ترجمـة وتحقيق محمـد العربي السـنوسي، دار سـحر للنشر، 2012.

بـشروش توفيـق، **موسـوعة مدينـة تونـس، البرنامـج الوطني حـول المدن التونسـية، السلسـلة التاريخيـة عدد 08**، مركز الدراسـات والبحـوث الاقتصاديـة والاجتماعية، تونس 1999.

طيجـي إينـاس، **شـتات أهـل جربـة في مدينة تونس خـلال العـصر الحديث مـن بداية القـرن السـابع عـشر إلى نهابة القرن التاسـع عشر**، مذكرة ماجيسـتار، إشراف الأسـتاذ عبـد الحميد هنيّـة، كليّة العلـوم الإنسـانية والاجتماعية بتونـس، 2007–2006.

بوعـلي لطفـي، **الحـرف والحرفيـون في الإيالة التونسـية في أواخـر القـرن الثامن عشر وبدايـة القرن التاسـع عشر مـن خلال وثائـق البايليك**، شـهادة الكفاءة في البحـث، كليّة العلوم الإنسـانية والاجتماعيـة بتونس، 1992

3

المحور الثالث

نهج اسبانيا:
مُعتمديّتا سبيبة وجلمة
مقاربة خرائطيّة

مقدّمة:

عـرّف الأب الرّوحـي للخرائطيّة فرناند جـولي[1] (Fernand Joly) الخريطـة بأنّها: «تمثيل هندسي مسـطّح، مبسّـط واصطلاحي لكلّ أو جزء من سـطح الأرض في علاقة تماثل نسـمّيها المقيـاس. ولفهـم الرّسـالة الّتـي تتضمنهـا الخريطـة ينبغي أن تكـون هذه الأخـيرة تحتوي عـلى مفتـاح وهـو دليل مكوّن مـن رموز (ألـوان) مرفقة بتعبير لفظي يكشـف عـن دلالتها».

وحاولنـا اسـتغلال مـا توفّـره الخريطة مـن لغة بيانيّـة تسـتند إلى قواعـد وتقنيات حول الكيانـات الجغرافيّـة قصـد تكويـن أطلـس مصغّـر لمعتمديّتـي سـبيبة من ولايـة القصرين وجلمـة مـن ولايـة سـيدي بوزيـد باعتبـار انتمـاء غالبيّـة نصّابـة نهـج إسـبانيا إلى عـرش الغلايقيّـة الّـذي ينتـشر على سـفح جبـل المغيلـة. وتنقـل الخرائـط الـواردة بالبحـث جملة مـن المعلومـات ترتكز أساسـا عـلى الجغرافيا البشريّـة للمنطقة قصـد إدراك التّأثـير المتبادل بـين المتسـاكنين وبيئتهـم مـن ناحية، والصـور النّاتجة عـن التـوزّع والخصائص السّـكانية والمجاليّـة عـلى حـركات التنقّـل والهجـرة من ناحيـة أخرى.

منهجيّة البحث:

قمنـا في بحثنـا هـذا باختصـار الإحصائيـات وتحويـل المعطيـات المتاحـة إلى رسـم قابل للتفحّـص والفهـم السّريـع والتّحليل واسـتنتاج الوضـع بالمجـالات الـواردة في الخرائط. وقد حدّدنـا بدايـة، التقسـيم الإداري للمعتمديتـين المتجاورتـين وتمثيل شـبكة الطرقـات وأنواع المؤسّسـات الإداريّـة والتعليميّـة والصحيّـة ومواقعها (الخ) ونسـب الرّبط بشـبكات الكهرباء والمـاء الصّالـح للـشراب والتّطهـير، وذلـك قصد فهم أسـباب ضعـف البنيـة التحتيّـة وعدم توفّـر جـزء هام مـن متطلّبـات العيش الكريـم. وفي مرحلـة ثانية، جمعنـا كلّ ما توفّـر لدينا

1 فرناند جولي (10): (Fernand Joly مارس 1916 25- فيفري 2010) أستاذ الجغرافيا والخرائط درّس بمعاهد وجامعات المغرب وفرنسا من سنة 1942 الى سنة 1986. سمّي بروفيسورا سنة 1965 من السربون، أحد مؤسسي جامعة باريس 7. يعتبر واضع أسس الخرائطية الحديثة. من أهم مؤلفاته:
(GLOSSAIRE DE GEOMORPHOLOGIE. Base de données sémiologiques pour la cartographie, 1997) و (1976، La cartographie)

مـن إحصائيـات فنظّمناهـا ورتّبناهـا حسـب متطلّبـات العمـل. وشـملت هـذه الإحصائيّات خصائـص السُّـكان والسُّـكنى وظـروف الأُسر والبطالة والهجـرة الداخليّة وأسـبابها.

1) خريطة نهج إسبانيا:

في قلـب العاصمـة، يربـط نهج إسـبانيا الحـيّ الأوروبـي القديم بالمدينـة العتيقة، وهـو موازٍ لشـارع الحبيـب بورقيبـة ومحـاذٍ للسّـوق المركزيّـة وعلى مقربـة من أهـمّ تجمّـع لمحطّات النّقل البرّي (ساحة برشلونة).

يتقاطـع محـور نهـج إسـبانيا مع المثلـثّ (سـاحة الخربة/نهـج الكوميسـيون/ نهـج سـيدي بومنديـل) أين تتركـزّ المحـلّات والمخازن. وهـو موقع اسـتراتيجي كفيل باسـتقطاب آلاف التونسـيّين يوميّـا للتـزوّد بالبضائـع المقلـدّة والمهرّبـة رغـم أنّ شـارع إسـبانيا محاط بمبـان وزاريّـة وبالبنـك المركـزي وعـلى مرمـى حجر مـن مراكـز الشّرطة.

2) خريطتا سبيبة وجلمة (القصرين وسيدي بوزيد):

Le gouvernorat de Sidi Bouzid

ولايتا القصرين وسيدي بوزيد: ضلعان ثالثُهما ولاية القيروان. وتمثّل هذه الأضلع الثّلاثة إقليم الوسط الغربي، الّذي يحتلّ المراتب الأولى (صحبة إقليم الشمال الغربي) في نسب الفقر والبطالة. وتعتبر معتمديتا سبيبة وجلمة جزءا من هذه الجغرافيا المهمّشة. وهما منطقتان متجاورتان يفصل بينهما جبل المغيلة جغرافيّا. لكنّهما منطقتان مرتبطتان تاريخيّا وقبليّا.

3) خريطتا التّقسيم الإداري لمعتمديتي سبيبة وجلمة:

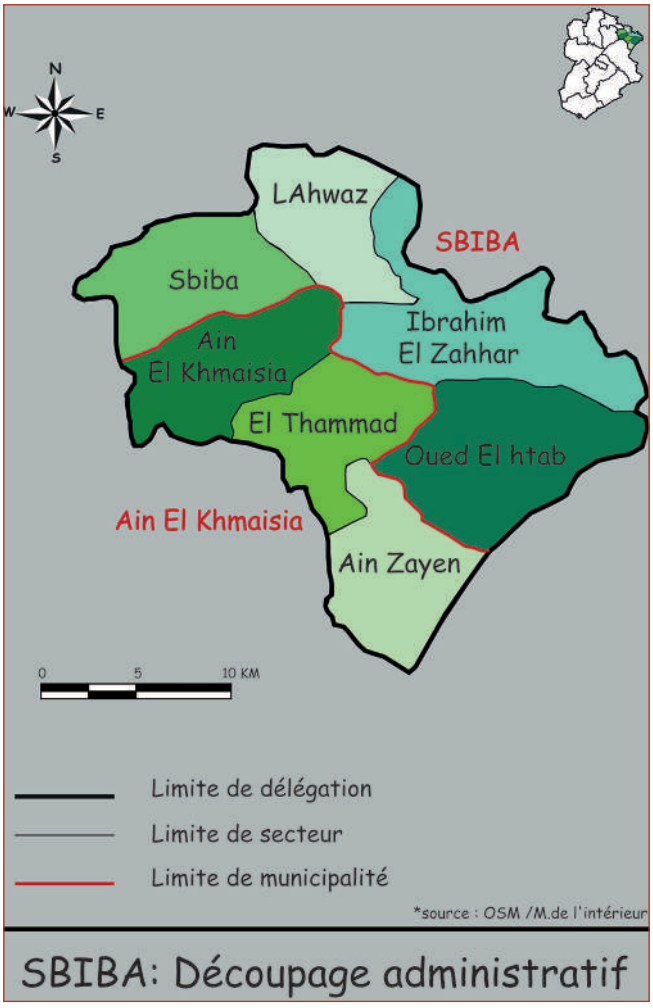

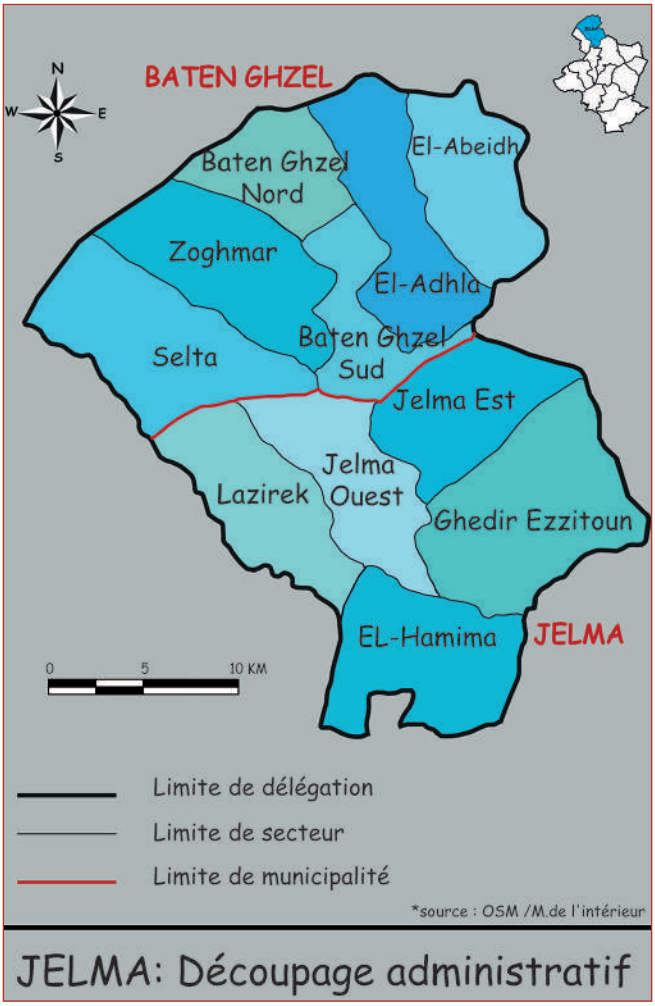

تضمّ سبيبة سبع عمادات فيما تضمّ جلمة إحدى عشر عمادة. تنقسم كلّ معتمدية إلى دائرتين بلديّتين بموجب التّقسيم الصّادر في ماي 2016، بهدف إضعاف المركزيّة وتقوية الأطراف وتمكين المجالس البلديّة من فرصة الدّفع بالنمّو الاقتصادي والتنمية المحليّة وتحسين البنية التحتيّة. لكن يبدو أنّ هذا التّقسيم لم يكن سوى فرصة لزيادة عدد المقاعد البلديّة في انتخابات 06 ماي 2018 وخدمة لمصالح بعض الأحزاب. ووجب التنبيه أنّ بلديّة عين الخمايسيّة التّابعة لمعتمديّة سبيبة التي تأسّست سنة 2016 ظلّت

قرابــة السّــنة ونصــف دون مقــرّ ولــم يتوفّــر فيها إلى غاية ديســمبر 2021 ســوى مؤسســة حكوميّــة واحــدة وهــي المدرســة الإعداديّة عين الخمايســيّة.

أغلــب المشــاريع التّــي تــمّ إقرارها لفائــدة المعتمدتــين منذ ســنة 2018 لم تنتــه وبعضها لــم يتــمّ البــدء في إنجازهــا بعــد مثــل: مــشروع غراســة أشــجار الزيتــون على مســاحة ألف هكتــار بجلمــة، وإنشــاء مركــز تصفيــة الــدم بجلمــة، وتهيئــة الملاعــب الرياضيّــة بجلمــة، وتركيــز المنطقــة الصناعيّة بســبيبة، وإنشــاء المستشــفى الجهوي بســبيبة، وربــط المعتمديّة بالســكّة الحديديّة.

4) خريطتا البنية التحتيّة للطرقات ووسائل النّقل:

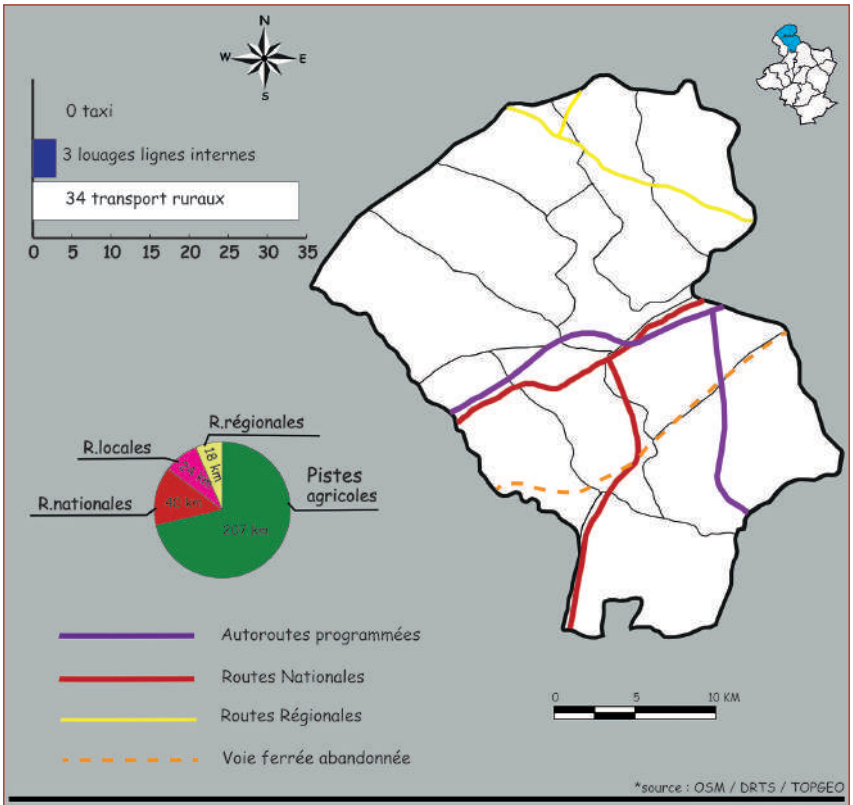

JELMA: Infrastructure routière et types de transport

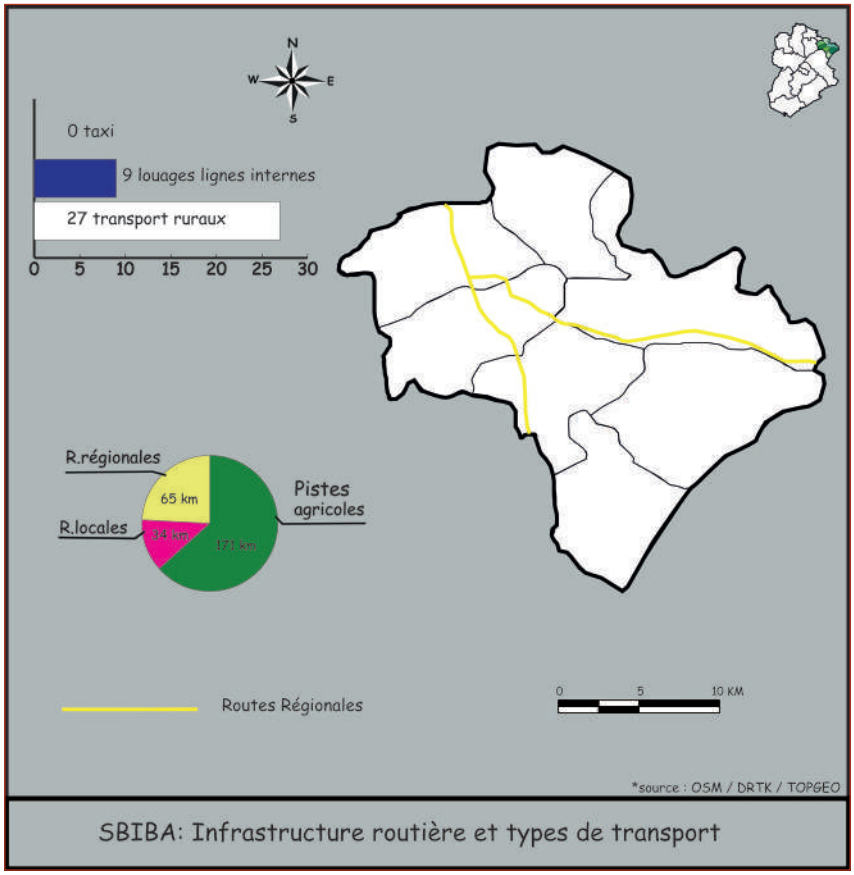

SBIBA: Infrastructure routière et types de transport

باعتبارهـا نقطـة ربـط بـين ولايـة القـيروان ومنطقـة السّـاحل مـن جهـة وولايتي سـيدي بوزيـد وقفصـة من جهـة أخرى، تمتلـك معتمديّة جلمة شـبكة طرقـات أهمّ وأطـول مقارنة بسـبيبة. وقـد برمجـت طريـق سـيّارة تعـبر معتمدية جلمـة في إطـار ربط ولايات السّـاحل بولايـات الوسـط والجنوب الغربـي. أمّا السـكة الحديديّة فقد ألغيت منذ أواسـط التسـعينات بعـد أن تعـرّض جـزء منها إلى التّلـف بسـبب الفيضانات.

5) خريطتا المؤسّسات ونسب الرّبط بالماء الصّالح للشرب والكهرباء وشبكة التّطهير :

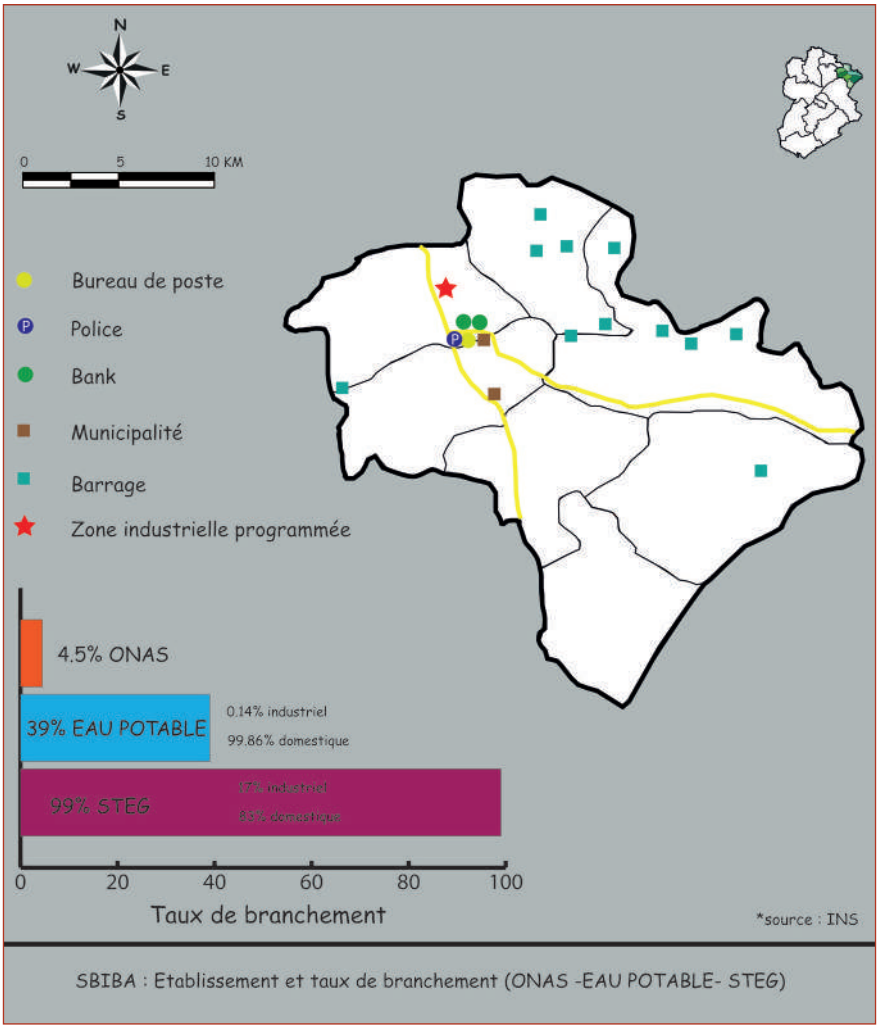

SBIBA : Etablissement et taux de branchement (ONAS -EAU POTABLE- STEG)

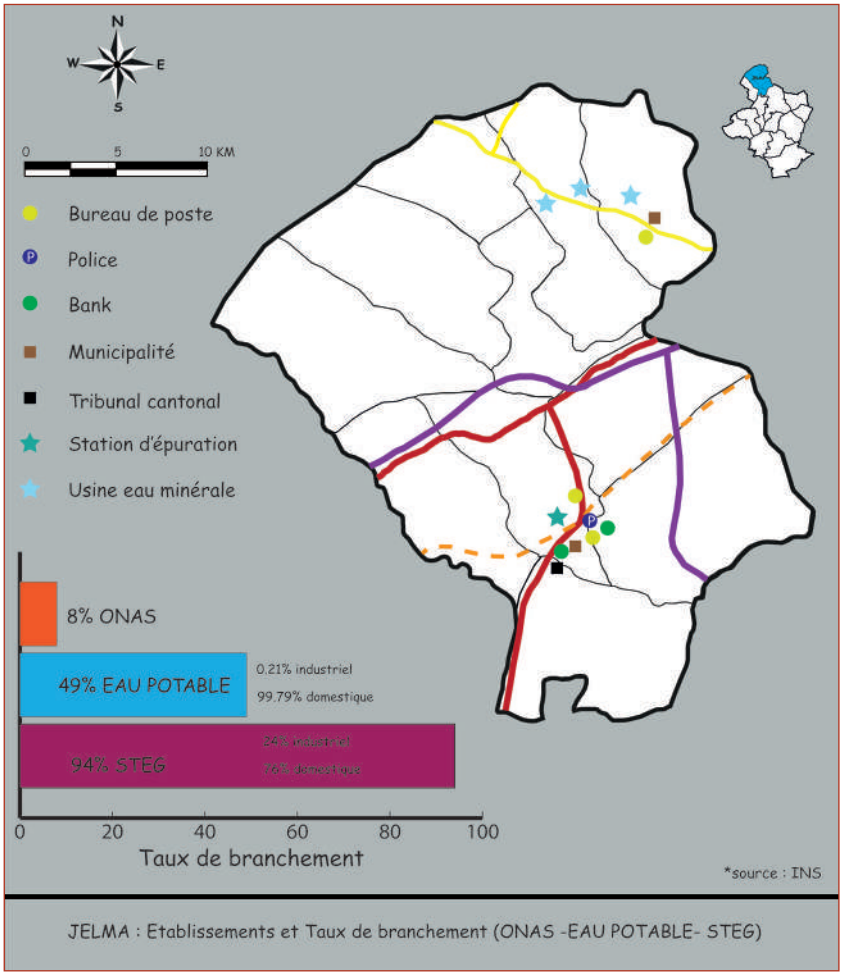

JELMA : Etablissements et Taux de branchement (ONAS -EAU POTABLE- STEG)

تتوفّر المعتمديّتان على أحد أهمّ الموائد المائيّة الجوفية إضافة إلى الموائد السطحيّة الوفيرة بفضل السّدود الّتي أقيمت على تخوم جبل المغيلة وجبل الروحيّة. ومع ذلك فإنّ العدالة المائيّة تُرجّح كفّة المستثمرين في مجال المياه المعدنيّة والمناطق السقويّة الكبرى من أصيلي المنطقة وخارجها. ويتمّ استنزاف المياه بشكل مفرط إذ بلغ عدد شركات تعليب المياه في جلمة أربع شركات في حين يعاني سكّان المعتمديتين من الانقطاعات المتواصلة للمياه الصّالحة للشرب علما وأنّ نسبة الرّبط لا تتجاوز 39% بسبيبة و 49%بجملة.

6) خريطتا المُنشآت الصحيّة والإطارات الطبيّة وشبه الطبيّة:

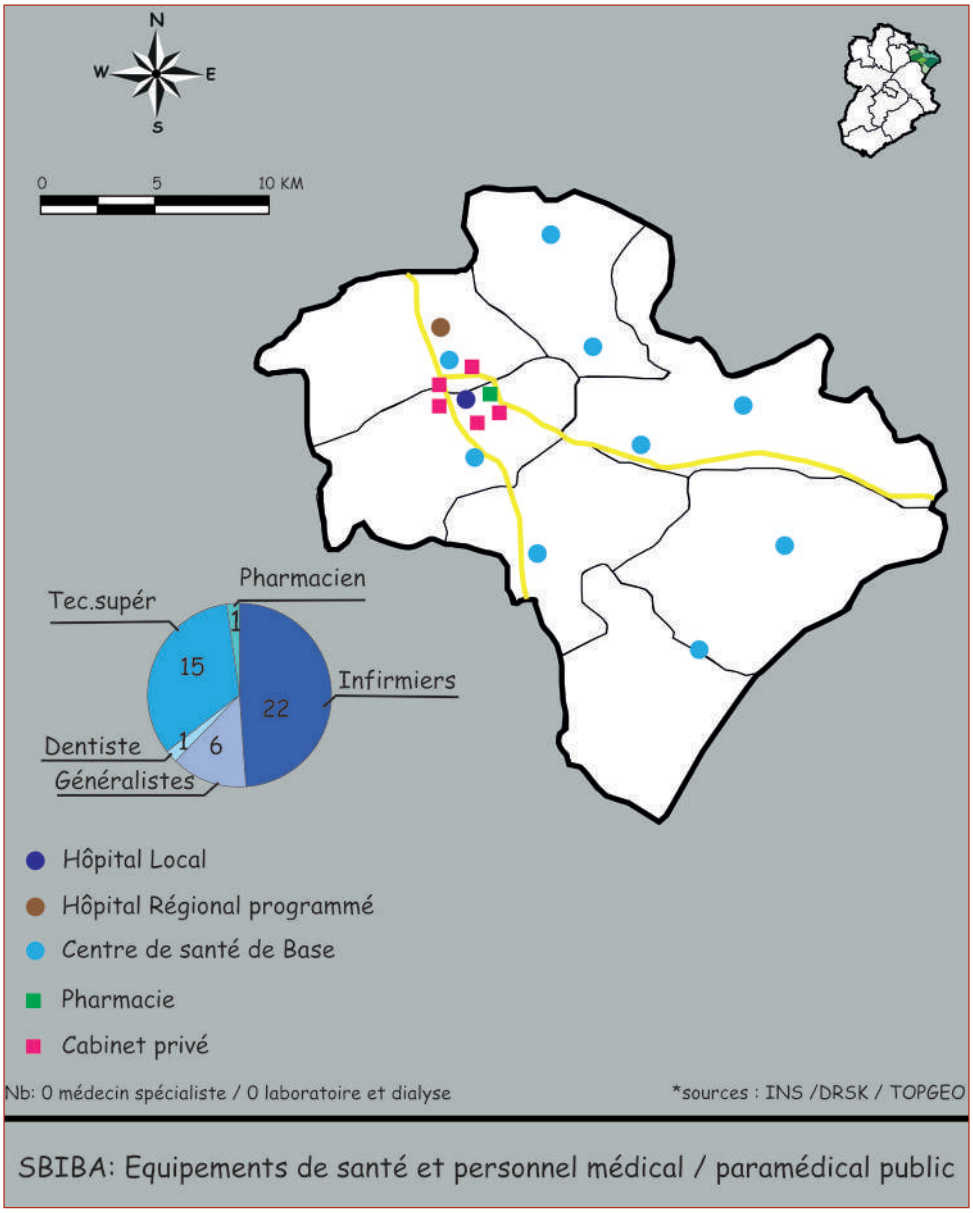

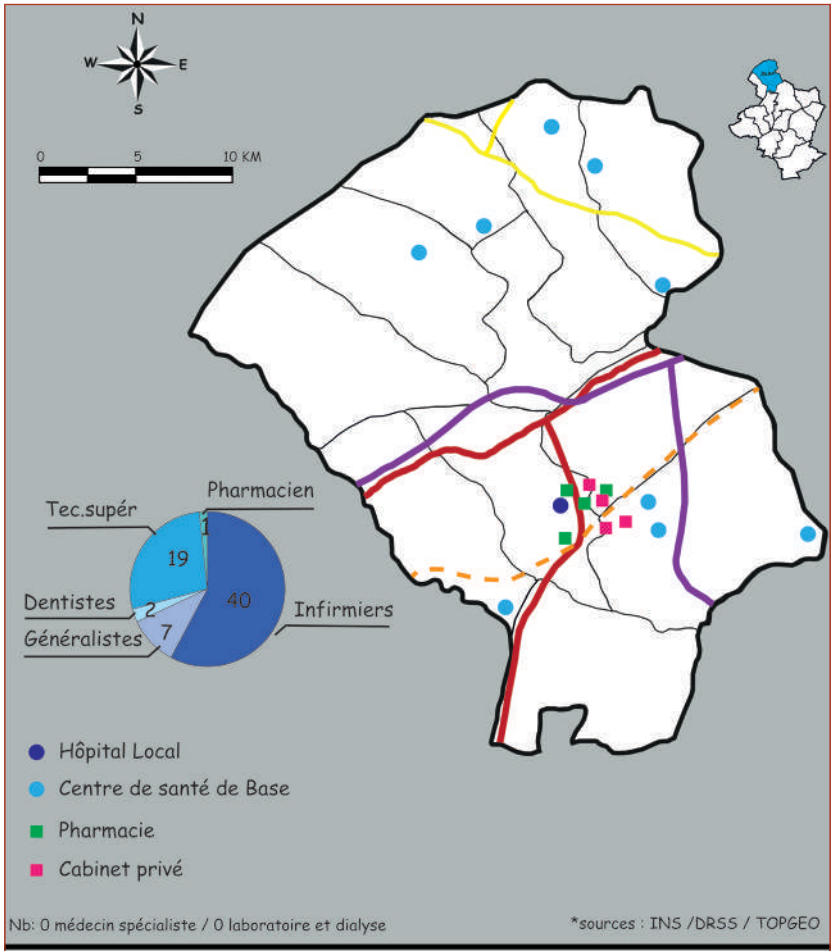

JELMA: Equipements de santé et personnel médical / paramédical public

طلبا للخدمات الصّحية، يتوجّه سكّان سبيبة وجلمة إلى المستشفيات الجهويّة بسيدي بوزيد والقصرين وإلى المستشفيات الجامعيّة بالعاصمة وولايات السّاحل لضعف المعدّات والتجهيزات ونقص الإطارات بالمعتمديتين. وتشير الإحصائيّات إلى توفّر طبيب واحد لكلّ 6800 مواطن في سبيبة. وطبيب واحد لكلّ 5700 مواطن في جلمة مع غياب أطبّاء الاختصاص والمخابر ومراكز تصفية الدّم.

7) خريطتا المؤسّسات التعليميّة والمنُشآت الثقافيّة والرياضيّة:

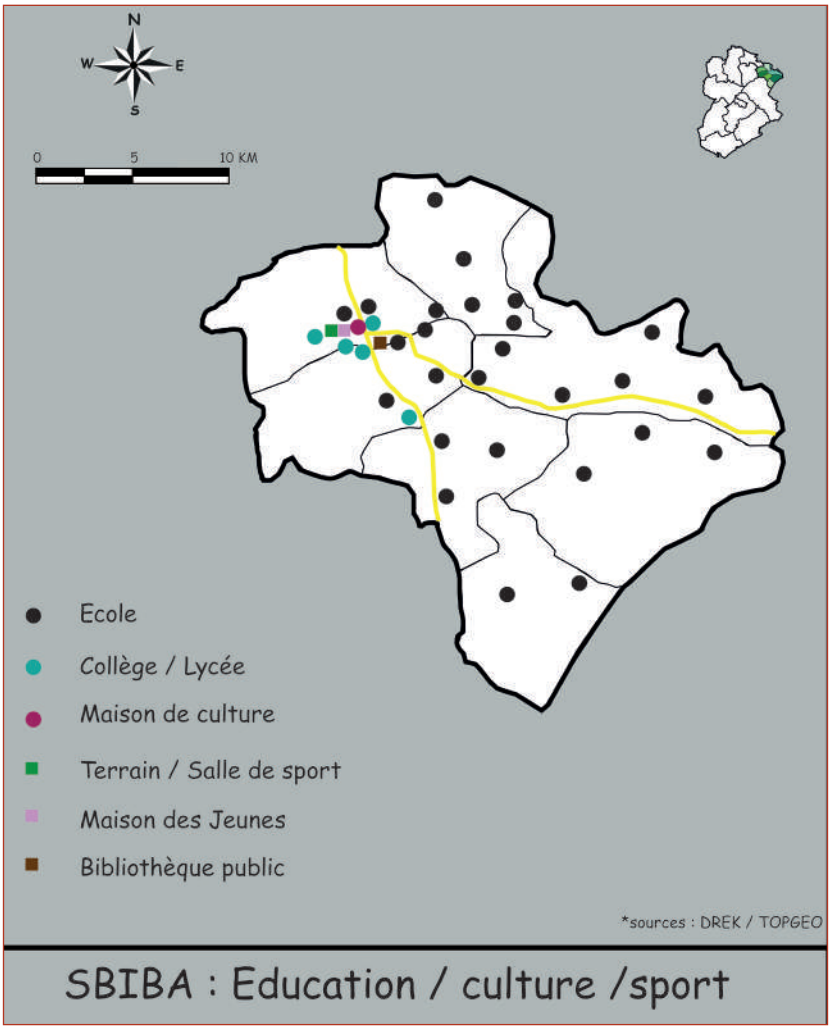

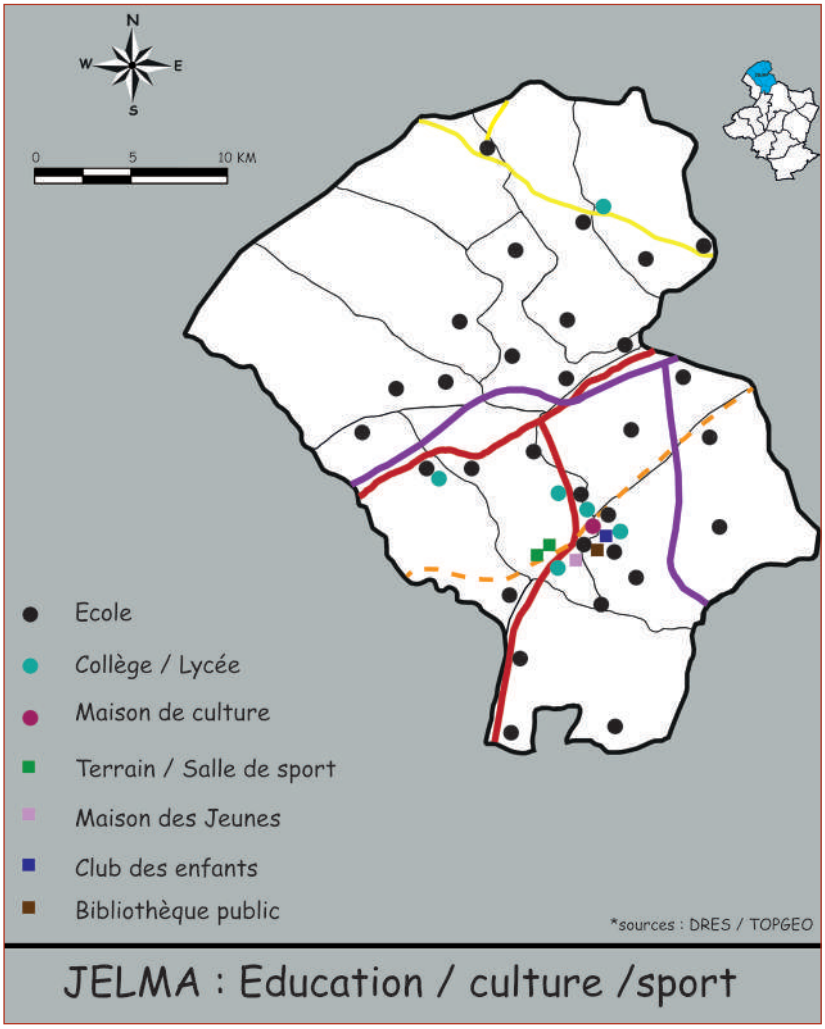

تتركّـز دور الشّـباب والثقافـة والمكتبـات العموميّة والملاعـب الرياضيّة بوسـط المدينة أي في الوسـط الحـضري، رغـم أنّ ثلاثـة أربـاع سـكّان سـبيبة وجلمـة يتوزّعون داخل الوسـط الرّيفي.

8) خريطة التوزّع السكّاني حسب الجنس والعمر والوسط:

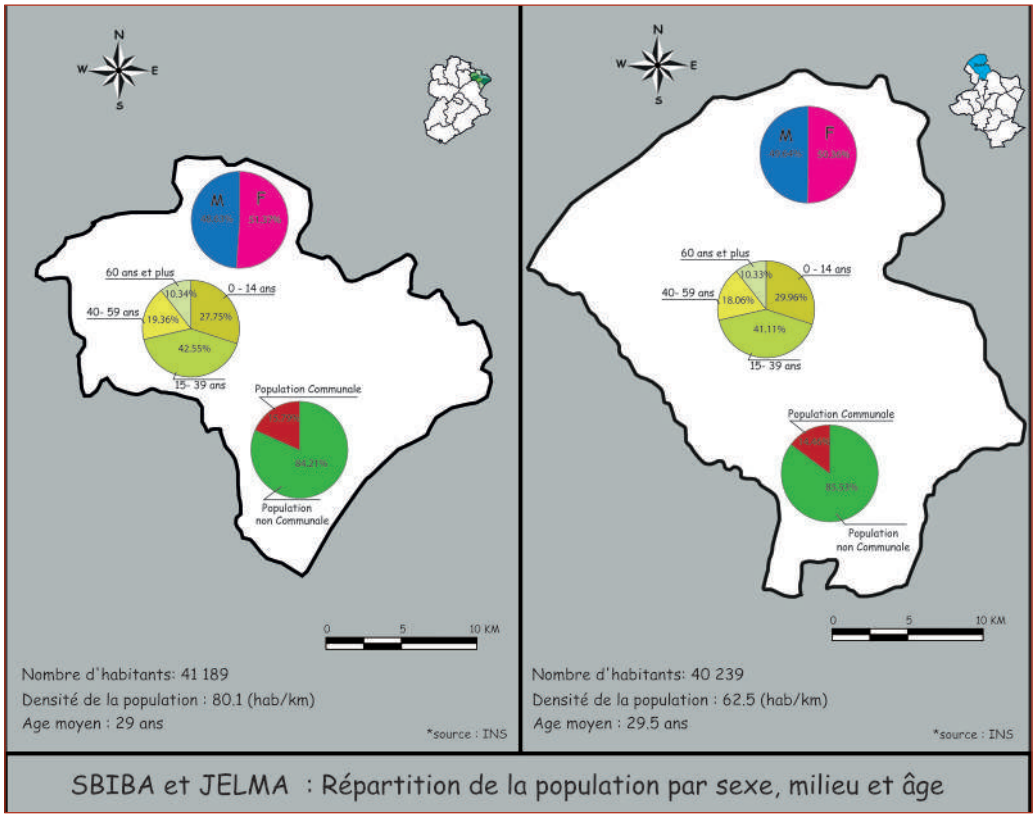

SBIBA et JELMA : Répartition de la population par sexe, milieu et âge

يتراوح متوسّط الأعمار في المعتمديتين بين 29 و29.5 سنة. وتغلب الفئة العمريّة 15-39 سنة على مجموع أعمار السكّان، إذ تتراوح بين 41 و43% في مجال يفتقد إلى فرص التّشغيل ويسيطر عليه الرّيف. فما بين 84 و85% من متساكني سبيبة وجملة ينتمون إلى الوسط غير الحضري.

9) خريطة خصائص المساكن والسّكنى:

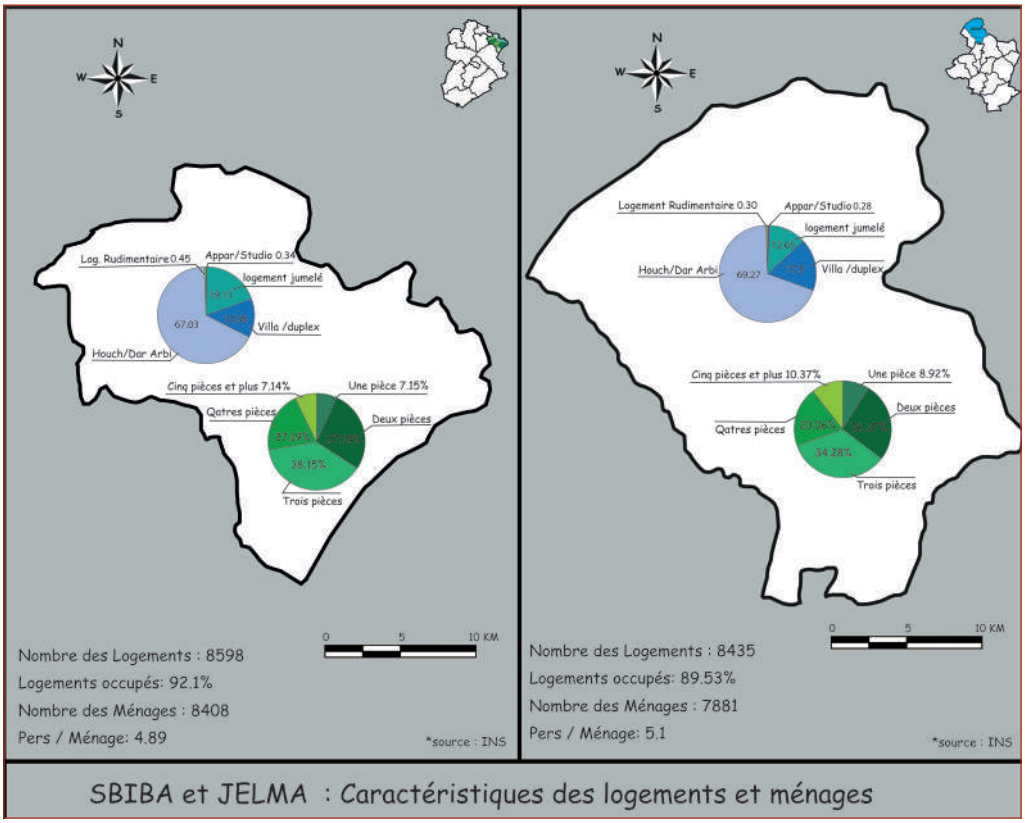

SBIBA et JELMA : Caractéristiques des logements et ménages

نتيجة لضعف نسبة التحضّر فإنّ ما بين 67 و70% من مساكن المعتمديتين هي «الحوش والدّار العربي». ويبلغ معدّل عدد الأفراد لكلّ عائلة يبلغ 5 أفراد تقريبا. وتقطن ثلث العائلات في مساكن تحتوي على غرفة واحدة أو غرفتين فقط.

10) خريطة التوزّع السكّاني حسب النّشاط والمستوى والحالة المدنيّة:

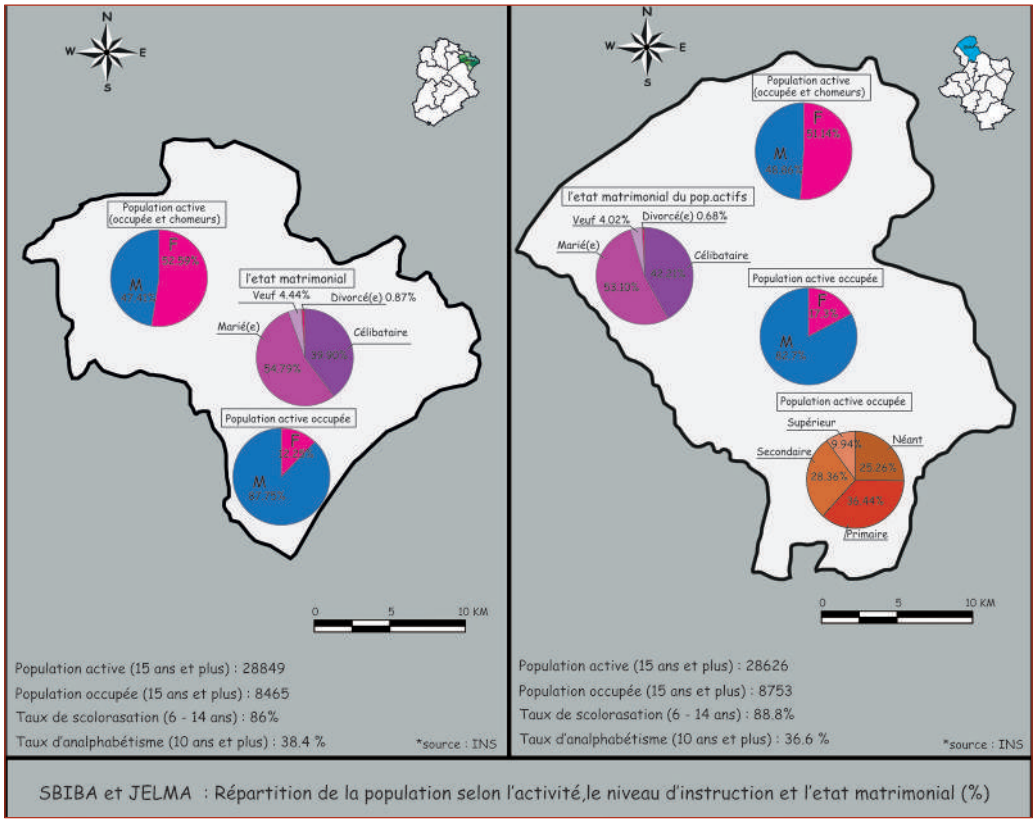

SBIBA et JELMA : Répartition de la population selon l'activité,le niveau d'instruction et l'etat matrimonial (%)

السُّكّان النشطون هم أولئك الذين تتجاوز أعمارهم 15 سنة. ويتناصفون بين ذكور وإناث. إلّا أنّ السّكان النشطين المشتغلين (يمثّلون ثُلث السّكان النشطين تقريبا) فربعهم فقط هم من الإناث. ورغم ارتفاع نسبة التّمدرس (تتراوح بين 86و89%) إلّا أنّ المُعتمديتين تعانيان من ظاهرة الانقطاع المبكّر عن الدّراسة إذ أنّ 60% من السّكان النشطين المشتغلين لم يتجاوز مستواهم الدّراسي المرحلة الابتدائيّة.

11) خريطة توزّع العاطلين عن العمل حسب الجنس والمستوى والعمر:

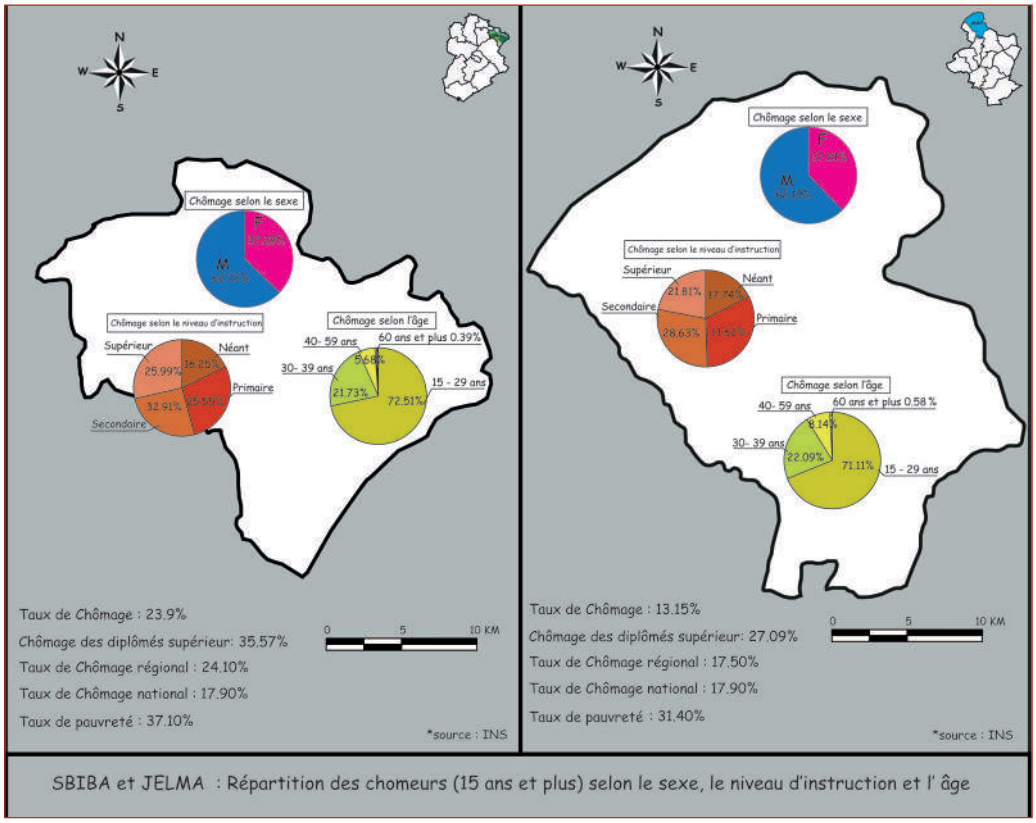

SBIBA et JELMA : Répartition des chomeurs (15 ans et plus) selon le sexe, le niveau d'instruction et l' âge

تتجاوز نسبة المعطلّين عن العمل في سبيبة 6% النسبة الوطنيّة. أمّا نسبة المعطلّين من أصحاب الشّهائد العليا 35.57% وتصل في جلمة 27.09%. وينتمي ما بين 71 و73% من العاطلين عن العمل للفئة العمريّة 29-15سنة وثلثهم من الذّكور. فيما تعدّ نسبة الفقر المؤشّر الأخطر الّذي يكتسح أكثر من ثلث المعتمديتين: 37% سبيبة و31% جلمة، ممّا يجعل من نسب الفقر في المعتمديتين ضعف نسبة الفقر وطنيا (15%)

12) خريطة خصائص الهجرة الداخليّة:

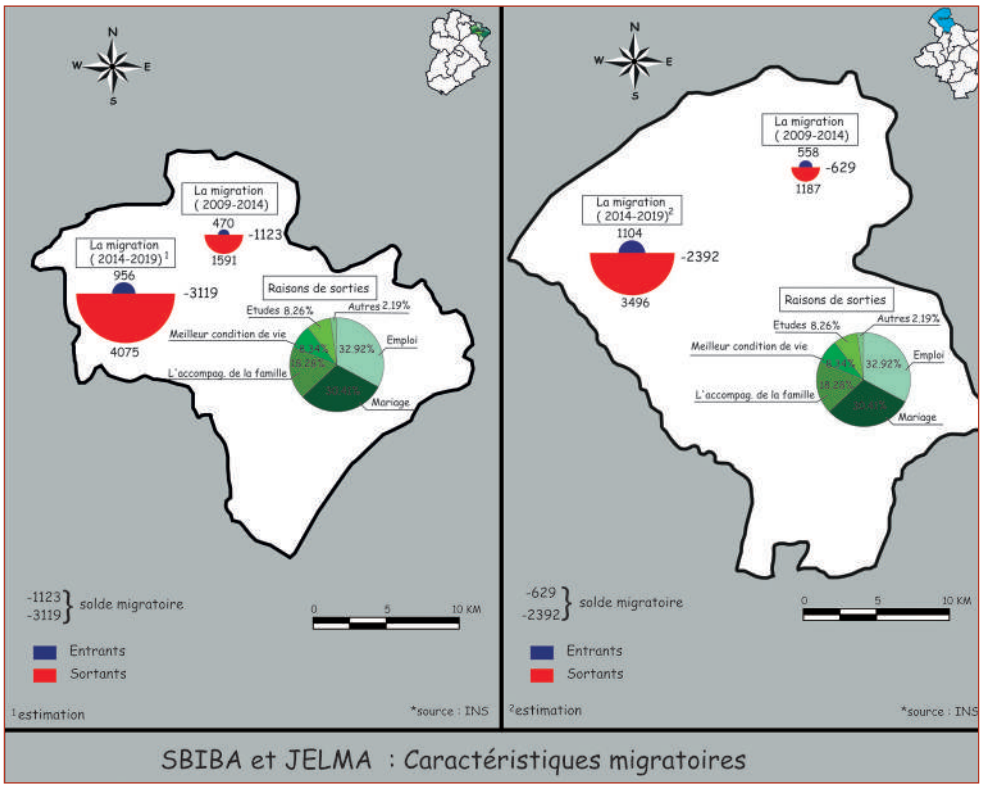

تشـهد الهجرة مـن المعتمديّتين ارتفاعا مسـتمرّا. وقد ازدادت وتيرتها في السّـنوات الخمس الأخـيرة. ويمكننـا القـول إنّ البحـث عـن فرص التّشـغيل هو سـبب هجـرة ثُلـث المغادرين نحـو العاصمة بدرجـة أولى ونحـو ولايات السّـاحل (سوسـة وصفاقس) بدرجـة ثانية.

في سـنة 2016، بلغـت قيمة الحـوّالات البريدية التي تمّ سـحبها من شـبابيك مراكز البريد بجلمـة 10.74 مليـون دينـار منهـا 1.17 مليـون دينـار مـن خارج حـدود الوطـن و9.54 مليـون دينـار تمّ إرسـالها مـن داخل حـدود الوطن ويـبرز ذلك قيمة مـا يُرسـله المهاجرون داخليّـا مـن أمـوال الى عائلاتهم وحجـم أعدادهم. وبذلـك تحتلّ جلمـة المرتبة الثّالثـة جهويّا بعـد معتمديتي سـيدي بوزيد الشرقيّـة والرّقـاب في قيمة الحـوّالات الواردة[2].

2 بسبيطلة إنطاقا من إحصائيّات الإدارة الجهويّة للبريد. TOP GEO عن أطلس ولاية سيدي بوزيد الّذي أنجزه مكتب الدّراسات

خصائص الأسرة وظروفها المعيشيّة (٪) / خصائص المساكن (٪):

	عدد العائلات	بيت استحمام/ دوش	مرحاض	مطبخ
سبيبة	8408	45,76	83,49	90,14
جلمة	7881	50.23	77	90.82

	عدد العائلات	سيارة	راديو/كاسات	تلفاز	هواتي	مكتبة
سبيبة	8408	18,58	24,75	87,12	79,82	6.41
جلمة	7881	14.65	28.06	89.05	82.6	13.39

	عدد العائلات	ثلّاجة	فرن	غسّالة	آلة غسل ماعون	مكيّف	سخّان مركزي
سبيبة	8408	84,94	40,3	47,36	3,22	3,58	1,69
جلمة	7881	88.32	47.23	49.45	1.43	7.83	1.82

		المسافة الفاصلة بين المسكن وأقرب روضة أطفال			المسافة الفاصلة بين المسكن وأقرب مدرسة ابتدائيّة		
	عدد المساكن	أقلّ من 1 كم	بين 1 و2 كم	أكثر من 2 كم	أقلّ من 1 كم	بين 1 و2 كم	أكثر من 2 كم
سبيبة	8598	20,87	19,72	59,41	29,4641	47,6	22,94
جلمة	8435	17.54	21.07	61.39	25.21	45.98	28.82

		المسافة الفاصلة بين المسكن وأقرب مدرسة اعدادية			المسافة الفاصلة بين المسكن وأقرب معهد ثانوي		
	عدد المساكن	أقلّ من 1 كم	بين 1 و2 كم	أكثر من 2 كم	أقلّ من 1 كم	بين 1 و2 كم	أكثر من 2 كم
سبيبة	8598	20,74	14,11	65,15	20,47	10,5	69,03
جلمة	8435	16.15	15.06	68.79	12.91	11.59	75.51

		المسافة الفاصلة بين المسكن وأقرب مستوصف			المسافة الفاصلة بين المسكن وأقرب مستشفى محلّي		
	عدد المساكن	أقلّ من 1 كم	بين 1 و2 كم	أكثر من 2 كم	أقلّ من 1 كم	بين 1 و2 كم	أكثر من 2 كم
سبيبة	8598	20,55	24,56	54,89	19,37	12,21	68,43
جلمة	8435	13.70	23.48	62.82	10.53	14.98	47.49

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء

خاتمة:

تمثّل معتمديتا سبيبة وجلمة نموذجا مبسّطا عن العوز والفاقة (عن إقليم الوسط الغربي بدرجة أولى وباقي المناطق الداخليّة بدرجة ثانية) باعتبارهما جزءا من منطقة منفّرة تدفع بالسكّان للهجرة نحو المناطق الجاذبة خاصة تونس الكبرى. وتعتبرالبطالة الدّافع الأوّل للهجرة. فقد حُرمت المعتمديّتان من الاستثمار العمومي ولم تنالا اهتمام رؤوس الأموال الخاصّة. كما لم يتمّ استغلال الثروات المائية والفلاحيّة من أجل تحقيق تنمية مستدامة أو عادلة.

ونعتقد أنّ الكيان الرّابض في نهج إسبانيا من النّصابة الهامشيين سيستمرّ في ظلّ هذه الظروف بالتّواجد باستمرار باعتباره عنصرا قوّيا فيما يُسمى ب»الاقتصاد الرّمادي» ونظرا لما يمثّله من فرص بديلة للعمل وتحسين الظّروف الاجتماعية بالنسبة إلى القادمين من الوسط الغربي رغم هشاشة وضعهم (كحال الاقتصاد التونسي عموما). وقد بدا ذلك جليّا في فترات تشديد الدّولة للرّقابة على البضائع المهرّبة أو في ظلّ تطبيق الحجر الصحّي الشّامل خلال جائحة الكوفيد-19 ●

مراجع:

INS	المعهد الوطني للإحصاء
OSM	موقع Open Street map.
M. de l’intérieur	موقع البيانات المفتوحة لوزارة الدّاخليّة التونسيّة
	قرار التّنظيم البلدي الصّادر في ماي 2016.

قائمة المُختصرات:

TOPGEO	مكتب هندسة نظم المعلومات الجغرافيّة ورسم الخرائط الرقميّة بسبيطلة
D.R.T.K	الإدارة الجهويّة للنّقل بالقصرين
D.R.T.S	الإدارة الجهويّة للنّقل بسيدي بوزيد
D.R.S.K	الإدارة الجهويّة للصحّة بالقصرين
D.R.S.S	الإدارة الجهويّة للصحّة بسيدي بوزيد
D.R.E.K	الإدارة الجهويّة للتربية بالقصرين
D.R.E.S	الإدارة الجهويّة للتربية بسيدي بوزيد

4

المحور الرابع

التاريخ السوسيو-اقتصادي واستمرارية ديناميكية التهميش وعوامل الطرد بالوسط الغربي: ولايتا سيدي بوزيد والقصرين مثالا

كلمات مفاتيح: سيدي بو زيد، القصرين، الوسط الغربي، التهميش، ...

مقدمة

قد يكون من المفيد سوسيولوجيا وإبستيمولوجيا أن نقدّم قراءة تاريخية ووجيزة لمنطقتي سيدي بوزيد والقصرين، وخاصّة التاريخ الاقتصادي باعتبار أنّ هذا الأخير هو القلب النابض للمجتمعات. فترك الأرض والفلاحة لا يكون قرارا عشوائيا، أو بعد حلول أزمة، بل غالبا ما يترك الإنسان أو الفلاّح أرضه بعد حلول أزمات، لأنّ القطاع الفلاحي والزراعي في موسم الجفاف وقلّة الأمطار على سبيل المثال سيتعرّض إلى هزّات لكنّه سيتعافى بعد ذلك. فالإطلالة التاريخية ستجعلنا ندرك أنّ هجرة سكان الولايتين وخاصّة شبابها نحو خارج ربوع الوطن، أو داخله وإنشاء فضاءات تجارية صارت تُسمى باسمهم مثل «الجلامة» (نسبة لمدينة جلمة) هو نتاج سيرورة تاريخية اتسمت بشعور الساكنة بالحقرة والدونية من ناحية، وبأنّ ثقافة التجارة التّي لا تعترف بالحدود الجغرافية وتؤمن بالحرية لها عمقها التاريخي وصارت موروثا سوسيو-اقتصاديا لسكان المناطق الحدودية الغربية من ناحية أخرى.

ومن هنا نستخلص أهميّة المادة التاريخية في التحليلات السوسيولوجية، فوفقا لعالم الاجتماع الفرنسي والمختص في علم الاجتماع التاريخي وعلم الاجتماع السياسي **ميشال أوفرليه** Michel Offerlé: « لا يوجد علم اجتماع جيّد bonne sociologie ما لم يكن مدعوما بقوة باستخدام التاريخ والعمل التاريخي»[1]. فلمعرفة الحاضر كما يقول التيمومي «هو الشرط الذي لا مناص منه لفهم الماضي»[2] . وهكذا فإنّ التاريخ «ليس ما

1 – Michel Offerlé, « Histoires de protestations», *Penser les mouvements sociaux*, In Eric Agrikoliansky et al, (Paris : La Découverte, 2010), p 266.

2 – الهادي التيمومي، **الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية الكادحون الخمّاسة في الأرياف التونسية 1861-1943** (تونس: دار محمد علي الحامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس الجزء الأول، 1999)، ص 14.

مـضى بل مـا بقي فينـا بعـد كل ما مـضى»[3] .

فمـن خلال علـم التاريخ، سـنعرف إن كانت هنـاك بالفعـل عوامل اقتصاديـة واجتماعية وثقافيـة طـاردة، وصرنـا نتحـدث حتّـى مـا بعـد سـنة 2011 عـن اسـتمرارية ديناميكية التهميـش، وسـنتمكن أيضـا مـن الإجابـة عـن سـؤال مفـاده إلى أيّ مـدى يمكن اعتبـار أنّ الشـبكات الاجتماعيـة المحليّـة ومتانتها كان لهـا الأثر الحاسـم في صنع القـرار الهجري كان خـارج الوطـن أو داخلة وذلـك باعتبـار أنّ البنيات الحميمية لـم تتفكك تماما حتّى في سـياق انخرطـت فيـه البلاد التونسـية في دائـرة التبعيّة للرأسـمالية.

ونظـرا لغـزارة الكتابـات والتحليـلات حول الوسـط الغربـي وتاريخه وثقافاته وعروشـه وتقسـيماته، وبمـا أننـا لا يمكننـا التطـرق إلى كلّ المحطات والتفاصيـل التاريخيـة في تاريخ الولايتـين، فإننـا سـنكتفي بتقديم القـراءة التاريخية منذ تونـس الحسـينية مقتصرين النظر عـلى الفلاحة والتجارة الحدودية بشـكل شـامل دون التعمّق، وذلك لفهـم أنّ هذين القطاعين: التجـاري والفلاحـي صـارا في خدمة الأباطـرة وكبار التّجـار والفلاحين مقابـل ضحاياه وهم صغار الفلاحيّن والمهمشـون والمنسـيون.

وبمـا أنّ موضوع دراسـتنا الأسـاسي يركّز عـلى التجار والانتصـاب بنهج إسـبانيا بتونس العاصمـة، وإذ تبـيّن لنـا من خـلال العمـل الميدانـي الكمـي والنوعـي أنّ غالبية تجـاره من منطقـة سـبيبة التابعـة لولايـة القصريـن، وكمـا لا نغفـل أهميّة هـذا النمط مـن العمل لدى سـاكنة جلمـة، وبما أنّ المنطقتـين يتبعـان إداريا ولاتي سـيدي بوزيد والقصريـن، وجغرافيا ينتميـان إلى الوسـط الغربي، فإنّ قراءتنا سـتكون حـول الولايتين في سـياق إقليمهما الجغرافي بشـكل شـامل. فأهالي سـبيبة أو جلمة ليسـوا بمعزل عن قصّة الألـم التي تعانيهـا الولايتان، ولا بمعـزل أيضا عـن السياسـات الاجتماعية التّـي تهندس لهـا النخب الحاكمـة. وللتوضيح أيضـا فـإنّ مـا سـنذكره مـن أمثلـة مثـل التجـارة الحدوديـة أو ضيعـة الاعتزاز بعد سـنة 2011 يُفـسّر معاناة الأهـالي هناك.

3 – عدنان المنصر، **سنوات الرمل. تفكّر في معارك الانتقال الديمقراطي في تونس –2011 2014** (تونس: سوتيميديا للنشر والتوزيع، 2021) ص 21.

أ- البنية الاقتصادية زمن تونس الحسينيّة

وفقا للمؤرخ التونسي **الهادي التيمومي** فإنّ نمط الإنتاج الإقطاعي قبيل 1881 هو الذي كان «مهيمنا في تونس شمال الظهرية التونسية وفي المناطق الساحلية وفي واحات الجريد وبعض مناطق الوسط والجنوب. أما أنماط الإنتاج الثانوية فهي نمط الإنتاج شبه المشاعي ويهيمن على أغلب مناطق الوسط والجنوب. أمّا نمط الإنتاج العبودي المنزلي ونمط الإنتاج البضاعي البسيط فيخترقان بتفاوت الكثير من قطاعات المجتمع، ولا يمكن بالتالي تحديد حيّزهما الجغرافي» [4]. فالحياة الاقتصادية كانت تقوم على «توازن هشّ بين الموارد المتأتية من قطاع زراعي يشكوا من صعوبات هيكلية وظرفيّة متقلّبة، ومن قطاع حرفيّ يغلب عليه الطابع التقليديّ. وكانت الأرض هي المصدر الأساسي للحياة الماديّة فهي مجال الانتجاع ومصدر الغذاء»[5]. فقد كانت تونس قبل الاستعمار تعتمد أوّلا وبشكل أساسي على اقتصاد الكفاف أو ما يعبر عنه **بمرحلة الاستقرار الخاصّة بمجتمع الكفاف** La société subsistance والتي تتألف من تعويض معدّل الوفيات المرتفع من خلال ارتفاع عدد الولادات الخاصّ بالمجتمع التقليدي حيث كان الأمر يتعلق بتوفير الأمن fournir une sécurité في سياق تهدد فيه الأمراض المعدية والأوبئة ونقص الغذاء الناجم عن الجفاف الحياة الديموغرافية. لتكون الأسرة هي المكان الذي ترتفع فيه حالات الإنجاب للحفاظ على «العرق» La race من ناحية، وتوفير «القوى المنتجة» forces productives من ناحية أخرى[6]. وعلى الرغم من أنّ ظروف الإيالة الاقتصادية والاجتماعية قد جعلتها تصدر قانونا ديموغرافيا مشجعا للولادات، «إلاّ أنّ الأزمات والأوبئة والمجاعات في القرن التاسع عشر خلفت ثغرات كبيرة في هرم السكان وانخفاض ملحوظ في القوى العاملة اضطر الفلاحين في الستينيات (القرن 19) إلى التعاقد مع صبيان للعمل

4 – الهادي التيمومي، **انتفاضات الفلاّحين في تاريخ تونس المعاصر. مثال 1906** (تونس:المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة, قرطاج، 1993)، ص 26.

5 – نور الدين الدّقي، **تونس من الإيالة إلى الجمهورية 1814-2014** (منوبة: المنشورات الجامعية بمنوبة بالاشتراك مع المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، 2016)، ص 35.

6 – Laroussi Amri, «*Les changements sociaux en Tunisie 1950-2000*», Introduction, Actes du colloque international, Institut Supérieur des sciences humaines, Université El Manar, Tunis, 22-25 octobre 2002, (Paris, L'Harmattan, 2007), p 18.

عندهـم رعاة أو خمّاسـة.... لذلك كان التراجع الديموغرافي سـببا من أسـباب تراجع الأنشـطة الاقتصادية بالإيالة التونسـية في سـتينيات القرن التاسـع عشر وخاصّة في مجـال الفلاحة» [7] . وإذا كانـت التسـمية التاريخيـة لتونس هـي « مطمورة رومـا»، فهذا لا يحجب أهمية الشـكل المتطـور مـن الصناعـة التـي عرفتهـا مدينة تونـس والتي انبنت على أسـاس شـبه رأسـمالي تتمثـل في صناعـة الشاشـيّة حسـب المواصفـات المعمليّة التي كانـت سـائدة في أوروبا بفضل توفّـر سـوق خارجيّـة هامّة في المـشرق وإفريقيا. ونشـير كذلـك إلى أهميّـة التجـارة البحرية التـي كانت نشـاطا مربحا لرجـال الأعمـال الأجانب وخاصّـة تجّار مارسـيليا[8].

لكـن تظّـل الفلاحـة والزراعـة هما المحـددان لاقتصاد الإيالـة و ليس لدينا مـا أدلّ على هـذا من منشـور البـاي في شـأن الفلاحـة، «ففي سـنة 1273 هجـري الموافق لسـنة 1856 ميـلادي، أعلـن «المشـير محمد باشـا بـاي» منشـوره في شـأن الفلاحـة، وذلك بعـد أن ثقلت الأعشـار عـلى منتحـلي الفلاحـة، كمـا أنّ الفلاح في سـنة الجدب (أي قلـة المطر) يبيـع المواشي وآلات الفلاحـة ولا يـكاد يخلـص في مغرمهـا المسـمّى بالعـشر، كمـا أنّ أرض المملكـة عشرية غـير مأمونـة الـري... كمـا أنّ المملكة متأخـرة عن غيرهـا في إيجـاد الصناعة، حتـى إنّ غالب ثيـاب أهلها، شـعارا ودثـارا، من غيرهـا، والخارج مـن مصنوعها قليـل كالشاشـية، وموادّها مـن خـارج، ونسـيج جربـة والجريـد ونحوها ذلـك نزر ويسـير، فثروتهـا الحقيقيـة هي ما يخـرج مـن أرضهـا وتربتها الطيبـة الخصبة» [9]. فقـد ظلّت «مـوارد الأرض دوما أهـم موارد الدولـة في تونـس آنـذاك حتى في أعـزّ فترات ازدهـار التجارة. وهـذه حقيقة لا بد مـن إبرازها لتنسـيب أهميّـة التجـارة في تاريـخ تونس وذلـك بالرغم مـن أهميّة هذه التجـارة»[10].

7 – إبراهيم بن جمعة بلقاسم، **الاقتصاد والمجتمع في الإيالة التونسية من 1861 إلى 1864**. (من خلال محاضر محاكم الجنايات والأحكام العرفية) (تونس: كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، جامعة تونس، 2002)، ص 55-54.

8 – تور الدين الدقي، سبق ذكره. ص 35.

9 – أحمد إبن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمن بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** (تونس: منشورات زخارف المجلد الرابع، 2016)، ص 224.

10 – الهادي التيمومي، انتفاضات الفلاحين... مرجع سابق، ص 27.

1- الفلاحة بالوسط الغربي

«تستوطن قبائل المناطق الوسطى والجنوبيّة بعيدا عن محاور الاقتصاد المفتوح، ويتراوح نمط عيشها بين التنقّل والاستقرار، وهي تتعاطى النشاط الفلاحّي والرعويّ»[11]. وهذا النشاط وفقا لإبراهيم بن جمعة بلقاسم يتمحور أساسا زمن تونس الحسينيّة حول ثلاثة مفاهيم جوهرية وهي الزراعة والغراسة والتقنية المعتمدة. فقد كانت زراعة الحبوب، والتي تشمل القمح والذرة والشعير، من أبرز زراعات المناطق الريفية بالوسط والجنوب «وتعتبر هذه الزراعة أهمّ زراعة فقد كانت تشكّل غذاء الأغلبية بالوسط والجنوب. أمّا الغراسات فقط احتل غراسة الزيتون المرتبة الأولى من جملة الغراسات باعتبارها الشجرة المميزة للمناخ المتوسطي وهي غراسة ضاربة في القدم إذ يعود انتشارها في مناطق الوطن القبلي والشمال وساحل سوسة إلى العهد القرطاجي. ولكن في ستينيات القرن التاسع عشر امتدت غراسة الزيتون إلى جميع جهات الإيالة (بما فيها الوسط الغربي) ما عدا المناطق الصحراوية الجنوبية. وقد كانت الزراعات البعلية هي الغالبة»[12].

كما كانت مناطق الوسط الغربي مهتمة بالنشاط الرعوي كأغلب جهات الإيالة، وخاصّة «بتربية الماشية الرقيقة عكس المناطق الشمالية التي تسيطر عليها تربية الأبقار أو تربية الإبل بمناطق الجنوب. ويختلف هذا النشاط باختلاف أنماط العيش فهو نشاط ثانوي لدى سكان التجمعات الحضرية المهتمين بالغراسات والزراعات بينما يعدّ نشاطا رئيسيا لدى سكّان العروش القبلية عامة وسكان الوسط والجنوب خاصّة»[13].

كما لا ننسى نظام الملكية الزراعية والتي تعتبر نظاما معقدا زمن تونس الحسينية وكذلك خلال الفترة الاستعمارية والتي تقسّم إلى خمسة أصناف: «أراضي البيليك، أراضي الحبس، أراضي العروش أو الأراضي المشاعية، الأراضي الخاصّة، وأراضي الموات. وكذلك أنماط وصيغ ومضامين عقود العمل الفلاحيّة والرعي»[14].

11 – نور الدين الدقّي، مرجع سابق، ص 32.

12 – إبراهيم بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق،. ص 58، 59، 60، 61.

13 – إبراهيم بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق، ص 64.

14 – يمكن للقارئ أن يعود إلى: إبراهيم بن جمعة بلقاسم، مرجع سابق.

2- التجارة الحدودية غير المهيكلة في الوسط الغربي

أ) الجذور التاريخية للظاهرة التجارية- الحدودية

يُعتبر السياق التاريخي من أبرز الحوافز لتصاعد التجارة غير المهيكلة عبر الحدود الغربية. فلقد أدّى تنوّع مجال الفراشيش وماجر على سبيل المثال، وامتداده بين المجال الرطب والمجال شبه الجاف، وتركّزه بالوسط التونسي، إلى تشكّل مناطق منتجة للحبوب وأخرى للتمور من جهة، وأدّى موقعه الحدودي من جهة أخرى، إلى تنوّع الأنشطة داخله[15]. فالموقع الجغرافي لقبائل الوسط والفاصل بين تونس والجزائر كان عاملا حاسما في بروز ظاهرة التجارة الحدودية بصرف النظر عن البضاعة. ولكن هذه الحدود الفاصلة لا تعترف بها قبائل الوسط في ذهنيتها. فالخصوصيات البشرية للمنطقة تتميّز بتركيبة قبلية مبنية على روابط الدم وعلى تصور الفضاء المفتوح والحر أمام حركة تنقل البشر في هذا الفضاء[16]. فالذهنية والتصورات القبلية يغيب عنها مفهوم «الحدود» و«الحاجز الفاصل» بين الدولتين أو المجالين، فمفهوم الحدود هو نقيض السلطة والقانون. لذلك يعتبر مفهوم «**الحرية**» من محددات القبيلة، فقد كانت تلك القبائل التي تعيش على الحل والترحال بشكل خاص تعتبر نفسها كيانا حرا شبه مستقل وذلك حتى في سياق فرض الجباية والخضوع إلى المركز السياسي أو للقبائل القوية التي تفرض الإتاوات على القبائل الضعيفة عن طريق علاقات تراوحت أشكالها بين التحالفات والحماية والإخضاع[17]. كما أنّ » وثائق الأرشيف تؤكد منذ الفترة الحديثة على هذا الغياب لمفهوم « الحدّ الفاصل» لدى المجموعات القبيلة في الواجهات الحدودية الغربية، فالمراعي لا تعترف بهذه الحدود إذ تتواصل داخل الأراضي الجزائرية والأهالي في الضفتين يشتركون في موارد الماء إذ تذكر وثائق الأرشيف اشتراك بعض مجموعات الفراشيش مع النمامشة في الأراضي الجزائرية في

15 – الأزهر الماجري، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي)** (منوبة: منشورات كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة، الطبعة الثانية 2007)، ص 69.

16 – محمد فوزي سعداوي، « التقاطع الملتبس بين التهريب والإرهاب على الحدود الغربية للبلاد التونسية»، في: **الإرهاب والتهريب في تونس. دراسات في الوضعية الراهنة**، إشراف وتقديم: عميرة عليّه الصغيّر، (المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة، 2017)، ص 98.

17 – محمد نجيب بوطالب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، (سلسلة أطروحات الدكتوراه: 41)، 2002)، ص 106-107.

عيـون المـاء والآبار التـي كان يسـتعملها الطرفان دون أن يثـير ذلك أي خلافـات أو صدامات بينهـم. بـل فحتـى الإغارات تمثّـل في الذهنيـة القبلية المحليـة نوعا من المبـادلات»[18].

رغـم محـاولات السـلطة المركزية طيلـة الفـترة الحديثة وحتـى العشرية الأولى مـن الفترة الاسـتعمارية رسـمَ الحـدود إلاّ أنّهـا قـد عجزت عن ذلـك ولم تفلـح في تغيير الذهنيـة وتقييد حـركات السـكان والسـلع عبر إجـراءات قانونيـة عديدة. فقد حاولت سـلطة محمـد الصادق بـاي فـرض تذكـرة التنقل عـلى السـكان الحدوديـين لمراقبـة تحرّكاتهـم ابتداء مـن 1867، ولكـن محـاولات المراقبـة هذه عـبر تركيز بعـض رموز السـيادة مثل أبـراج المراقبـة وتعمير الفضـاءات المحيطـة بأسـواق ريفيـة لضمـان أكبر مـن إمكانيـات المراقبـة قد دعمـت فكرة «الحـدود المفتوحـة»، وفي هـذا الصدد يقـول **محمد فوزي سـعداوي**: « حيـث تحولت هذه الأسـواق الأسـبوعية إلى مناسـبات لترويج البضائـع المجلوبة مـن الحـدود الجزائرية وفرصة لمبادلـة البضائع بين سـكان ضفتـي الحدود وهو مثال سـوق تالـة الذي أصبـح منذ النصف الثانـي للقـرن التاسـع عـشر من أشـهر الأسـواق الريفيـة الحدوديـة وأكثرها نشـاطا بل أنّ التقاريـر تتحـدث عـن تحـول هذه السـوق إلى فضـاء لترويـج «الممنـوع» أو «المـوازي» مثل البارود»[19].

رغـم هذه القـراءة المختـصرة، وربطا بمثال سـوق تالة يمكننـا القول إنّ ظاهـرة التجارة غـير المهيكلـة أو «التهريـب» عبر الحـدود الغربية للبـلاد التونسـية هي ظاهرة بعيـدة المدى، لهـا خاصيتهـا التاريخيـة والجغرا-بشريـة، فـإذا كان في نظـر الحكومـة هـي ممارسـة غير قانونيـة إلاّ أنّ هـذا النشـاط هو «نشـاط تجاريّ عـاديّ» بالنسـبة للمجموعـات البشرية التي تعيـش عـلى الحـدود الغربية وذلك في إطـار تمثلاتهـم الثقافية التـي تعتبر من حريـة التنقل وعـبر الحـدود ممارسـة حيويـة وعاديـة. وباختصار فـإنّ النشـاط التجاري الحـدودي غير المهيـكل في الوسـط الغربـي وبخاصّـة في جهـة القصرين هـي اسـتمرارية تاريخية وليسـت ظاهرة وليـدة المجتمعـات المعاصرة.

18 – محمد فوزي سعداوي، ص 98.

19 – المرجع السابق، ص 99.

ii- عوامل الطرد بالوسط الغربي قبيل الثورة

1- الهشاشة الاقتصادية والاجتماعية

رغم ما يتعرّض له الباعة غير المهيكلين من اعتداءات أمنية تقريبا بصفة يومية، إلاّ أنّ الانتصاب اليومي على رصيف نهج إسبانيا انطلق منذ سنة 2011، لذلك من المفيد معرفيا وسوسيولوجيا العودة إلى السياقات الاقتصادية والاجتماعية ما قبل سنة 2011 وما بعدها، تلك الخلفيات التّي كانت أهم العوامل (ليست وحدها) لاندلاع ثورة الحرية والكرامة واختيار تلبية الحاجيات الاجتماعية اليومية عن طريق الأعمال غير المهيكلة. فالانتصاب غير المهيكل بنهج إسبانيا يمثّل شكلا من أشكال المقاومة لأهالي الوسط الغربي. كما أنّ الحالة المأزومة التّي ظلّت بمناطق الوسط الغربي بعد سنة 2011 كانت أحد المحفزات لتواصل العمل على هذا الشكل.

يُعتبر إقليم الوسط الغربي قبل سنة 2011 من أقل مناطق البلاد حظّا في مستوى الانتفاع بثروات البلاد، فمنذ أنّ اتجهت استراتيجية السبعينيات نحو تحرير المبادرة الخاصّة وتعميق الاندماج في السوق الرأسمالية العالمية أين انتصرت حكومة الهادي نويرة إلى مبادئ اقتصاد السوق، استولى الشريط الساحلي على أكثر من ثلاثة أرباع الاستثمارات وخاصّة في الصناعة والسياحة، وهو ما ساهم في الاختلالات بين الجهات منذ السبعينيات وتعمّق في التسعينيات إلى اليوم. فلئن كانت الثنائية القديمة سواحل/دواخل الموروثة سائدة منذ الفترة الاستعمارية، إلاّ أنّها قد تعمّقت بصورة لافتة مع حلول العولمة والاستقطاب الاقتصادي إلى حد أنّها تحولت إلى مثلث ضيق[20] يتكون من الوسط الغربي والجنوب الغربي والشمال الغربي للبلاد التونسية.

يسجّل معدّل الإنفاق السنوي للفرد الواحد في إقليم الوسط الغربي أضعف نسبة في البلاد وفق مختلف الدراسات الوطنية المنجزة من قبل المعهد الإحصاء الوطني حول

20 – أحمد خواجة، «**الممارسات الثقافية ودورها في اندلاع الثورة في ولايتي سيدي بوزيد والقصرين**»، في: **الثورة التونسية: القادح المحلي تحت مجهر العلوم الإنسانية**، إشراف: المولدي الأحمر، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 197، 198.

الاستهلاك ومستوى عيش الأسر التونسيّة. ويسجّل الفقر في هذا الإقليم أعلى مستوى مقارنة بسائر مناطق البلاد الأخرى حيث بلغ 19،7% سنة 1980 و12،8% سنة 2005 [21].

ويشهد الوسط الغربي قبل سنة 2011 أعلى نسبة أميّة في البلاد، وتسجّل النسبة العامة للبطالة في جهة الوسط الغربي ارتفاعا حيث بلغت 14،9% قبل سنة 2011 وهو ما يتجاوز نسبيا المعدّل الوطني (14،2%). وفضلا عن ذلك تسجّل نسب أصحاب الشهادات الجامعية العاطلين عن العمل ارتفاعا في محافظات الوسط الغربي (33،6% كنسبة عامة) وهي على التوالي 32،3% و35،9% و32،4% بكلّ من سيدي بوزيد والقصرين والقيروان. وترتفع نسبة الأمية والعاطلين في سياق تراجع فيه إنتاج الجهة للخضر من نسبة 27% من الإنتاج الوطني إلى 17% فقط [22].

»بعد التراجع الكبير لمواطن الشغل المستحدثة في قطاع الزراعة بولايتي سيدي بوزيد والقصرين خلال العشرية 1984- 1994 (-8000 موطن شغل)، عاد هذا القطاع إلى توفير مواطن شغل خلال العشرية الموالية (1994-2004)، ولكن ذلك اقتصر على القصرين فحسب (زائد أكثر من 6800 موطن شغل). وهذا التوجه شمل النساء أكثر من الرجال، حيث تراجع توفير مواطن الشغل بالنسبة إلى الرجال ب 5337 موطن شغل، ليرتفع إلى أكثر من 8068 موطن شغل بالنسبة إلى النساء«[23].

رغم هذا التوجه نحو توفير مواطن شغل والذي له أسبابه[24] منها الدعم العمومي، إلاّ أنّ هذا الأخير له محدوديته. فوفقا لحمادي التيزاوي هناك خمسة عوامل مختلفة

21 – عائشة التائب، «الخلفيّة الاقتصادية والاجتماعية للثورة في تونس»، في: **ثورة تونس الأسباب والسياقات والتحديات**، مجموعة مؤلفين، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 69.

22 – المرجع نفسه، ص 69، 70

23 – حمادي التيزاوي، «الحساسية الاجتماعية المفرطة لاقتصاد محلّي هشّ وغير مهيكل»، في: **الثورة التونسية القادح المحلي تحت مجهر العلوم الإنسانية**، إشراف: المولدي الأحمر، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 246.

24 – يمكن للقارئ العودة إلى حمادي التيزاوي، المرجع السابق.

تسـببت في هـذا الوضع[25]:

- تراجـع مسـاحات المسـتغلات: فعـلى مسـتوى الوسـط الغربـي جـرى تسـجيل تراجع بـ 25،000 هكتـار بـين عامـي 1995 و2005.
- تواصل تشتت الملكية العقارية.
- تواصل ارتفاع أسعار المداخلات الزراعية مع برنامج إعادة الهيكلة الاقتصادي القطاعي.
- تراجع بعض الموارد الطبيعية للجهة.
- عـدم تطـور أسـعار المـواد الزراعية الأكثر حضـورا في الجهة بالتـوازي مع ارتفـاع تكاليف الإنتاج.

وهكـذا لم تعـد الزراعة التّـي هي من الخصائـص التاريخيـة لإقليم الوسـط الغربي توفر وتؤمـن الحيـاة الكريمة. فباسـتثناء الذين يملكـون الأرض والإمكانـات الماليـة لخدمتها، فإنّ بقيّـة السـكان يعانون الخصاصـة. وحتى بالنسـبة إلى ملاكي الأرض في سـيدي بوزيد، ووفقا للتيمومي» فهـم يشـكون من مشـاكل عـدّة: تعقّد الإجـراءات الإدارية وطـول مدتها للحصول عـلى عقـود ملكيـة تامـة الشروط، لأنـه مـن دون تلك العقـود، لا يسـتطيع الفـلاح الاقتراض مـن البنوك. ويطالب السـكان الدولـة بتمكينهم من مقاسـم صغيرة مـن أراضي الدولة، بينما تـصرّ هي عـلى تأجيرها في شـكل قطع كبـيرة المسـاحة للمسـتثمرين من أصحـاب الإمكانات الماليـة، سـواء كانوا تونسـيّين أم أجانب. وإذا كان مشـكل الأرض مهما، فـإنّ الأهم في المناطق السـقوية بولايـة سـيدي بوزيـد هو امتـلاك المال الـكافي لخدمـة الأرض، كحفر الآبـار وشراء البـذور والأسـمدة والمحروقـات والأعلاف ودفـع فاتـورة الكهرباء المسـتعملة لتشـغيل الآبار السـطحيّة، وكذلـك تلقيـح الحيوانـات، ودفـع الضرائـب، وهذه نفقـات ما انفكـت ترتفع في السـنوات الأخـيرة من حكم بـن علي»[26].

25 – المرجع نفسه، ص 248.

26 – الهادي التيمومي، **موسوعة «الربيع العربي» في تونس 2010-2020. الجزء الأول 2011 سنة كلّ المخاطر** (صفاقس: دار محمد علي للنشر، 2019)، ص 43.

إنّ حـال سـيدي بوزيـد والصعوبـات التّي تتعـرض لها لا يختلـف عن حـال القصرين أو القـيروان، أو حتّـى كلّ الجهات الداخلية تقريبـا. وهذه الصعوبات ستشـكّل بالضرورة مناخا طـاردا خاصّة للشـباب وفئة الذكـور وتصبح التجـارة غـير المهيكلة في تونـس العاصمة أحد الحلول الممكنـة لتوفير الحيـاة الكريمة.

2- الحضارة الصناعية خارج ربوع سيدي بوزيد والقصرين

إنّ تواجـد المؤسسـات الصناعيـة بسـيدي بوزيـد والقصريـن كان ضعيفا جـدّا، وقدرتها التنمويـة والتشـغيليّة كانت الأقـل في البلاد، الأمر الـذي يُمكننا من الجزم بـأنّ هاتين الولايتين همـا مـن أقـلّ الأمكنـة تصنيعـا في تونـس [27]. ففـي سـنة 2010 كانـت «في هاتـين الولايتين مجتمعتـين 125 مؤسسـة صناعيـة، أي 2،1% فقـط مـن مجمـوع المؤسسـات الصناعيـة في البـلاد. وكانـت هـذه المؤسسـات تُشـغّل 7897 أجـيرا في التاريـخ نفسـه، أي 1،66% من المشـتغلين في القطـاع العـصري في البلاد»[28]. وعـلى غـرار ضعـف النسـيج الصناعـي، فـإنّ التصنيع يشـكو عـدم التنوّع، فجلّ المؤسسـات تعمل في قطاع النسـيج والملابـس والصناعات الغذائيـة ومواد البنـاء والخزف والبلـور. وإذا كان القطاعان الأخيران قديمـي العهد تقريبا في مـدن الولايتـين، فـإنّ قطاع النسـيج، خصوصا قطاع الملابس لـم يبرز إلاّ في الأعـوام الأخيرة[29].

إنّ شـبه غيـاب المؤسسـات الصناعيـة بسـيدي بوزيـد والقصريـن، الـذي عزّز الشـعور بالمظلوميـة سيؤسـس إلى ارتفـاع حالات اليـأس والإحباط لشـباب الجهتين وسـكانهما. وهذا الأمر سـيكون بالـضرورة محفـزا للهجـرة الداخلية باعتبـار أنّ أغلـب المؤسسـات الصناعية تتمركـز بالشريـط السـاحلي أو في تونس الكبرى ومناطقهـا الصناعية (بن عـروس، الشرقية، إلـخ). كمـا أنّنا نجد، «من جملة 125 مؤسسـة بالولايتين، 12 مؤسسـة صناعية فقط يُسـاهم في رأس مالهـا مسـتثمرون أجانب، وتشـغّل 1400 عامـل، ويعود تراجع المسـتثمرين الأجانب في هذيـن المنطقتـين لعـدم تشـجيهم من قبـل الدولة أولا، ثـمّ لمحدوديـة المـوارد في الولايتين.

27 – حمادي التيزاوي،المرجع السابق، ص 231.

28 – المرجع نفسه، ص 231.

29 – المرجع نفسه، ص 231، 232.

ولـئن كان الحضـور الأجنبـي ضعيفا في سـيدي بوزيد والقصريـن، إلاّ أنّ المؤسسـات الأجنبية تُمثّـل على المسـتوى الوطني 47% مـن مجموع المؤسسـات الصناعية العاملـة في عام 2010، وهـي تشـغل 64% مـن العاملـين في الصناعـة، وتتمركـز في مجملهـا في القطـب الاقتصادي الكبـير لتونس العاصمة، وشـعاعه مـن المدن الصغيرة والمتوسـطة القريبـة، وكذلك في منطقة السـاحل التونسي (سوسـة- المنسـتير وثانويا المهديـة)»[30]. وهكذا فـإنّ المقاربـة النيوليبرالية التّـي اتخذتهـا الدولـة زمن الهـادي نويـرة، والتّي توسّـعت فيهـا الإصلاحات الهيكلية سـنة 1986 لـم تنتـصر للمناطـق الداخليـة، وكأنّهـا قامـت بشـطب هـذه المناطق مـن الخريطة التنموية للدولة التونسـية.

3- تهميش الثقافة في الوسط الغربي

إنّ الانتفاضـة الشـعبية التـي انطلقـت مـن الوسـط الغربـي وتحديـدا من مدينة سـيدي بوزيـد في 17 ديسـمبر 2010 كانـت، بالأسـاس ومنذ اندلاعهـا، حركة شـعبية ذات مضامين اجتماعيـة لتنتهـي بشـعارات سياسـية أسـقطت السـلطة الاسـتبدادية. ولكـن الشـعارات المرفوعـة من «شـغل حريّة كرامة وطنية» أو «التشـغيل اسـتحقاق يا عصابـة السّراق» تترجم مسـألة الكرامـة التي اعتـبر المحتجون أنّها اسـتبيحت وأنّهـم عازمون على اسـترجاعها وهذه الكرامـة لا تنحـصر في الشـغل والسـكن والأمـن الغذائـي، بـل تتعدى ذلـك كلّـه إلى المقوّمات الثقافيـة الحديثـة للحيـاة الكريمـة [31]. إنّ الإحسـاس بالحقـرة والتهميـش لا ينبـع فقط من السـياقات الاقتصاديـة المأزومة، فإذا ظلّت المضامـين الاقتصادية والاجتماعيـة غالبا في طليعة أغلـب التحـركات الاحتجاجيـة، فإنّ هـذا لا يجرنا بالقـول إنّ الأزمة الاقتصاديـة والاجتماعية وحدهـا هي التّـي تُيسر تنامـي الشـعور بالحقرة.

لقـد بـيّن أحمـد خواجة في دراسـته حول الممارسـات الثقافيـة ودورها في انـدلاع الثورة في ولاتي سـيدي بوزيـد والقصريـن أنّ «76% من المسـتجوبين عـبّروا عن عدم رضاهـم المطلق في شـأن الخدمـات الثقافية التّـي توفرها المؤسسـات الثقافيـة في جهاتهم (المكتبـة العمومية،

30 - المرجع نفسه، ص 232، 233.

31 - أحمد خواجة، المرجع السابق، ص 186.

نـادي الشـباب، دار الثقافـة، الجمعيـات الثقافيـة، المهرجانـات الـخ). ويُشـير هـذا إلى حالة البـؤس الثقـافي ووضعية التهميـش اللتين كانـت المنطقة تعانيهمـا في هذا المجـال، على الرغم مـن توافـر كثـير مـن النخـب الثقافيـة المحليّة، وتمتـع الجهـة بإمكانـات اسـتثمار حقيقية للمخـزون الثقافي المـادي وغير المـادي في التنميـة الاجتماعيـة والثقافية»[32].

إنّ ضعـف بنيـة المؤسسـات الثقافيـة مثـل السـينما والمـسرح ودار الشـباب والمركبـات الثقافيـة والرياضيـة والمكتبـات العموميـة يُولـد شـعورا بالغبـن والحقرة. فغيـاب المقومات السوسـيو-ثقافية وخاصّـة في الأريـاف في سـياق الأزمة الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسـية وفي سـياق يمكـن للمـرء من خلالـه مشـاهدة كلّ الأخبـار والتحـولات العالميـة والوطنية عن طريـق شـبكات الاتصـال الحديثـة كلّهـا عوامل تحفّـز تصاعد وتـيرة الاحتجاجـات وتنامي مخـزون الهجرات.

iii- ما بعد سنة 2011: استمرارية ديناميكية التهميش

1- القصرين

لعبـت القصريـن «مدينـة الشـهداء» دورا محوريـا في الحـراك الثوري أواخر سـنة 2010 مطلـع سـنة 2011، فقـد شـكّلت الحاضنـة الثانية للثـورة من ناحيـة وفككـت الحصار عن سـيدي بوزيـد مـن ناحيـة أخرى. ولكـن ما الـذي تغـيّر في القصرين بعـد عـام 2011؟ وفي الحقيقـة لـم تتغيّر القصريـن وكذلك سـيدي بوزيد نحو الأفضـل بعد الثورة، حيث اسـتمرت الهشاشـة والعطـب. ففـي ولايـة القصرين وعـلى الرغم مـن ارتفاع نسـب التعليـم في تونس، إلاّ أنّـه لا يـزال، إلى حـدود سـنة 2015، أكثر من « ثلث سـكانها يـرزح تحت الأميـة، ولا زال الانقطـاع المبكـر عن التعليم يعصف بنصفهم مسـجلا نسـبة هـي الأعلى في البـلاد. وعلى ذلك فنصـف سـكان القصرين غـير عاملـين، بينما ينـدرج عمل 20% ممـن يعمل منهـم في إطار غـير مرخـص به، كمـا أنّ قرابـة ثلثـي السـكان لا يتمتعـون بنظـام التأمينـات الاجتماعية، وأغلبهـم غير راض عن الخدمـات الصحية والتعليميـة والإدارية في الولايـة. والقطاع العام هو

32 – المرجع نفسه، ص 187.

المشـغّل الأضعـف في القصريـن، وهو ما يعكس اسـتمرار غيـاب بدائل اجتماعيـة واقتصادية تنمويـة عموميـة يمكنها أن تقطع مـع وضعية الفقـر والتهميش للسـكان» [33] .

إنّ الحكومـات المتعاقبـة من بعد سـنة 2011 لـم تغيّر مـن المقاربات الاقتصاديـة التابعة والمتخلّفـة، فقـد حافظـت على هـذه النماذج التّـي لا يمكنها أن تقطـع مع الأزمـة الاقتصادية والاجتماعيـة، وهكـذا ظلّـت مناطـق انـدلاع الثـورة دون ثـورة، بـل في سـياق المقاربـات الاقتصاديـة المختلّفـة والمديونيـة المجحفة تعمّقـت الأزمـة الاجتماعية، وصار الاسـتثمار أحد عنوانـين اللاعدالـة الاجتماعيـة مثلما حـدث في عديد الأريـاف والقرى والضيعـات منها ضيعة الاعتـزاز 3 مثالا.

2- استنزاف الأرض: ضيعة الاعتزاز 3 بسيدي بوزيد كمثال

تقـع ضيعـة الاعتـزاز 3 بمنطقـة منزل بوزيـان أحـد معتمديات ولاية سـيدي بوزيد، وتُعـدّ هـذه الضيعة مثـالا حيّا على أسـاليب اسـتنزاف المـوارد الطبيعية من مـاء وأرض، من خـلال اسـتغلال الأراضي الفلاحيّـة الدوْليّة من منظومـة شركات الإحياء والتنميـة الفلاحية [34]. ووفقـا لعمـل مجموعـة العمل من أجـل السـيادة الغذائية، فـإنّ: « شركـة الإحيـاء والتنمية الفلاحيـة بالاعتـزاز 3 تمثّل شـهادة حيّـة على عدم شـفافية صفقات إسـناد الأراضي الفلاحية الدوليـة. ومنـذ سـنة 2018 تقريبـا دخلت هـذه الضيعـة التّي تمسـح قرابـة 1200 هكتار مرحلـة الإعداد لبـدء تنفيذ المخطط الاسـتثماري تحت إشراف المسـتثمر الجديـد. ويقضي هذا المـشروع بغراسـة 660.000 زيتونة على مسـاحة 440 هكتـار، في أفق تحقيـق هدف مليون شـجرة زيتـون، إضافـة إلى بنـاء معـصرة ومعمـل تعليـب على هـذه الضيعـة وذلـك بمبلغ اسـتثماري يبلـغ حجمه 18 مليـون دينار»[35].

كمـا عـزم المسـتثمر الجديـد عـلى حفر 5 آبـار عميقـة وتهيئتهـا للاسـتفادة مـن المائدة

33 – ألفة للوم، «أسئلة الثورة التونسية: عينة القصرين»، السفير العربي، 21/01/2016. الموقع : assafirarabi.com .

34 – وسيم العبيدي، ليلي الرّياحي، **غذاؤنا، فلاحتنا، سيادتنا. تحليل للسياسات الفلاحية التونسية على ضوء مفهوم السيادة الغذائية** (تونس: مجموعة العمل من أجل السيادة الغذائية، 2019)، ص 70، 71.

35 – المرجع نفسه، ص 71.

المائيــة الجوفيــة. وذلك بهــدف توجيهها نحــو الحاجيات الكبيرة مــن الماء لغراســات الزيتون التــي قررّهــا. وهذا ما يطــرح جدلا مفاده أنّ غراســة الزياتــين في تونس هي بعلية بالأســاس وليســت في حاجــة إلى هــذا القــدر الخيــالي مــن ميــاه الــري. كمــا يتجه هــذا المــشروع نحو المكننــة المتطــورة التّــي ســتقلص ضرورة من احتياجــات اليد العاملــة الفلاحية، إذا ســتمكّن شركــة الإحيــاء والتنميــة الفلاحية «الاعتــزاز 3» مــن خلق 112 موطن شــغل قــارّا، منها 16 إطــارا و96 عامــلا فلاحيا [36].

إنّ هــذا التوجــه يتطابــق مع الطابــع العنصري للرأســمالية التّــي تســتنزف الأرض والماء، وتفكّــر فقــط في إنتــاج القيمــة المضافة على حســاب الإنســان، وتنتــج بذلك سياســات التراكم البدائــي. فاتجــاه المســتثمر نحــو غراســة أصنــاف مــن الزياتــين المســتوردة مــن (إيطاليا، اليونــان، إســبانيا) إضافــة إلى اســتنزاف المــوارد المائية والاســتنزاف الــذي ســيلحق التربة... مــا هــو إلاّ مــشروع يهدف أساســا إلى مزيد دعم الصــادرات التونســية من زيــت الزيتون...[37] وفي هــذا الســياق تأتي المفارقــة العجيبة حيث أعلنــت وزارة الفلاحــة والموارد المائيــة والصيد البحــري عن تســجيل تطور في زيت الزيتون بنســبة 150% لجهة الكميّــة و180% للمداخيل منــذ بدايــة موســم التصديــر في ســياق لــم يتمكن فيــه أغلب التونســيين مــن الاســتفادة من هــذه المــادّة الغذائية الأساســية نظــرا لارتفاع أســعارها في الســوق المحليّة (10 دينــارات للتر الواحد)[38].

3- حينما يُغلق «الملاذ الأخير[39]» بابه في وجه المنسيين

ظــلّ التعويــل على وســائل بدائيــة حيوانيــة كالأحمــرة والبغــال في جلب الســلع متواصلا بالنســبة للمســتوى البدائــي القائــم عــلى الاقتصــاد المعــاشي، ويقــوم بهــذا النشــاط بعــض

36 – المرجع نفسه، ص 71.

37 – غسان بن خليفة، الفلاحة التصديريّة تقوّض السيادة الغذائية وتحاصر صغار الفلاحين في تونس والمغرب. ملخص لبحثيْ مجموعة العمل من أجل السيادة الغذائية تونس وجمعية «أطاك» المغرب، مراجعة: حمزة حموشان، (منظمة الحرب على العوز، 2019)، ص 15.

38 – المرجع نفسه، ص 15.

39 – نعني بالملاذ الأخير: الكنترا أو التهريب أو التجارة الحدودية.

الأهـالي المقيمـين عـلى الحدود أفـرادا أو عائـلات ويتميّز هـذا المسـتوى بالمحدوديـة في الزمن والانتشـار الجغـرافي وفي بسـاطة الممارسـة والبضاعـة المهربـة مثـل منتوجات غذائيـة وتبغ وبعـض الحاجيـات العائليـة الأساسـية مثـل الأغطيـة المسـتوردة أو الملابس والتـي يتولون لاحقـا ترويجها في الأسـواق الأسـبوعية المحلية (داخل الجهـة)، وهؤلاء الأهـالي لا يطلق عليهم في لمنطقـة صفـة المهربـين أو الكناتريّـة بـل يعتبرونهم مجـرد تجار[40].

وفي المقابـل « نجـد مسـتوى آخـر متطورا ويتأسـس نتيجـة مراكمـة المرابيـح أو نتيجة عمليـة نوعيـة في المسـتوى الآنـف الذكـر، حيـث يوفـر لهـم رأس مالهم سـواء كانـوا أفرادا أو عائـلات اقتنـاء محـل باعتبـاره «واجهـة تمويه» يكـون متخصصـا في نوع مـن البضائع المهربـة مثـل قطـاع الغيـار، واقتنـاء شـاحنة رباعيـة الدفع سـواء برأسـمال خـاص أو عبر شركات الإيجـار المـالي Leasing ، وفي هـذا المسـتوى تصبـح البضائع أكثر تنوعـا وأرفع قيمة مثـل قطاع غيـار السـيارات والمشروبـات الكحوليـة والتجهيـزات الالكترونية المنزليـة ويمتد ترويجهـا عـلى كامـل تـراب الجمهورية ويوفـر القائمـون على هذا النشـاط بعـض المخازن. أمـا المسـتوى العـالي فيتمثـل في تشـكل شـبكات التهريـب والتـي تخـص كبـار المهربين أو تحالفـا بـين مجموعات المهربين من المسـتوى الأوسـط تربـط بينهم علاقة دمويـة وينتظمون في شـبكات معقـدة وشـديدة التنظيـم ترتبـط أحيانـا بشـبكات دوليـة لهـا رهانـات عابرة للأقطار، وتسـتعمل وسـائل وتقنيـات شـديدة التطور»[41].

يُعتـبر النشـاط التجـاري غـير المهيكل عـبر الحـدود التونسـية الجزائريـة أو مـا يُعرف بالتهريـب أو «الكنـترا» أحد النشـاطات الاقتصاديـة الجوهرية خاصّة بجهـة القصرين، فهي ممارسـة اقتصاديـة قائمـة عـلى مشروعية تاريخيـة وخصوصيـة جغرافية حدوديـة أهلتها لتكـون «حاضنـة» للأنشـطة الموازيـة» وقائمة أيضا عـلى قيم قبليـة وعلاقات الـدم والقرابة وهي شـبكات معقـدة ومنظمة لهـا مكوناتها وطقوسـها [42].

40 – محمد فوزي سعداوي، المرجع السابق، ص 103.

41 – المرجع نفسه، ص 103.

42 – هنا لا بد من التمييز بين التهريب والإرهاب، وبين شبكات تهرب البضائع والبشر الخ.

إنّ كثافة السيارات والشاحنات رباعية الدفع في سيدي بوزيد والقصرين يؤكد استمرارية الثقافة التجارية غير المهيكلة واعتبارها شكلا من أشكال المقاومة لتلبية الحاجيات الاجتماعية وذلك في سياق توسعت فيه خارطة الفقراءِ بالجهة، «فيقدّر مثلا عدد شاحنات الايسوزو ISUZU خلال السنوات الأخيرة بجهة القصرين والتي يطلق عليها في الجهة تسمية «هيفاء» نسبة للفنانة المصرية، حوالي 3500 شاحنة»[43].

وبذلك أصبحت «الكنترا» الملاذ الأخير للعيش والاسترزاق لفئات عديدة من جهة القصرين. لكنّ هذا الملاذ قد أضحى صعب المنال، وشديد الخطورة لمن هم الأكثر تهميشا وفقرا، «بفعل الحاجز الذي أقامته الجزائر على جانبها من الحدود، وأيضا لتدهور الوضع الأمني بعد سنة 2011، وما رافق ذلك من استحكام المقاربة الأمنية وحدها في مواجهة المجموعات الجهادية المسلحة، دون استناد إلى معالجة شاملة للوضع تقوم على إشراك المواطنين في القرار المتعلق بالأمن والحدود يأخذ بالاعتبار مطالبهم وأولوياتهم»[44].

لذلك أصبح الأباطرة وكبار المهربين فقط هم المستفيدون، وصارت الفئات الضعيفة والهشّة التّي تجلب بعض البضائع عن طريق الحيوانات أو حتّى العديد من أصحاب السيارات رباعية الدفع غير قادرة على تلبية حاجياتها اليومية عن طريق الكنترا، ليتحوّل الملاذ الأخير إلى جحيم، وتصبح المشاريع الهجرية غير النظامية أو التوجه نحو العمل غير المهيكل في تونس العاصمة، هي البديل.

iv- حينما تساهم متانة الشبكات الاجتماعية المحليّة في اتخاذ القرار الهجري

رغم نجاح السلطة السياسية في فرض ضريبة المجبى سنة 1856 والذي يهدف إلى «تعميم ضريبة «الإعانة» على كافة الأهالي، باستثناء تونس وبنزرت وسوسة والقيروان

43 – محمد فوزي السعداوي، المرجع السابق، ص 104.

44 – ألفة لملوم، المرجع السابق.

وصفاقس، والمقصود بالدرجة الأولى هي القبائل شبه المتنقلة في الوسط والجنوب التي ظلّت إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر لا تطولها يد الدولة إلاّ بالقدر الذي يسمح به أعيانها المتحالفون مع السلطة المركزية»[45]، وبالتالي **فردنة المجتمع** كما يقول عبد الحميد هنيّة، والتحوّل من سلطة تمارَس على جموع، إلى سلطة تُمارَس على جمع أفراد. ورغم أنّ الاستعمار عمل على تحطيم التوازنات القديمة من أجل «التسرّب في خلايا النسيج المحلّي»[46]. وكما أصّرت دولة الاستقلال على تفكيك البنية القبلية من خلال نبذها في خطاباتها وعن طريق المدرسة والتدريس إلاّ أنّ هذه العوامل التّي ذكرناها بايجاز في سياقات انخرطت فيها البلاد التونسية والاقتصاد الفلاحي بالأساس في دائرة التبعية للرأسمالية العالمية ما بعد دولة الاستقلال، قد ساهمت في القضاء على المرتكزات المادية والعسكرية والسياسية للبنية القبلية. إلاّ أنّها لم تحطّم تماما آليات التضامن القديمة أو مرفولوجية الحي والحومة. «فالذهنية الريفية كانت محددة في عملية امتلاك الفضاء والاستحواذ عليه، فالأحياء السكانية التي انتشرت حول النواة الحضرية الأولى للمدينة (سيدي بوزيد) كانت تحمل بعض أسماء العروش (حي أولاد بلهادي، حي البراهمية، حي أولاد شلبي... كما أنّ بنية المساكن في هذه الأحياء تُعيد إنتاج البنية التقليدية للمساكن الريفية، كالدوار والبيت الريفي البدوي بإسطبله ودوابه وحيواناته ومواده الفلاحية وقربه من المستغلة الفلاحية»[47].

إنّ حضور الحميميات وقوّة وصلابة شبكات الحي والجيران والقرابة والزمالة ومتانة العائلة في سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي عصفت بمناطق الوسط الغربي كانت أحد أبرز عوامل الطرد. كما تكون متانة العلاقات الدموية حافزا نحو القرارات الهجرية. ورغم أنّ المشرّع التونسي يقف ضدّ ما نشاهده بصفة يومية حول الاستيلاء على الفضاء

45 – عبد الحميد هنيّة، **تونس العثمانية بناء الدولة والمجال** (تونس: منشورات أوتار، تبر الزمان، الطبعة الثانية ،2016)، ص 222.

46 – Lilia Ben Salem, «*Les transformations actuelles des sociétés rurales du maghreb*», Introduction, Actes du colloque organisé en avril 1993, série 7, volume 5,(Tunis : Faculté des sciences humaines et sociales de Tunis, 1996), p 11. (Trad. Arabe, Nagib Boutaleb).

47 – أحمد خواجة، المرجع السابق، ص 197.

العــام والرصيــف، إلاّ أنّ الفئــات المحرومة والتّي تتميّــز بحميميتها وروابطهــا الدموية القويّة قــرّرت الســير نحــو العمــل التجــاري غــير المهيــكل في تونــس العاصمــة بــصرف النظر عن عقــاب الحكومة.

خاتمة

بعد تقديمنا لقراءة سوسيو-تاريخية وجيزة للبنية الاقتصادية بالوسط الغربي وتحديدا مدينتي سيدي بوزيد والقصرين والعوامل الطاردة بالمنطقتين، نخلص إلى الاستنتاجات التّالية:

- إنّ هشاشة البنية الاقتصادية بمدينتي سيدي بوزيد والقصرين هي نتاج سيرورة تاريخية ومقاربات نيوليبرالية مشوّهة اتسمت بالمظلومية، ما أدى إلى شعور الساكنة بالحقرة والدونية، فقد خلت القرارات الفوقية للدّولة كانت قبل سنة 2011 أو بعدها من الإصلاحات الراديكالية، والعميقة، والسوسيولوجية، والمتسّقة.

- إنّ عدم التوزان بين الجهات قبل سنة 2011 في بعث المشاريع التنموية، إذ غابت الصناعة في ربوع سيدي بوزيد والقصرين في سياق لا تحظى فيه الولايتين بالمقومات الثقافية من مكتبات ومسارح ونوادي سينما الخ وفي سياق تعمّقت فيه البطالة وتوسّعت فيه الأميّة كانت أحد أبرز عوامل الطرد.

- إنّ اعتماد براديغم إعادة إنتاج التفقير من قبل الحكومات ما بعد سنة 2011 ، فقد تعرّضت الموارد الطبيعية من أرض وماء إلى مزيد من الاستنزاف، وصارت التجارة الحدودية باعتبارها الملاذ الأخير للفقراء لا تلبي الحاجيات الاجتماعية والاقتصادية للفئات الهشّة والضعيفة عاملا أساسيا في ارتفاع منسوب الإحباط يدفع بالشباب والعديد من الفئات المسحوقة إلى الالتجاء إلى قوارب الموت أو للعمل بطريقة غير مهيكلة في المجال التجاري بتونس العاصمة.

- إنّ متانة الشبكات الاجتماعية المحلية مثل شبكات الحيّ والقرابة والزمالة والجيران كانت أحد محفزات اتخاذ القرار بالعمل الجماعي وغير المهيكل بنهج إسبانيا أو بأنهج أخرى.

إنّ الانتصاب غير المهيكل في نهج إسبانيا والذي يعود غالبية تجاره إلى منطقة سبيبة من ولاية القصرين يعود إلى ثلاثة عوامل أساسية على الأقل:

- سردية الألم واستمرارية ديناميكية التهميش واستنزاف الريف بمنطقتهم عبر التاريخ.

- حضور الثقافة التجارية الحدودية وغير المهيكلة التّي لا تعترف بالحدود وبالقانون وتؤمن بالحرية في ذاكرتهم الجماعية، وهذه الثقافة التاريخية تكون دافعا للعمل غير المهيكل وتحدّي القانون والمشرّع التونسي بصرف النظر عن عقاب الحكومة.

- استمرارية الحميميات وقوّة الصلات بينهم يحفّز اتخاذ القرار بالعمل بشكل غير مهيكل ●

بيبليوغرافيا مختارة

كتب باللغة العربية

التيمومـي، الهـادي. **انتفاضـات الفلاّحـين في تاريـخ تونـس المعـاصر. مثـال 1906**. تونـس: المجمـع التونـسي للعلـوم والآداب والفنـون بيـت الحكمـة، قرطـاج، 1993.

الدّقـي، نور الدين. **تونـس من الإيالة إلى الجمهوريـة 1814-2014**. منوبة: المنشـورات الجامعية بمنوبة بالاشـتراك مع المعهـد العالي لتاريخ تونـس المعاصر، 2016.

بـن جمعـة إبراهيم، بلقاسـم. **الاقتصاد والمجتمع في الإيالة التونسـية مـن 1861 إلى 1864**. (من خـلال محـاضر محاكـم الجنايات والأحـكام العرفيـة). تونـس: كليّة العلـوم الإنسـانية والاجتماعية بتونس، جامعـة تونس، 2002.

بوطالـب، محمـد نجيـب. **سوسـيولوجيا القبيلـة في المغـرب العربـي**. بـيروت: مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، (سلسـلة أطروحـات الدكتـوراه: 41)، 2002).

هنيّـة، عبـد الحميـد. **تونـس العثمانيـة بنـاء الدولـة والمجـال**. تونـس: منشـورات أوتـار، تـبر الزمـان، الطبعـة الثانيـة ،2016.

العبيـدي، وسـيم، الرّياحـي، ليـلى. **غذاؤنـا، فلاحتنـا، سـيادتنا. تحليـل للسياسـات الفلاحية التونسـية عـلى ضـوء مفهـوم السـيادة الغذائيـة**. تونـس: مجموعـة العمل مـن أجل السـيادة الغذائيـة، 2019.

مقالات باللغة العربية

سـعداوي، محمـد فـوزي. «**التقاطـع الملتبـس بـين التهريـب والإرهاب عـلى الحـدود الغربية للبـلاد التونسـية**»، في: الإرهـاب والتهريب في تونس. دراسـات في الوضعية الراهنـة، إشراف وتقديم: عمـيرة عليّـه الصغـيّر، المعهد العـالي لتاريـخ تونس المعـاصر، جامعة منوبـة، 2017.

التيـزاوي، حمادي.«**الحساسـية الاجتماعيـة المفرطة لاقتصـاد محلّي هشّ وغـير مهيكل**»، في: الثـورة التونسـية القـادح المحـلي تحـت مجهـر العلـوم الإنسـانية، إشراف: المولدي الأحمـر، بيروت: المركـز العربي للأبحاث ودراسـة السياسـات، 2014.

5

المحور الخامس

نهج إسبانيا والانتصاب الشارعي: الاقتصاد السياسي والأخلاقي للديناميات الجماعية بين العمل المربح والتمثيل النقابي

الكلمات المفاتيح : العمل، الوشائج الأولية، العمل النقابي، اقتصاد سياسي، اقتصاد أخلاقي، علم الاجتماع السياسي للعمل، الأنثربولوجيا الاقتصادية، المشروعية.

مقدمة

عرفت أنهج العاصمة المحيطة بنهج إسبانيا حملات أمنية مشددة طيلة السنوات التي تلت انتفاضة شتاء 2011-2010، استهدفت ما تصنفه السلط العمومية انتصابا فوضويا. فعلى سبيل المثال، كانت الحملة التي قادتها ولاية تونس تحت إمرة عمر منصور في سنة 2017 دليلا على تلك النزاعات التي تحركها تصورات متباينة ومتموضعة اجتماعياً من أجل تصنيف النشاط التجاري على قارعة الطريق وتأطيره مهنياً. فبعد أن اتّفقت نقابة التجار المستقلين وولاية تونس حول تهيئة مجالات من أجل ممارسة هذه التجارة مع مراعاة نواميس الجمالية والتنظيم الحضريين، لم تقدر الولاية على الإيفاء بتعهداتها واستنهضت القوة العامة من أجل إخلاء نهج إسبانيا وجواره من الباعة المتجولين. هذا الاتفاق يتضمن السماح للتجار بممارسة نشاطهم في نهج إسبانيا وتخومه إلى حين إعداد 3 مجالات معدة لهذا النشاط، وهي المنجي سليم 1، والمنجي سليم 2 وسيدي البشير. وقد أثار هذا القرار القمعي حفيظة المعنيين بالأمر ونقابتهم، إذ احتجت الأخيرة على هذا القرار، محاولةً رفع الوصم عن منظوريها والدفاع عن ظروف عملهم. في حقيقة الأمر، يعد هذا النشاط في تونس العاصمة إشكالاً عمومياً معقداً تم بناؤه طيلة السنوات الماضية منذ الأشهر الأولى التي تلت الثورة، بل وحتى قبل ذلك. ففي سنة 2008، عرف سوق المنصف باي حريقاً كان نقطة تحول له، إذ تسبب في تغيير أماكن التجار وتثبيتهم في عقار جديد. كما كان هذا السوق موضوع صراع مع السلطة تحت نظام بن علي و تحديداً في سنة 2007 بين التجار المختصين في بيع الأجهزة المنزلية والنظارات الشمسية وغيرها من البضائع من جهة، ومنظمة الأعراف من جهة أخرى. فقد تم بيع العقار الكائن بنهج عبد الرزاق الشرايبي الذي كان ملكاً لبلدية

تونس للاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية الذي كان يرأسه الهادي الجيلاني آنذاك[1]. وإثر قرار الأخير ببيع العقار الذي كان يمارس فيه الباعة أنشطتهم، انتفض هؤلاء وطالبوا بالإبقاء على مورد رزقهم، مستندين في ذلك إلى اتفاقهم القديم مع بلدية تونس، ونجحوا في فرض اتفاق جديد مع اتحاد الأعراف. أما عن تجار نهج إسبانيا، فقد خاض جزء كبيرٌ منهم صراعات متواترة، تتراوح أزمنتها بين الروتيني اليومي والنقابي المأسس، من أجل تحسين ظروف عملهم وضمان تواجدهم العمومي بصفتهم منتصبين. وتم إنشاء نقابة للتجار المستقلين منذ سنة 2011 باعتبارها منظمةً تدافع عن المصالح المادية لهؤلاء التجار وتسعى لإعادة تكييف عملهم رمزياً واقتلاع الاعتراف به باعتباره عملا كريما وغير مارق عن القانون.

وسنتعرض في هذا المحور إلى نشاط التجارة على قارعة الطريق في نهج إسبانيا باعتباره نشاطاً مهنياً. وبالتالي، فإن موضوع الدرس في هذه الورقة هو الديناميات الجماعية، المهنية وغير المهنية، التي تخترق مجموعات التجار بصفتهم تلك. ففي حين تذهب البعض من نصوص هذا المؤلف إلى تاريخ هذا النشاط و تثبيته التدريجي في نهج إسبانيا ومحيطه، وتذهب أخرى إلى دراسته بالتركيز على المنتصب بإعتباره فرداً منغرساً في موقع إجتماعي ومستبطنٍ لأنماط اجتماعية وجندرية محددة، يركز هذا العمل على الوجود الجماعي لمبحوثي هذا المؤلف. ونتناول في هذا النص تحليل مختلف ديناميات التناقض والتضامن في ما سنعتبره قطاعاً بمختلف معاني الكلمة الاقتصادية والمهنية والهووية، وذلك على ضوء الزمن (ما بعد) الثوري وما انتجه من فرصة للتنظم الجماعي والاحتجاج. لكننا نحلل ذلك دون أن نتجاهل تاريخية ما يسمى بالتجارة الموازية باعتبارها نشاطاً اقتصادياً مربحاً و شكلاً من أشكال مقاومة الحيف الاجتماعي على حد السواء، وتجذرها في الشبكة الدولية لمسالك تدفق السلع وموقعها في التقسيم الدولي للعمل.

1 انظر هذا المقال الذي يتحدث عن توقيع عقود بيع لفائدة اتحاد الأعراف لعدد من العقارات البلدية من أجل إحداث محطات سيارات أجرة «لواج»: https://cutt.ly/cJCW6DX

المداخل المنهجية والنظرية وخطة المحور

سنحاول من خلال هذا المحور مساءلة التقسيمات المعتادة بين العمل المنظم والعمل اللامنظم[2]، وسننطلق من مسلمة تعتبر النشاط التجاري بنهج إسبانيا وغيره عملاً منظماً بأتم معنى الكلمة، له ديناميته الجماعية وأرضيته الاقتصادية وأبعاده الرمزية والهووية كغيره من الصنائع. فالاعتماد على علم اجتماع العمل يجعلنا نرى في هذا النشاط عملاً له مؤهلاته وبراعاته الخاصة، كما أنّ لأصحابه ظروف عيش ومصالح مادية ورمزية يدافعون عنها بالسبل التي يخولها السياق. كما سنباعد بيننا وبين الأحكام المسبقة التي لا ترى في تجار نهج إسبانيا سوى مجموعةٍ واحدةٍ متجانسة اجتماعياً، دون أيّ فوارق تشقها. فعلى العكس من ذلك، يعتبر هذا المجال المهني مجالاً مهيكلاً بتراتبية اجتماعية مركبة، رغم الصورة المنمطة التي التصقت به باعتباره اقتصاداً هشاً لـ «تدبير الرأس» فحسب. دون أن ننفي أن الهشاشة ميزة أساسية للعديد من الشبان الذين ينتصبون في نهج إسبانيا، إلا أنه من الإجحاف أن لا نرى كيف تعتبر التجارة «اللارسمية» هذه أفقاً للصعود الاجتماعي ونشاطاً متمثلاً رمزياً باعتباره عملاً مستقراً ومشروع حياة مهنية للعديد ممن اشتغل أقربائهم وأسلافهم بها. كما أن لهذا النشاط دينامياته الربحية التي تجعل منه نشاطاً مراكماً للثورة ويسعى من بين ما يسعى إليه إلى انتزاع الاعتراف به باعتباره سبيلاً مشروعاً للثراء. فهو بالتالي نشاط له أغنياؤه وله فقراؤه، له أعيانه وله صغاره ومهمشوه.

من جهة أخرى، سنسعى في هذا المحور إلى تناول مختلف أشكال الفعل الجماعي والاحتجاج التي عرفها هذا القطاع بمختلف مجموعاته باعتبارها محاولات لتثبيت اقتصاد أخلاقي جديد لعلاقة المنتصبين بمؤسسات الدولة. وسنتناول هذه المحاولات

2 هذه التقسيمات هي عادةً نتاج لتصنيف إداري ولبعض الخبراء، وهي عادةً ما تستبطن وصماً للتجارة «اللامنظمة» بإعتبارها نشاطاً خطيراً على المجتمع وعلى المستهلك. بخلاف تحاشينا البديهي لهذا الوصم، فنحن ننطلق من مسلمة مفادها أن هذا النشاط هو على عكس تسميته هذه منظم بنواميس وقواعد أخرى، و أن ما يميزه عن الأنشطة «الرسمية» هو اعتراف الدولة الرسمي بذلك.

باعتبارها منغرسة في إتيقا الرزق (éthique de subsistance)[3]، إذ تكتفي بطلب مجالات مجهزة من أجل تأطير ممارسة النشاط التجاري، أو تسعى إلى أن تدعهم الدولة وشأنهم ينظمون أنفسهم بأنفسهم، متملكين المجال العمومي من أجل كسب قوتهم. وهي في الحالتين مساع من أجل ضمان استمرارية رزقهم وتحييدها عن تدخلات السلطة عبر ذراعها الأمني، وذلك بإقامة اتفاقات جديدة معها. بالتالي، فإن مفهوم الاقتصاد الأخلاقي للمؤرخ البريطاني إدوارد بالمر طومسون (E.P. Thompson) سيكون مركزياً في هذا المقال، وسيوفر إطاراً نظرياً لتحليل تناقضات هذه المجموعات من التجار المستقلين مع الدولة ومؤسساتها [4].

وعلاوةً على ما سبق، نستعمل بالأنثروبولوجيا الاقتصادية والسياسية لمساءلة تشابك العلاقات والوشائج الأولية بعلاقات الإنتاج، دون أي حكم قيمي يستبطن ازدراءً لديناميات اجتماعية تنعت بـ«ماقبل الحديثة» في منحى تطوري. وسنرى كيف أن الانتماء المهني ليس مستقلاً تماماً عن علاقات القرابة ذات الطابع القبلي، وكيف أن هذه الأخيرة تساهم في هيكلة الصراعات من أجل تقاسم موارد المجال العام ومن أجل التمثيل المشروع للتجار. سنسعى إذن إلى إبراز ذلك مع الاستعانة بنظرة مقارنة بين نهج إسبانيا ومحيطه وغيره من مجالات التجارة «غير الرسمية» على غرار المنصف الباي، و دون إهمال مختلف أزمنة التوطن الاقتصادي وتاريخية بروز مطالب اجتماعية في هذا القطاع. سنعتمد في هذه الورقة على المعطيات المشتركة التي أُنتجت من أجل إنجاز هذا المؤلف الجماعي، أي المقابلات التي أُجريت مع الباعة، ناهيك عن الملاحظات الإثنوغرافية لنهج إسبانيا وتخومه.

3 يعود هذا المفهوم إلى عالم الأنتروبولوجيا الأناركي جايمس سكوت، إذ يحيل إلى ممارساتإقتصادية وقيم أخلاقية تتميز بالحذر من تقلبات الزمان قصد تحقيق القوت، وذلك في إطار دراسته لمزارعي جنوب شرق آسيا. أنظر :

James C. Scott. The moral economy of the peasant : Rebellion and subsistence in Southeast Asia, (New .(Haven :Yale University Press, 1976

4 نحيل هنا إلى مقال إدوارد بالمر ثومسون :

Edward Palmer Thompson. «*The moral economy of the English crowd in the eighteenth century*». Past & Present, 50(1), (1971), 76–136

لكننا سنعتمد كذلك على جملة من المعطيات التي تم جمعها من قبل كاتب هذه السطور شخصياً قبل أن ننطلق في هذا المشروع الجماعي. فقد أجرينا في سنة 2018 مقابلات مع البعض من فاعلي هذا القطاع كبعض باعة سوق المنصف باي وأحد أعضاء المكتب التنفيذي لنقابة التجار المستقلين، هذا فضلاً عن الملاحظات الشخصية. وسنتطرق في جزء أول إلى مسألة توطن التجارة على قارعة الطريق باعتبارها نشاطاً اقتصادياً، متقصين ديناميكياتها ومحددات خارطتها من وشائج أولية، ومحللين آثار ذلك في تشكل ما يمكن اعتباره هويةً مهنيةً مشتركة لها خصوصياتها السوسيوثقافية وأبعادها الرمزية. أمّا في جزء ثانٍ، سنتناول مسألة الفعل الجماعي لهذا القطاع، مستعملين في ذلك أدوات علم اجتماع الحركات الاجتماعية ومستأنسين بمفهوم الاقتصاد الأخلاقي لفهم ما يحفز تحركات التجار، وأشكالها، والفاعلين فيها والمتحدثين باسمها. وفي جزء ثالث وأخير، سنتطرق إلى مسألة مأسسة المطلبية النقابية لهذا القطاع، مقتفين أثر التناقضات التي تشقها ومهتمين بديناميات التفاوض وبعائدات العمل النقابي على التجار.

1- الانتصاب المنظم : في التوطين المادي والرمزي لهوية مهنية

يعود توطن نشاط التجارة على قارعة الطريق في أنهج العاصمة إلى التسعينات، حيث تزامن تعدد المنتصبين آنذاك مع توافد أعداد كبيرة من الرجال من جهات الوسط الغربي التونسي بحثاً عن القوت والعمل. وينتمي هؤلاء إلى مجموعات قبلية كبيرة من مدينتي السبيبة وجلمة المتجاورتين، رغم إلحاق الأخيرة بولاية تم احداثها إدارياً سنة 1973وهي سيدي بوزيد. فهؤلاء الذين سيصيرون باعةً منتصبين في أنهج تونس العاصمة هم أصيلو عرشي الغلايقية من أولاد خلفة، وهم يعتبرون أنفسهم منتمين لهذا العرش، وهو ما يجعل من الوشائج الأولية في حالتنا هذه عاملاً رمزياً هاماً للانتماء الجماعي. ففر إذن هؤلاء من الفقر الذي تميزت به الجهات الداخلية للبلاد، وبحثوا في ما يسمى بالتجارة الموازية عن أمل صعود اجتماعي لم توفره لهم الدولة ولا مؤسساتها المشروعة، إذ كانوا على هامش أسطورة المصعد الاجتماعي للمدرسة العمومية. و تتواتر الأجيال التي أخذت تعمل في مجال التجارة هذا، حتى صار الوافد الشاب الجديد من ذوي الثمانية عشر ربيعاً على أقصى تقدير يتعلم مهارات التجارة وأسرارها من أحد أبناء عمومته، واجداً

لديه ملجأً في مدينة كبيرة لا يفقه عن جغرافيّتها شيئا عند قدومه[5]. وهكذا يصير متدرباً على مهنة البيع والشراء، متّخذا له من بني عشيرته معلّما يمرّر له مهارات وكفاءات تختص بها مجموعة التجار باعتبارها مجتمعاً مهنياً متكاملاً. وبالتالي، يمكن القول إن تضامن أبناء العشيرة والقبيلة الواحدة المسنود رمزياً على انتماء الوشائج الأولية يحوّلهم إلى مجموعة تجمعها مصالح مادية وثقافة مهنية مشتركة. وبالتالي، تنتج عن انتشار علاقات القرابة في مجال العمل علاقات اجتماعية ومجموعات إنتاج جديدة.

وتؤكد المعطيات التي جمعناها من أجل هذا المؤلف قولنا هذا عن مدى تركيب التوطن التجاري بنهج إسبانيا واشتباكه بالوشائج الأولية، إذ أن 61% من التجار المبحوثين في هذا النهج هم أصيلو مدينتي جلمة والسبيبة. كما كانت تنشئة مجموع 59% منهم في هذين المدينتين، والأمر كذلك بالنسبة إلى مكان استقرار الوالدين. ويمكن الاستدلال على تشكل نوع من الثقافة المهنية الجماعية، أي باعتبار التجارة موضوع الحال مهنةً متمثلةً وليست مجرد عمل مؤقت، بالرجوع إلى نسبة أولئك الذين يرون أنفسهم تجاراً في المدى البعيد. وإذ صرح 7% من المبحوثين أنهم يريدون الإبقاء على النشاط نفسه في ظروفه الحالية، فإن 66% منهم يريدون الانتصاب للحساب الخاص في المستقبل. وقد يعزى ذلك إلى رغبة في تفادي المضايقات اليومية التي يتعرضون لها من قبل الشرطة وأصحاب المحلات بنهج إسبانيا. لكن في حقيقة الأمر ثمة تمثل أغلبي للانتصاب باعتباره مهنةً مشروعةً يجوز للمرء أن يتمثل نفسه فيها من أجل تحقيق الربح وتحويل جزء منه لمكان المنشأ في شكل استثمارات عقارية أو فلاحية.

وتحيلنا هذه الفكرة إلى مفهوم المجتمعات المجزأة[6] (la société segmentaire) الذي نجده في الأنثربولوجيا السياسية، لكننا نتحاشى تناوله بصفة تقزم من هذه

5 مقابلة، تونس، جويلية 2018.

6 هو مفهوم في الأنثربولوجيا السياسية تناولت العديد من المجتمعات الافريقية كموضوع درس. أنظر على سبيل المثال : Evans Prichard, E. (1970). The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People, Clarendon Press; Evans Prichard, E., Fortes, M., African Political Systems (1940). Oxford University Press; Favret-Saada Jeanne. La segmentarité au Maghreb. In: L'Homme, 1966, tome 6 n°2. pp. 105-111.

الأنماط الاجتماعية وتجعل منها ميزة مجتمعات أولية في سلم التطور البشري[7]. فهذه المجتمعات محكومة بروابط الوشائج الأولية في ديناميات التضامن الجماعي، وهي تعيد إنتاج نفسها في سياق الدولة الحديثة واقتصاد السوق الليبرالي وانغراس الدولة-الأمة التونسية في التقسيم الدولي للعمل. فأشكال المجتمعات المجزأة هذه هي أشكال تاريخية، تتطور بتطور البنى الاقتصادية وبقدر تعمق مركزة الدولة، وهي في الآن نفسه مقاومة لعملية «التحديث» التي تقود قاطرتها الدولة بإعتبارها ضرباً لتضامنات قديمة دون تقديم حماية اجتماعية كافية للفئات المعنية. لذلك نرى أن تناول ما يسمى بالعروشية في تونس باعتبارها مجرد رواسب تاريخية لماض متخلف لا يتجاوز مستوى خطاب الوصم السياسي لمجموعات تكافح من أجل رزقها.

إلا أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال غياب التفاوتات الاجتماعية، بل والتقسيمات الطبقية داخل المنتصبين بنهج إسبانيا ككل أولاً، وداخل المجموعات القبلية من الغلايقية وأولاد خلفة ثانياً. فيظهر من خلال المعطيات الجماعية لهذا المؤلف، وكذلك من خلال المقابلات والملاحظات التي قمنا بها شخصياً قبل ذلك، أن هؤلاء يحتلون موقعاً مهيمناً في نهج إسبانيا وتخومه. ويتجلى ذلك بوضوح من خلال الأرقام التي سقناها أعلاه، والتي تشير إلى الأغلبية العددية لأصيلي السبيبة وجلمة في العدد الجملي للتجار الذين أُحصوا. ويظهر ذلك من جهة أخرى، من خلال القدرات المتباينة على تملك المجال العمومي وتوظيفه من أجل تحقيق الربح، والتي تجعل من أبناء العشائر الكبرى ذات تفوق واضح على أصيلي تونس وغيرهم.

ومن المحقق أن هذا ينعكس على القدرة على تحقيق الأرباح وعلى مراكمة الثورة، إذ أن أجزاء الرصيف تعتبر في سياق الانتصاب الشارعي في نهج إسبانيا موارد إقتصادية

7 ترى النظريات التطورية في الانثروبولجيا أن المجتمعات «البدائية» متخلفة في سلم تطوري ينتهي بالدولة-الأمة الغربية وبالولوج للحداثة على شاكلتها الغربية بإعتبارها أرقى أشكال التنظم البشري. فهي بالتالي نظريات غربومركزية، بإعتبارها لا تعترف بحداثة إلا بحداثة الغرب ولا ترى في المجتمعات اللاغربية التي تدرسها إلا مجتمعات في أسفل أشكال التنظم البشري، ناهيك عن إرتباط جزء كبير منها بالاديولوجيا والمصالح الكولونيالية لأواخر القرن التاسع عشر. أنظر على سبيل المثال أعمال عالم الأنثربولوجيا هنري ماين، وهي خير دليل على ذلك.

نـادرة، و هـو مـا يجعـل حيازتها رهانـاً هامـاً وموضـوع صراع كبـير. أما داخـل المجموعة القبليـة ذاتهـا، فتتجـلى التفاوتـات الطبقيـة عـلى نحوٍ نستشـف منه مسـاراً بيوغرافياً شـبه نموذجـي للمنتصـب أصيل الغلايقيـة أو أولاد خلفة. فحسـب مقابلتين قمنا بهمـا مع تاجرين مـن سـوق المنصـف باي مـن عـرش أولاد خلفة الـذي ينتشر بـين مدينتـي السـبيبة وجلمة، اتضـح أن التجـار ذوي التجربـة والأكثر ثـراءً وحيازةً على رسـاميل علائقيـة ورمزية هم قلة داخـل المجموعـة، وهـم يلعبون دور المعلم الـذي يوفر حمايةً وسـقفاً للوافديـن الجدد، مقابل توظيفهـم كقـوة عمـل في عملية مراكمـة فائض القيمـة. وبالتالي، نشـهد ضرباً مـن المراوحة بـين علاقـات التضامـن القبليـة والعشـائرية مـن جهة، وبـين علاقـات التقسـيم والتناقض الطبقـي مـن جهـة أخـرى، داخـل مجموعة عمـل يراهـا من هـو خارجهـا متجانسـةً. لكن سـنرى أن التمايـزات التـي ذكرناهـا تترجـم بصراعـات عـلى تمثيليـة التجـار نقابيـاً وعلى مشروعيـة آليـة العمـل النقابـي بإعتبارها كذلك. لكننا سـنخوض قبـل ذلك في مسـألة الفعل الاحتجاجـي وخارطتـه في نهـج إسـبانيا وتخومه وما بعـد ذلك.

2. الاقتصاد الأخلاقي لاحتجاج المنتصبين : بين المقاومة الفردية والفعل الجماعي

يتميـز المعيـش الاجتماعـي لمنتصبـي نهـج إسـبانيا و تخومـه بمقاومـة لا تـكاد تبرحه. فالروتـين اليومـي لهذا النشـاط يجعـل مـن أصحابه دائمـاً في علاقـة متوترة مع السـلطات العموميـة، ممثلـةً في ذراعهـا التنفيـذي البوليـسي. لذلـك فـإن لهـؤلاء الباعـة ممارسـات احتجاجيـة ومقاومـة مختلفـة، تتنـزل في أزمنـة اجتماعيـة متباينـة. ويمكـن دراسـة هـذه الممارسـات بتقسـيمها إلى ثلاثـة أنماط مـن الفعـل الاحتجاجي : الهـروب الفـردي، المجابهة الجماعيـة لقـوات الشرطـة والاحتجـاج الجماعـي في إطـار «ريبرتـوار» فعل كلاسـيكي.

وقبـل أن نتنـاول بالدرس هذه الأنماط، سـننزل هذا الفعـل المقاوم في إطـار نظري يجعل منهـا أحـد الدلائـل على مـا يمكـن اعتبـاره اقتصـاداً أخلاقيـاً للانتصاب مـن أجـل التجارة. فرغـم أن السـياق الاقتصـادي والاجتماعـي والتاريخـي موضـوع درسـنا يختلـف تماماً عن الهبـات الشـعبية المناهضـة لزيادات أسـعار الحبوب في بريطانيـا في القرن الثامـن عشر التي

تحدث عنها إدوارد بالمر ثومسون[8]، إلا أن مفهوم الاقتصاد الأخلاقي ينير الفعل المقاوم لمنتصبي نهج إسبانيا وغيره من أنهج العاصمة شريطة اعتماد تعريف واسع له[9]. إذ يحيل هذا المفهوم إلى العلاقات بين المهيمنين والمهيمن عليهم، باعتبارها علاقات هيمنة مشروطة باحترام الأوائل لتعهدات أخلاقية تجاه الآخرين. وبالتالي، فإن الانقياد الإيجابي للهيمنة الاجتماعية ينتهي بانتهاء شروطها، أي عند الإخلال بالتعهدات الأخلاقية المشار إليها أعلاه. ويقودنا هذا لا محالة إلى تحليل ما يمكن اعتباره تصوراتٍ شعبية للمشروعية وللعدالة، وهي تقف على تخوم المسموح وغير المسموح به. بالتالي، يمكن مفهوم الاقتصاد الأخلاقي من فهم إتيقا الرزق التي تمكننا من فهم مرور بعض الطبقات الشعبية إلى الاحتجاج، متجنبين في ذلك التصور التلقاءويّ (spontanéiste) الذي يرى في ذلك فعلاً انفجارياً لا عقلانياً[10].

وإذ ذهب ثومسون إلى اعتبار هبات الحشود الشعبية ضد ترفيع الأسعار احتجاجاً ضد إخضاع الاجتماعي لمجال اقتصادي استقل شيئاً فشيئاً عن المجتمع ولم يعد مضمناً فيه (embedded) على معنى كارل بولانيي[11] (Karl Polanyi) فإن موضوع الحال يتعلق برفض تدخل السلطة الذي يمس من قوت منتصبي نهج إسبانيا وتخومه، بناءً على اتفاقات ضمنية معها تحدد سقف اللامسموح به في قمع السلطة لهذا العمل. ومثل المنتصبين هنا كمثل الفلاحين الذين كانوا موضوع درس جايمس سكوت[12] (James C.

8 المرجع نفسه.

9 هو ما ذهبت إليه الباحثة في علم الاجتماع السياسي جوهانا سيمايون. انظر :
.Johanna Siméant. « Économie morale et protestation – détours africains ». *Genèses*, 81(4), 142-160

10 Siméant... ibid.

11 Scott... ibid.

12 يحيل هذا المفهوم الذي يمكن ترجمته إلى العربية ب»التضمين»إلى مسألة انغراس ديناميات نعتبرها اليوم اقتصادية في عمليات اجتماعية روتينية، كالهبات والهبات المضادة وغيرها من الممارسات وذلك قبل «التحول الكبير» الذي تمثل في استقلالية المجال الاقتصادي عن بقية المجالات الاجتماعية. انظر : Karl Polanyi. *The Great Transformation. The political and economic origins of our time*. (Boston : Beacon Press, 1944). كما يمكن الاستئناس كذلك بنظرية موس حول الهبة والهبة المضادة أو أعمال بيار بورديو حول مسألة الشرف عند القبائل في الجزائر. انظر : Pierre Bourdieu. *Esquisse d'une théorie de la pratique, précédé de «Trois études d'ethnologie kabyle»*. (Paris : Droz, 1972)

Scott) حينما اعتمد على مفهوم الاقتصاد الأخلاقي ذاته و أشفعه بمفهوم إتيقا الرزق الذي ذكرنا، وهو ما جعله يلامس تصورات المشروعية لدى هؤلاء. فالحاكم المشروع هو الذي لا يهدد قوت الفلاحين وعيشهم، وهو الذي يترك لهم ما يكفي للكلإ. فالفقراء المتخلى عنهم خطرون على النظام الاجتماعي، كما يدرك ذلك جيداً الأغنياء الذين يسعون إلى تفادي الثورات التي تهدد موقعهم المهيمن. أما بالنسبة إلى الفقراء، فيتحقق القوت شريطة التواجد في علاقة تبعية بالمهيمنين، وضرورة توفير الرزق هي التي تجعلهم طائعين لنسق الهيمنة الاجتماعية ما دام القوت متوفراً. وتؤيد المعطيات التي جمعناها ما ذهبنا إليه من اعتماد لمفهوم الاقتصاد الأخلاقي، إذ أثبتت الملاحظات الإثنوغرافية أن أعوان الشرطة يتحاشون الحملات الأمنية على منتصبي نهج إسبانيا في فترات «الميسرة»، أي عندما يكثر الإقبال على هؤلاء التجار بمناسبة عيد الفطر أو العودة المدرسية أو غيرها من الأعياد التي تشهد استهلاكاً شعبياً أعلى من معدله باقي أيام السنة. وتشهد حياة هؤلاء التجار تدخل الشرطة بصفة تكاد تكون رتيبةً في نشاطهم اليومي، وهو ما يجعل من الكر والفر مع قوات الأمن أمراً روتينياً، لا يفضي بالضرورة إلى تعبير نقدي منظم بل يدخل في إطار الممارسات اليومية من أجل الحفاظ على الرزق. ويمكن أن نضع ممارسة الهروب الفردي وقت الحملات الأمنية.

أ- الهروب الفردي وحماية «النصبة»من المصادرة :

تبرز الملاحظات الإثنوغرافية كيف كانت الحملات الأمنية، التي تطلق على منتصبي نهج إسبانيا وتخومه، عادةً ما تجابه بالفرار الفردي للنصابة، خاصةً أولئك الذين ليس لهم الكثير من البضائع المعروضة. فتجدهم بمجرد استشعارهم هذه الحملة حاملين نصبتهم على محمل السرعة، مطلقين العنان للركض من أجل الإفلات من مصادرة سلعهم. ولا نجد هذه الممارسة فقط في نهج إسبانيا وما جاوره من الأنهج، بل كذلك في العديد من الأنهج والشوارع الأخرى للعاصمة مثل شارع باريس أو أحياناً نهج روما حذو محطة الجمهورية. ويعد هذا التكتيك مواجهةً «لدولة كل يوم» (the everyday state)، أي جهاز الشرطة الذي يمثل الوجه اليومي والروتيني للدولة في معيش المنتصبين[13]. فالحوكمة

13 Salwa Ismail. *Political life in Cairo's New Quarters. Encountering the Everyday State* (Minnesota : University of Minnesota Press, 2006).

(gouvernementalité) [14] اليوميـة الروتينية لمجال النشـاط التجاري بنهج إسـبانيا ونسـق العلاقـات بين المنتصبـين والتجار أصحـاب المحلات والشرطة هـو الذي ينتج ممارسـة الفرار هـذه، باعتبارهـا تكتيـكاً روتينيـاً لا إراديـاً ومعتـاداً، هدفه حماية قـوت اليوم مـن المصادرة البوليسـية والتحكـم في مقـدار الاعتباطـي واللايقـين في نشـاط مقومـه الأسـاسي الاعتباطي واللايقـين. كمـا يمكن قراءتهـا باعتبارها «لاحـركات اجتماعيـة»، على معنى آصـف بيات [15]، إذ هـي تفصـح عن نفسـها في سـجل لا سـياسي، أو ربمـا في مسـتوى ماتحت السـياسي، على معنـى جايمـس سـكوت [16]. إذ لا يعبر المنتصبـون عند الفرار عـن نقد صريح لهـذه الحملات الأمنيـة، بل يكتفـون بالتذمـر فيما بينهم مـن «الحاكـم» واعتباطيته.

ب- المواجهات المباشرة مع الشرطة:

يعتـبر نمـط الفعـل هـذا مـن أنمـاط الفعـل الجماعيـة التـي يمكـن ملاحظتهـا بصفـة مرحليـة، ترتبـط بسـياقات تتوتـر فيهـا العلاقة مـع السـلطة بصفـة لا تحتمـل التكتيكات الروتينيـة. فنحـن في هـذه الحالـة إزاء أزمنـة اجتماعيـة تقطع مع النسـق العـادي للعلاقات الاجتماعيـة التـي تنظـم نشـاط الانتصاب في نهـج إسـبانيا وتخومـه. فقد سـجلت الملاحظة بالمشـاركة وجـود هـذه المواجهـات أحيانـاً، وهي تتزامـن مع الحمـلات الأمنية المشـددة التي تطـرأ عـادةً في إطـار اسـتراتيجية عموميـة جديـدة ترمـي لإعـادة سـيطرة أجهـزة الدولـة عـلى المجـال العمومي، وهـو ما يربـك التوازنـات والاتفاقـات الضمنيـة السـابقة بينها وبين المنتصبـين. نذكـر عـلى سـبيل المثال مـا تخلـل حملـة 2017 المذكورة أعـلاه مـن مواجهات، وكذلـك مـا ورد في المعطيـات الإثنوغرافيـة إذ جـدت مواجهـات كذلـك يـوم 25 أوت 2021.

وقـد كانـت لهذه المواجهـات سـابقاتها في أماكن أخرى بخـلاف نهج إسـبانيا وتخومه، إذ

14 نتبنى هنا هذا المفهوم بالمعنى الذي صاغه عليه ميشال فوكو، أي باعتباره «مجموع المؤسسات والاجراءات والتحليلات والأفكار والحسابات والتكتيكات التي تمكن من ممارسة ذلك الشكل المعقد والمخصوص من السلطة، والموجه للمجموعات البشرية باعتبارها هدفاً والذي يستعمل الاقتصاد السياسي بما هو معرفة، والذي يعتمد على أجهزة الأمن باعتبارها أداةً جوهرية» (ترجمة كاتب هذه السطور). أنظر :
Michel Foucault. *Sécurité, Territoire, Population* (Paris : Éditions du Seuil, 2004).

15 Asef Bayat. Life as Politics : *How Ordinary People Change the Middle East* (Stanford : Stanford University Press, 2013).

16 James C. Scott, *Domination and the arts of resistance* (New Haven :Yale University Press, 1992).

عـرف سـوق المنصف بـاي مواجهـات بين الباعـة مـن أولاد خلفة أصيلـو جلمـة المتضامنين فيمـا بينهـم عـلى أسـاس علاقـات القرابـة والوشـائج الأولية مـن جهـة، وقـوات الأمن من جهـة أخرى، عندمـا بادرت الأخـيرة إلى تطبيق قرارات إخـلاء المحلات التجاريـة و»النصبات» المتاخمـة لهـا بعـد أن تخلـت بلدية تونـس عن العقـار الكائـن بنهج عبـد الـرزاق الشرايبي لصالـح الاتحـاد التونـسي للصناعة والتجـارة والصناعـات التقليديـة. بالتالي يمكـن أن نفرز بـين بعديـن لهذه المواجهـات. أولاً، تطـرأ حوادث العنـف المنظـم والمتبادل هـذه عندما تبادر السـلطة بإربـاك أنسـقة واتفاقات سـابقة بنيت عليهـا روتينـات اجتماعية ارتبطـت بالقوت وتحصيـل الـرزق، وهـو ما يجعل منهـا تمس مبـاشرةً بإعادة الإنتـاج البيولوجـي لمجموعات المنتفضـين. مـن جهة أخـرى، تحيلنا هـذه المواجهـات إلى القـدرات والاسـتعدادات التنظيمية الجماعيـة مـن أجـل خـوض هـذه الصراعـات العنيفـة مع قـوات الشرطـة، وهو مـا يتطلب حـداً أدنـى مـن التنظيم ومـن تقسـيم المهام الـذي يتجـلى في مجموعـة متضامنة عشـائرياً. فعنـد فشـل اسـتراتيجيات التفـاوض مـن أجل إيجـاد اتفـاق جديد مع السـلطة، سـواءً كان ذلـك بسـبب تعيينـات جديدة عـلى رأس الجهـاز التنفيـذي أو بسـبب تحول ظرفي لسياسـة تدبـير مـا يسـمى في اللغـة الرسـمية بال»تجـارة الموازيـة»، تسـير المواجهـة العنيفـة أمراً لا منـاص منـه من أجـل إعـادة ظـروف العمل كمـا كانت.

ج- الاحتجاج الجماعي المطلبي:

نجـد تحـت هـذا النمط الـذي أسـميناه بالاحتجـاج الجماعـي المطلبـي آليـات احتجاجية متعـددة، مـن المسـيرات إلى الوقفـات الاحتجاجية، مـروراً بالاعتصـام أمام مقرات السـيادة. وتجـدر الملاحظـة أن هذه الآليات هي نفسـها التي اعتمدهـا العديد من الفاعلـين الاجتماعيين بعـد 2011، إذ تجـذرت شـيئاً فشـيئاً باعتبارها سـجلاً مشروعـاً للفعل الجماعـي العمومي. ولـئن لم تـشر المعطيـات الامبيريقية بصفة مبـاشرة إلى هذه الآليـات في إطار بحثنـا الجماعي هـذا، فإننـا لاحظنـا تواترها بالنسـبة إلى جزء هـام من منتصبـي نهج إسـبانيا وتخومه. فقد قـام هؤلاء طيلـة السـنوات التي تلـت بداية المسـار الثـوري في شـتاء 2010-2011 بالعديد مـن المسـيرات والوقفـات الاحتجاجية أمـام مقر ولايـة تونس، خاصـةً عندما تشـتد الحملات الأمنيـة عـلى هذا النشـاط. وما يجعـل من هـذا الاحتجـاج «مطلبياً» فعـلاً هو بـروز مطالب

تخـص تنظيـم هذا العمل وتحسـين ظروفـه، وهو بالتـالي يختلف عـن الصيغ التـي ذكرناها سـابقاً في أنـه يطرح مطالـب لها مزاعـم تمثيلية تنسـحب عـلى المنتصبين باعتبارهم جسـماً جماعيـا لا يختلـف عـن غـيره مـن القطاعـات المهنيـة التي لهـا مطالـب تخصهـا. وبالتالي، ينخـرط هـذا النمط من الفعـل الجماعي بصفتـه فعلاً جماعيـاً عمومياً في معركـة المشروعية، إذ يتواصـل مـع السـلطات ومـع المواطنـين ويحـاول تهذيـب صورتـه بحثـاً عـن مقبوليـة اجتماعيـة تسـاعده عـلى تحقيق اهدافـه. ويتحقق هذا عـبر ظهور متحدثين رسـميين وهيكلة نقابيـة، مـع ما يصاحـب ذلك من نزاعـات لها مواقعهـا ومصالحهـا الاجتماعية عـلى تمثيلية القطـاع ومشروعيـة من يحمـل مطالبه.

3. مأسسة المطلبية النقابية لل«تجار المستقلين» : نزاعات التمثيلية وعائدات العمل النقابي

سـنتناول في هـذا الجـزء مسـألة بـروز تمثيليـة نقابيـة لقطـاع التجـار المنتصبين في تونـس بعـد ثـورة 2011-2010، حاملـةً لمطالب جامعة لهـؤلاء الذين يكسـبون قوت يومهم مـن هذا النشـاط. وتتنـزل مأسسـة المطلبية النقابيـة للمنتصبين في السـياق ما بعـد الثّوري، منتفعـةً بالتـالي بالمنـاخ الديموقراطـي الـذي فرضتـه الانتفاضـة الشـعبية. فقد تـم تكوين «نقابـة التجـار المسـتقلين» سـنة 2011، في وقت شـهد دمقرطـة العمل النقابـي والمطلبي في جـل القطاعـات المهنيـة، سـواء كان ذلـك في القطاع العـام أو القطـاع الخاص. بـل وانضمت هـذه النقابـة إلى منظمـة اتحـاد عمـال تونـس الـذي تكـون بـدوره سـنة 2011، في إطـار التعدديـة النقابيـة الخجولـة التـي جائـت بهـا المرحلـة السـائلة (conjoncture fluide)[17] التـي تلـت انتفاضـة شـتاء 2011-2010. وقـد حملت هـذه النقابة مطلبـاً مركزيـاً تتفرع عنـه مطالـب ثانويـة، ألا وهو مطلـب تنظيم مهنـة «التجار المسـتقلين» قصد حمايـة رزقهم وتحسـين ظـروف عملهـم. ولسـائل أن يسـأل هنـا عـن معانـي هـذه التسـمية، أي «التجار المسـتقلين»، ومـا صاحبهـا مـن حمولـة رمزية. فنـرى هنـا أن إعتماد هـذه التسـمية يندرج في إطـار رفـع الوصم عـن المنتصبـين، وذلـك بإقتراح صنـف جديـد ذي مقبوليّـة إجتماعية،

17 Michel Dobry. *Sociologie des crises politiques : la dynamique des mobilisations multisectorielles* (Paris : Presses de Sciences Po, 2003).

فرضه الموقع الجديد لمن صار يتفاوض رسمياً مع السلط العمومية. من جهة أخرى، اكتسى تأسيس نقابةٍ للتجار المستقلين طابعاً رمزياً قرنها بميثولوجيا الثورة التونسية وسرديتها، إذ عبر الكاتب العام لهذه النقابة عن منظوريها ذات مرة قائلاً «نحن زملاء البوعزيزي». فلا يخفى إذن عمل البناء الاجتماعي الذي قامت به هذه النقابة من أجل نحت مشروعية عمومية، بل وثورية لها. إلا أن داخل المنتصبين أنفسهم، تبدو الأمور أكثر تعقيداً. فليس من البديهي أن تكون لجميع هؤلاء مصلحة في أن يكونوا ممثلين نقابياً، بل أن نقابة التجار المستقلين، رغم ادعائها تمثيل الجميع، هي محل مواقف تتباين محدداتها حسب النفعية الاقتصادية والانتماء العشائري.

أ- صراعات المشروعية : نقابة من هي نقابة التجار المستقلين؟

يرى بيير بورديو (Pierre Bourdieu) أن عملية التفويض يصاحبها لا محالة ضرب من الاستلاب السياسي، وذلك ينبع عن الدينامية الاجتماعية العميقة لعملية التفويض[18]. فالسلطة المخولة لشخص أو مجموعة من الأشخاص للنطق باسم مجموعة إجتماعية كاملة دائماً ما تتجاوز سلطة مجموع المفاوضين، وهو ما ينتج ضرباً من التعالي السياسي. فبقدر ما يركز المفوض له سلطة المفوضين بين يديه، لا تتشكل المجموعة باعتبارها مجموعةً ذات فعل اجتماعي معترف به رسمياً إلا بفعل المفوض له نفسه، أي إن هذا الأخير هو الذي يخلق المجموعة التي يمثلها. وهو حقاً لعملية من السحر الاجتماعي التي تحول التفويض السياسي إلى ما أسماه بورديو بالتصنيم السياسي (féti-chisme politique)[19].

ولئن كان هذا التحليل النظري لعملية التمثيل/التفويض السياسي يمكننا من فهم كنه العلاقة بين المفوضين والمفوض لهم بشكل عام، فإنها ذات وجاهة في موضوع الحال. إذ يتعلق الأمر بالنسبة إلى نقابة التجار المستقلين برفض مجموعات متعددة من المنتصبين

18 Pierre Bourdieu. «La délégation et le fétichisme politique». *Actes de la recherche en sciences sociales*, Vol. 52-53, juin 1984. Le travail politique. pp. 49-55.

19 Idem.

والتجـار لتمثيليـة هـذه النقابة لهـم، وهو مـا يحيلهـا إلى إشـكال المشروعية النقابيـة داخل القطـاع الذي تدّعـي الدفاع عـن مصالحه.

ترفـع نقابـة التجـار المسـتقلين مطلـب تنظيـم الانتصـاب، وذلـك بإقحامـه في المسـلك الرسـمي عـبر تثبيـت الباعـة في فضـاءات مخصصة لهـم مقابل خـلاص معلوم كـراء. وكان المطلـب الأهـم بالنسـبة إلى النقابـة هو تهيئـة فضاء شـارع قرطاج الذي يتسـع لألـف بائع، ويـلي ذلك في سـلم الأهميـة تهيئة فضـاءات أخـرى بالعاصمة وهي فضاءات سـيدي البشـير والخربـة والمنجـي سـليم والقلالين. وإذ لـم يجهز فضاء شـارع قرطاج إلى حـد الآن، نجحت النقابـة في أن تتحصـل عـلى الفضـاءات الباقيـة. لكن هـل تمثل هـذه المطالب حقاً مـا يريده المنتصبـون؟ مـن الأسـلم أن نقول إنّ هـذه المطالب تتقاطـع مع جزء مـن المنتصبين وهم من لهـم مصلحـة في التثبيـت في فضـاءات تديرهـا البلديـة، أي أولئك الذيـن لا يتمتعـون بالموارد الكافيـة لضمـان قـوت يومهـم مـن خـلال تواجدهـم في نهـج إسـبانيا وتخومـه. مـا يعني أن الباعـة الذيـن يتمكنـون مـن حجـز امكنتهم في أنهـج العاصمـة، والذيـن هم أكثـر تأثراً بالحجـوزات والمصـادرات التي تقوم بهـا الشرطة، هم الأكثر ميـلاً لمطالب النقابـة المتمثلة في تهيئـة فضـاءات مخصصـة للغرض، حتـى وإن اقتضى الأمـر دفع معاليـم كـراء للبلدية. أما أولئـك الذيـن تملكـوا المجـال، أي الذين ينتمون إلى العشـيرة الأكثر عـدداً وقـوةً ماديةً في نهج إسـبانيا وتخومـه، فـلا مصلحة موضوعيـة لهم في مطلـب الفضـاءات المهيأة.

مـن جهـة أخـرى، توحـي المعطيـات التـي جمعناهـا بوجود نـزاع عـلى مشروعيـة نقابة التجـار المسـتقلين، باعتبارهـا هيـكلاً لا وجاهـة له حسـب فئـة من التجـار. ففـي المقابلات التـي قمنـا بهـا سـنة 2018 مـع تجـار في سـوق المنصـف باي، عـبر هـؤلاء عن اسـتيائهم لوجـود نقابـة تجمـع معاليـم الانخـراط دون أن تدافـع حقاً عن مصالـح الجميـع. وقد أفرز تجـار ومنتصبـو المنصـف الباي وهـم من أولاد خلفـة جسـمهم التمثيلي الخـاص، إذ اختاروا سـتةً من أصحاب المسـتوى التعليمـي الأرقـى والتجربة المهنيـة الأطول فيما بينهـم، ونجحوا في التفـاوض مـع اتحـاد الأعـراف والتوصل إلى اتفـاق جديد ضمن لهم اسـتقراراً في النشـاط التجـاري، سـواء كان ذلك في المحـلات التجارية «الرسـمية» التي تعرض عـلى حرفائها أجهزة كهرومنزليـة، أو في النصبـات المتاخمـة لهـا التي تعرض شـتى أنـواع البضائع، مـن نظارات

شمسية وساعات وأسورة وقلادات، إلخ. بالتالي، يبدو التضامن العشائري، الذي ازدادت قوته بالانتماء إلى مجموعة اقتصادية ومهنية يجمعها طيف هام من المصالح المشتركة، ذا أداء اجتماعي أكثر نفعيةً من التمثيل النقابي المعروض.

ب- عائدات العمل النقابي : من المستفيد؟

تعتبر مسألة عائدات الالتزام السياسي أو النقابي مبحثاً نظرياً يمكن من فهم ما يحث الفاعلين على عدم مبارحة مواقعهم في المنظمات الحزبية والنقابية. فالبقاء في موقع المناضل الحزبي أو الممثل النقابي له محفزاته الاجتماعية التي تغذيها عائدات مادية ورمزية. ولا يتعلق الأمر إطلاقاً بحكم على النوايا، ولا باعتبار المناضلين في هذه المنظمات كائنات تبحث عن أقصى ما يمكن من النفع الفردي مقابل تكبد أقل ما يمكن من الكلفة. بل هي مقاربة ضد نفعية لآثار الانتماء إلى منظمة حزبية أو نقابية على الشخص، حتى وإن لم يكن ذلك الشخص ينوي البحث عن ذلك. فمقاربتنا هنا شبيهة بما حلل بورديو في دروسه في الكوليج دي فرانس (collège de France) حول مسألة «المصلحة في اللامصلحة» [20] عندما تناول بالدرس إيديولوجيا أعوان الحقل القانوني وموظفي الدولة. لكننا سنسلك طريق سوسيولوجيا عائدات الالتزام التي وضع لبنتها دانييل غاكسي[21] (Daniel Gaxie) إذ بين أن لاحتلال مواقع نضالية داخل الأحزاب أو الجمعيات أو النقابات عائدات تزيد من الرساميل الاجتماعية والرمزية، بل وأحياناً المادية، للمعنيين بهذه المواقع. فالالتزام السياسي أو النقابي قد يزيد من جاه الملتزمين وسلطتهم الرمزية، كما هو عادةً ما يكون فرصةً لتعدد العلاقات والمعارف الاجتماعية، بل وقد يكسب كذلك تحكماً أكبر في اللغة وفي أدوات التواصل السياسي المشروع، بل وحتى في رأس المال الثقافي والفكري.

20 Pierre Bourdieu. *L'intérêt au désintéressement*. Cours au collège de France (1987-1989) (Paris : Seuil, 2022).

21 Daniel Gaxie. « Économie des partis et rétributions du militantisme ». *Revue Française de Science Politique*, 27-1, 1977, pp. 123-154; Daniel Gaxie. « Rétributions du militantisme et paradoxes de l'action collective ». *Swiss Political Science Review,* 11(1), (2005), pp. 157-188.

وقد كان هذا شأن العديد من المناضلين النقابيين والسياسيين والجمعيتيين وغيرهم في تونس، إذ عرفت البلاد بعيد المد الثوري لسنة 2011-2010 شهيةً نضاليةً كبيرةً تمظهرت من خلال توافد المئات من الشبان والشابات على الأحزاب السياسية وغيرها من المنظمات التي تكون مدخلاً للشأن العام. لكن هذا الالتزام كان كذلك أداة واعيةً أو لا واعية تستثمر في استراتيجيات حرب المواقع ومركزة السلطة وتحويل المنظمات إلى أجهزة مغتربة عن مقاصدها الأصلية، وهذا شأن تونس كما هو الأمر في جل أصقاع العالم.

أما فيما يخص نقابة التجار المستقلين، فسوف نتعرض إلى عائدات العمل النقابي فيها على مناضليها الرسميين وعلى من لها ادعاء على تمثيلهم على حد السواء. لقد تعرضنا فيما سبق من أسطر إلى عملية إعادة التكييف الرمزي التي كرستها تسمية «التجار المستقلين»، بل وإسدائها طابعاً ميثولوجياً ثورياً مربطه زمالة محمد البوعزيزي، مصدر الشرارة الثورية في البلاد. وهذا يعتبر في حد ذاته عائداً من العائدات الرمزية للمأسسة النقابية لقطاع المنتصبين. من جهة أخرى، اكتسب منتصبو نهج إسبانيا وتخومه وغيرهم، رغم النزاعات والتباينات التي تناولناها أعلاه، اعترافاً رسمياً من السلط العمومية. فبعد أن كانوا محل تدبير عمومي عمودي في مجمله، صار المنتصبون يفاوضون السلط العمومية ويشاركون في بناء الاشكال العمومي لظروف عملهم، باعتباره أشكالاً يجب إيجاد حل له عبر سياسات عمومية يشاركون في صياغتها. أما على المستوى المادي، فلا شك أن هنالك عائدات لعدد هام من المنتصبين، رغم أن ذلك لا يعني الجميع للاعتبارات التي ذكرناها والتي تتصل بخارطة المصالح الاقتصادية لقطاع المنتصبين. فتهيئة فضاءات منظمة للانتصاب مثل الخربة وغيرها ساهمت في تثبيت العشرات من الباعة وإكسابهم نوعاً من استقرارية المداخيل، وهو ما ينعكس إيجاباً على مستوى عيشهم. لكن يبدو هذا خاضعاً لسلطة أعضاء المكتب النقابي الذين يحررون قائماتٍ لتحديد ذوي الأولوية لحيازة أماكن في هذه الفضاءات المهيأة، حسب معايير لا تبدو واضحةً للجميع. وهو ما يغذي ريبةً، بل ومنازعةً لمشروعية هذه النقابة، لدى طيف من منتصبي نهج إسبانيا. وهذه مسألة لا يمكن الحسم فيها موضوعياً، وتتطلب بحثاً إمبيريقياً مكثفاً ومطولاً حتى تكتمل خارطة المصالح في نهج إسبانيا وتخومه، وحتى يتسنى توثيق مختلف العلاقات الاجتماعية بين النقابة والمنتصبين بمختلف فئاتهم ورساميلهم وانتماءاتهم العشائرية

والقبلية والسلط العمومية، وما تمليه هذه العلاقات من توازنات اتفاقات تفضي إلى تحديد من يتحصل على مكان من عدمه. إذ أن الفضاءات المهيأة تعد في العاصمة موارد محدودة، لكنها في الآن ذاته رهان هام، بل لنقل حياتي، للمئات من المنتصبين الباحثين عن تحصيل قوت يومهم وعن تحسين ظروف عملهم.

خاتمة :

خضنا في هذا المقال في مختلف الديناميات الجماعية التي تشق المجال الاجتماعي للانتصاب بنهج إسبانيا وما جاوره، مستعينين في ذلك بالمعطيات الكمية والكيفية التي أنتجت جماعياً لهذا المؤلف، مستأنسين لنظرة مقارنة أمكنتها معطيات كيفية أخرى تم رصدها وإنتاجها في وقت سابق من كاتب هذه السطور، ومستفيدين من روافد نظرية أنارت العديد من الجوانب التي تمت دراستها في هذا المقال. وقد تم استدعاء كل من الأنثروبولوجيا الاقتصادية والسياسية والسوسيولوجا السياسية للعمل وسوسيولوجيا الالتزام من أجل فهم تناقضات وتباينات قد تكون لا مرئيةً في أغلب الأحيان. وقد بحثنا في ذلك عن إبراز تعقيدات مشهد اجتماعي لطالما غطته الكليشيهات والأوصام الاجتماعية والرسمية، متحاشين في ذلك انحرافات التمجيد الشعبوي والمظلومية البؤسوية [22] وساعين لإبراز ما أمكن من جوانب متعددة لفاعلين اجتماعيين حقيقيين. فقد كانت مقاربتنا تسعى لبناء خطاب تحليلي وفي للواقع الاجتماعي لهؤلاء المنتصبين الذين فرضوا أنفسهم بما هم ذوات اجتماعية فاعلة، محاولةً التحكم في مصيرها الاجتماعي في سياق لا يخلو من الاكراهات المادية والاجتماعية و مسابقةً الزمن من أجل تحصيل خبز يومها، بل وحتى تحقيق الثراء المشروع اجتماعياً. ولعل أن كل ما سقناه في هذا المقال يجد إطاره التحليلي الكبير في المسألة الاجتماعية، بإعتبارها قضيةً ملحةً ومركزيةً طرحتها الانتفاضة الشعبية والمسار الذي افتتحته ذات شتاء 2010-2011. فنحن إزاء فاعلين اجتماعيين من جملة الآلاف من الذين وضعوا الدولة أمام مسؤوليتها الاجتماعية، منخرطين في ذلك في تصور تاريخي للدولة التونسية باعتبارها

22 ونحن لا نعني هنا الشعبوية بالمفهوم الواصم السائد في الخطابات المهيمنة، بل نعني بذلك ما ذهب إليه جون كلود باسيرون وكلود غينيون بإعتبارها إستعداداً ذهنياً لدى الباحثين ينحو نحو المبالغة في تقدير القدرات السياسية للطبقات الشعبية، جاعلين منها بطلاً لا منازع لها في تحريك عجلة التاريخ. ما نريد قوله هو اننا نحاول أن تكون لنا منزلة بين المنزلتين المذكورتين. للإطلاع على الأهمية المنهجية لذلك، أنظر : Claude Grignon and Jean-Claude Passeron. *Le savant et le popu-laire. Misérabilisme et populisme en sociologie et en littérature* (Paris : Seuil, 1971)

المطالب الأوحد بتحسين ظروف عيش مواطنيها، وباعتبارها ضرورةً عملية لا بد من المرور بها من أجل ضمان الرزق. فهؤلاء المنتصبون، بتفاوت مطالبهم بين من يسعى للعمل في فضاءات مهيأة وبين من يقيم اتفاقات مع السلط من أجل مواصلة الانتصاب، كلهم مضطرون للتفاعل مع الدولة وأجهزتها، سواءً كان ذلك بالتفاوض أو بالصراع المفتوح، من أجل ضمان الكلإ أو حتى مراكمة الثورة. وقد يحيلنا هذا إلى مسألة البدائل عن التدبير العمودي للقضية الاجتماعية ولصيغ التضامن الاجتماعي الشعبي التي قد تفضي لديمقراطية اجتماعية حقيقية، في إطار احداثيات سوسيولوجية معقدة يختلط فيها البيروقراطي بالعشائري القبلي. لكن هذا نقاش آخر معقد، قد يجد مكانه في الفلسفة السياسية أو على أرضية المقترحات البديلة التي تطرح في المجال العام، خاصةً إذا ما استخلصنا دروس سلسلة «الانتقال الديموقراطي» الذي صادر المسألة الاجتماعية وألقى بها في غياهب الصراع الليبرالي المشوه على السلطة والتوافقات النخبوية والبيروقراطية القمعية والعنف السياسي، وغيرها من وحوش هذا المزيج من القتامة والنور الذي نحن فيه ●

ببليوغرافيا مختارة:

- James C. Scott. *The moral economy of the peasant : Rebellion and subsistence in Southeast Asia*. New Haven : Yale University Press, 1976.

- Thompson, E.P. *« The moral economy of the English crowd in the eighteenth century »*. Past & Present, 50(1), (1971), pp. 76-136.

- Evans Evans Prichard. The Nuer: *A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People*, Oxford : Clarendon Press, 1940.

- Evans Evans Prichard and Meyer Fortes. *African Political Systems*. Oxford : Oxford University Press, 1940.

- Favret-Saada, Jeanne. *« La segmentarité au Maghreb ». L'Homme*, tome 6 n°2, (1966), pp. 105-111.

- Siméant, Johanna. *« Économie morale et protestation – détours africains »*. Genèses, 81(4), (2010), 142-160

- Karl Polanyi. *The Great Transformation. The political and economic origins of our time*. Boston : Beacon Press, 1944.

- Pierre Bourdieu. *Esquisse d'une théorie de la pratique, précédé de «Trois études d'ethnologie kabyle»*. Paris : Droz, 1972

- Salwa Ismail. *Political life in Cairo's New Quarters. Encountering the Everyday State*. Minnesota : University of Minnesota Press, 2006.

- Michel Foucault. *Sécurité, territoire, population*. Paris :Éditions du Seuil, 2004.

- Asef Bayat. *Life as Politics : How Ordinary People Change the Middle East*. Stanford : Stanford University Press, 2013.

- James C. Scott. *Domination and the arts of resistance. Hidden transcripts*. New Haven :Yale University Press, 1992.

- Michel Dobry. *Sociologie des crises politiques : la dynamique des mobilisations multisectorielles*. Paris : Presses de Sciences Po, 2009.

- Bourdieu, Pierre. *« La délégation et le fétichisme politique »*. Actes de la recherche en sciences sociales. Vol. 52-53, juin 1984. Le travail politique. pp. 49-55.

- Pierre Bourdieu. *L'intérêt au désintéressement. Cours au collège de France (1987-1989)*. Paris : Seuil, 2011.

- Daniel Gaxie. *« Économie des partis et rétributions du militantisme »*. Revue Française de Science Politique, 27-1, (1977), pp. 123-154.

- Gaxie, D. *« Rétributions du militantisme et paradoxes de l'action collective »*. Swiss Political Science Review, 11(1), (2005), pp. 157-188.

- Claude Grignon and Jean-Claude Passeron. *Le savant et le populaire. Misérabilisme et populisme en sociologie et en littérature*. Paris : Seuil, 1971.

6

المحور السادس

البائع المنتصب[1] في سوق نهج إسبانيا بين ذكورة الأنموذج وذكورة الآخر

1 في معنى (ن،ص،ب): النّصبة: صينيّة خاصّة تنشر عليها الفواكه. (تكملة معاجم العرب، ص، 230، ج 10). والنَّصْبُ رَفْعُك شَيْئًا تَنْصِبهُ قائِمًا مُنتصِبًا. (الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج، 4، ص، 226). وكلّ شيء رفع واستقبل به شيء فقد نُصِبَ. (ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج8، ص، 343). إذن النّصبة هي ما يبنى ليرفع عليه المعروض من البضائع بغاية البيع. فإذا نصبت البضائع فقد صحّ اعتبارها منتصبة أي مرفوعة عن الأرض ومعروضة للزّبائن. والانتصاب لغة هو القيام والارتفاع. ومنه انتصب فلان أي قام رافعا رأسه (لسان العرب ج، 48، ص، 4436، نسخة إلكترونيّة). ومنه "تيس أنصب أي منتصب القرن وناقة نصباء أي منتصبة مرتفعة الصّدر".(الخليل ص 227). وهكذا فإنّنا سنستعمل مفردتي النَّصْبَة والانتصاب وما تعلّق بهما من أفعال مثل (نصَب وانتصب) وفق معانيها الظّاهرة الّتي وُضعت لها في أمّهات القواميس العربيّة. وأمّا ما يشاع في بعض المكتوب المعروض اليوم من أنّ الانتصاب لا يعني سوى انتصاب الأير فإنّه خارج استعمالاتنا، ومطالبنا، ونصْبنا كلّه، وليس ممّا نعرضه في نصبتنا البحثيّة هذه، بل نجرّح فيه ونعتبره دليل نقصان بحث وتدبّر، وتوقا إلى جنسنة اللّغة وإلحاقها بأهواء النّفس، ونحوا إلى العناية بالنّكاح ومتعلّقاته: أيرا وفرجا ومقامات متّصلة بهما.

الكلمات المفاتيح: البائع المنتصب، الذّكورة المهمينة، أنظمة السّيمياء، الدّراسات الذّكوريّة، سياسات التّحت، ذكورة الآخر، الأنتروبولوجيا.

مقدّمة

في سنة 1973 دعّمت الولايات المتّحدة الأمريكيّة انقلابا عسكريّا دمويّا في الشّيلي، واغتالت الرّئيس المنتخب سلفادور ألليندي Salvador Allendi لتنصّب عسكريّا عميلا هو الجنرال بينوشيه[2]. وقد شكّلت مرحلة سيطرة هذا الوكيل المرتبط بالامبرياليّة بداية رسميّة لإحلال النّيوليبراليّة وفرضها في العالم والانتقال من نظام الهيمنة البورجوازيّة المقنّعة والمراقبة إلى حدّ ما مراقبة شكليّة، إلى نظام الهيمنة البورجوازيّة المطلقة والمبرّرة فكريّا وقانونيّا بترسانة من التّشريعات. وفي هذا المعنى يذهب فاليرشتاين Wallerstein إلى أنّ «النّظام الاقتصاديّ الرّأسماليّ يعمل على مستوى عابر للقوميّات»[3] ولم يدم الأمر طويلا حتّى جيء برونالد ريغنRonald Reagan ، وهو ممثّل أمريكيّ لا تبدو عليه مظاهر الاطّلاع النّظريّ الواسع على الأدب السّياسي ولم يعرف عنه نشاط نضاليّ يُذكر، ونُصّب رئيسا للولايات المتّحدة الأمريكيّة ليدشّن عمليّا ما يسمّيه المخرج والكاتب مايكل مورMichael Moore نقل مركز الحكم من البيت الأبيض إلى بورصة وول ستريت[4]. ويمكن القول إنّ نهاية الحرب الباردة جذّرت غلبة العولمة عبر وسائل التّحكّم في المعرفة والحقائق فلسفتها ومبادئها الكونيّة.

وبذلك اتّسع مجال النّفوذ البورجوازيّ ليتجاوز الفضاءات اللّيبراليّة المرتبطة تقليديّا بالنّموذج الغربيّ الأوروأمريكيّ ويشمل الكون بأسره باستثناء حفنة من الدّول المتناثرة دون رابط سياسيّ أو إديولوجيّ جامع. وسادت قيم اقتصاد السّوق ونماذجها الّتي

2 Victor Figueroa Clark, *Salvador Allendi Revolutionary Democrat* (London : PlutoPress, 2013), p 127.

3 أنطوني غيدنز وفيليب صاتن، **مفاهيم أساسيّة في علم الاجتماع**، ترجمة، محمود الذّوّادي (بيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، 2018) ص، 22.

4 Michael Moore, Capitalism : a love story, 2009, from 19 mn to 22mn and 34 sec.

دشّـنتها الشّـيلي لتصـير بيانـا كونيّـا آخـذا في الشّـيوع والغلبـة. ولـم تنـج دول العالـم من منطـق الإعـادات la Re فأعـادت هيكلـة اقتصادهـا، وأعادت جدولـة ديونها، وأعادت رسـم حدودهـا خاصّـة (يوغسـلافيا سـابقا، الاتّحاد السّـوفياتيّ سـابقا، ألمانيـا الغربيّـة والشّرقيّة سـابقا، جمهوريّة اليمـن الدّيمقراطيّـة الشّـعبيّة، والجمهوريّـة العربيّة اليمنيّة سـابقا الخ). وفي تلـك الإعـادات البنيويّـة الحاسـمة، وجـدت النّيوليبراليّـة منافذهـا، وقـد تسرّبـت إلينا في تونـس شـيئا فشـيئا حتّـى هيمنـت بشـكل كلّي تقريبا عـلى بنية الاقتصـاد وعنـاصر الإنتاج ووسـائله. ولعـلّ سـنة 1986 هـي السّـنة الّتـي افتتحت فيهـا دولـة البورجوازيّـة في تونس عمليّـة سـحق الأغلبيّات الشّـعبيّة عـبر السّياسـات الّتـي فرضتهـا الصّناديق الدّائنـة[5]، ومن ثـمّ أصبـح التّفويـت في الـشّركات العموميّة سياسـة دولـة تتمّ عـلى مراحل باعتماد سياسـة القضـم المصغّـر المتواتـر حتّى أفـاق المجتمع من غيبوبـة «التّغيير السّـياسي» ليجد نفسـه في جحيـم الاسـتغلال البورجـوازي النّهـم المدعوم بأنظمـة قانونيّـة مغلقة.

وهكـذا وصلت أطروحـة الإعادات إلى تونـس وتقنّعت بإعـادات سياسـيّة لتخفي جوهرها البورجـوازيّ الهيمنـيّ. ومـن ثمّ أُعيـدت تونـس إلى الحاضنـة العربيّـة، وإلى منظومة حقوق الإنسـان، وإلى حيـاة سياسـيّة متأسّسـة عـلى التّعدّديّـة الحزبيّـة. وتخفّـت إعـادة هيكلـة الاقتصـاد وعصرنتـه لتمـوّه على مواصلـة حصر الإنتـاج تقريبا بأيـدي الخـواصّ واحتكارهم الشّـديد للثّـروات وتوزيعهـا بينهـم[6]. ورافـق تلك الإجراءات وضع سياسـات تشـغيل هشّـة في القطاعـين العـامّ والخاصّ واتّسـاع دائـرة اقتصـاد المناولة والأجـور المتدنّيـة. وفضلا عن ذلـك أُغلقـت كلّ مناجـم الشّـمال الغربيّ، وهُجّـرت تلك المدن والقـرى، وتواصـل التّعامل مع قطـاع الفلاحـة بوصفه قطاعا غير مشـغّل لا يسـتحقّ اسـتثمارات واسـعة مـن الدّولة. وهو مـا أدّى إلى انتشـار الفقـر المدقع ونهاية عشريّـة من الرّفاه النّسـبيّ النّاجم عـن دفق الانفتاح الاقتصـاديّ الّذي نـشر ثقافة الاسـتهلاك وعمّـم التّحديث.

ولمّـا صـارت الحاجـة إلى المـأكل والمـشرب وتوفـير متطلّبـات أفـراد العائلة أكثـر إلحاحا

5 أحمد بن مصطفى، «منظومة اقتصاد السّوق ليست منوالا للتّنمية»، موقع نواة، متاح على، https://nawaat.org/2014/11/08/ ، تاريخ الاطّلاع، 10/01/2022.

6 نشير إلى شركات الصّناعات الغذائيّة وحصرها كلّيا بأيدي مجموعات عائليّة احتكاريّة.

وأشدّ صعوبة، ارتبطت حياة التّونسيّين بمساعدات الدّولة والحزب خاصّة أثناء الحملات الانتخابيّة. وبالتّراجع الكبير لمردود العمل الفلاحيّ وعجزه عن تلبية مطالب المجتمعات في تلك المناطق، اختار هؤلاء أحد مسلكين: إمّا الهجرة إلى المركز والسّواحل حيث النّشاطات الصّناعيّة والخدماتيّة أو الاتّجار عبر الحدود البرّيّة وعلى خلاف «الصّيغة القانونيّة». وفرض هؤلاء «المهرّبون» إمكانيّة أخرى للعمل من خارج النّصوص من جهة، ومن داخل النّظام وبرعايته، من جهة أخرى. ثمّ تطوّرت هذه التّجارة الّتي تعلنها القوانين موازية ولانظاميّة لتفتح لها أسواقا وتوسّع أخرى وتمنحها مزيدا من السّلع، ومنها سوق نهج إسبانيا[7] في قلب العاصمة وما يعرضه الباعة هناك من شتّى أنواع البضائع.

ونهتمّ في هذا المحور بدراسة الباعة المنتصبين في نهج إسبانيا الّذين يعرضون بضاعة توصف في الخطاب الرّسميّ السّائد سياسيّا وقانونيّا واجتماعيّا بالبضاعة الموازية المهرّبة. وتقيّم تلك المعروضات بأنّها ذات أسعار بخسة وجودة متدنّية. ولئن ركّزت أعمال أخرى في هذا الكتاب الجماعيّ على دراسة البيئة الجغرافيّة والاجتماعيّة للمنتصبين، وطبيعة هذه النّشاطات الاقتصاديّة القائمة في نهج إسبانيا وتاريخ هذا النّهج، فإنّ عملنا يهتمّ بالبائع المنتصب ذاته ويتّصل بإعادة رسم صورته وأنظمة تمثّلاته لذاته ولمحيطه وحضوره باعتباره رجلا، أي ندرس البائع المنتصب انطلاقا من مقاربة تغوص في جندره وتنشئته وتمثّلاته الاجتماعيّة للرّجولة أو ما أُصطلح في تونس على تسميته ب»الرُّجْلَة». ونبحث في عملنا عن هذا الآخر ذاتا فرديّة، وبناء اجتماعيّا وثقافيّا، ونتاج تنشئة اجتماعيّة وعلاقات قوى هيّأت الشّروط التّاريخيّة لملامح مماثلة. ونحرّك مقالنا ضمن أفق أناركيّ أنتروبولوجيّ منحاز طبقيّا وأنسنيّا ومنخرط في الصّراع من أجل وجود آخر واقتصاد آخر وإنسان آخر. وقد اخترنا جماعة أن نسمّي هذا الاقتصاد اقتصاد الآخر بدل الوصم الدّارج «الاقتصاد اللّانظاميّ» وغير القانونيّ أي المخالف للمعايير المنظّمة للاقتصاد الشّرعيّ، الّذي تفرضه البورجوازيّة وأجهزة دولتها. ونعني باقتصاد الآخر تجربته المخصوصة وخبرته المميّزة له من سائر الاقتصادات. وبنينا على ذلك تمثّلا لرجولة الآخر

7 نهج إسبانيا بالعاصمة التّونسيّة تحوّل إلى سوق تعرض بضائع مختلفة. تتعرّض ورقات في هذا الكتاب الجماعيّ إلى تاريخ هذا النّهج وتاريخ الحركة التّجاريّة فيه.

في مقابل رجولة المعيار السّائدة. فماهي ملامح الرّجولة المعياريّة؟ وما علاقة الرّجولة بهذا العمل أو ذاك؟ وهل يكون المشتغل في اقتصاد على غير المعايير السّائدة معبّرا عن رجولة مخالفة للمعايير بالضّرورة؟ بأيّ معنى إذن يمكننا الحديث عن رجولة معياريّة وأخرى كاسرة للمعيار؟ أ ليست الرّجولة واحدة في كلّ أحوالها؟ وإذا برّرنا فرضيّة وجود رجولة الآخر، فما هي العناصرالمكوّنة لها؟

منهج التّحليل وخطّة المحور

نحاول في هذا المحور تطبيق مقاربة الدّراسات الذّكوريّة. وقد سبق لنا عرض تعريفها وبعض مصطلحاتها في رسالة الماجستير[8] ثمّ في مقال حول النّساء العاملات في الفلاحة[9]. ولذلك سنركّز في هذا القسم، على تقديم عامّ لهذه المقاربة، لتجنّب الإغراق النّظريّ من جهة، ولمنح القارئة والقارئ فرص متابعة البحث في المراجع الّتي سنقترحها في هامش الصّفحات[10] من جهة أخرى. ونؤكّد في هذا المدخل، على ضرورة تمييز الكتابة في مبحث

8 رضا كارم، **حروب الرّدّة فضاء لاختبار الرّجولة**، (رسالة ماجستيرمرقونة وهي تحت النشر ستصدر قريبا عن دار رؤية ، القاهرة) تحت إشراف، آمال قرامي، (منّوبة: 2019)، ص 11.

9 رضا كارم، «**النّساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء والهيمنة المزدوجة**»، في كرّاسات المنتدى، العدد 4، (2020)، ص 81.

10 بدأت دراسة الرّجل باعتباره جندرا في النّسويّة أساسا مع كايت ميليت(1971) Kate Millet ونيكول كلود ماتيو-Ni cole Claude-Mathieu وجورج فلاكونيه Georges Falconnet ونادين لوفوشير 1975) Nadine Lefaucheur) في السّبعينات، واستمرّت هذه الدّراسة في البحوث الجندريّة مع أعمال دانييل ويلزر- لانغ ،1995) Daniel Welzer – Lang 2017 ،2014 ،2011 ،1998...)وجوديت باتلر Judith Butler في معظم أعمالها، وفرانسواز إريتييه-Françoise Hé ritier) (1996، 2002 وفي علم نفس العمل مع كريستوف دوجور 2000 ،1996 ،1988) Cristophe Dejours...) وباسكال مولينييه Pascale Molinier...) (2000، 2004، 2008، 2017). نشير أيضا إلى أنّ دراسة الرّجل في البحوث الأدبيّة والفلسفيّة والسّوسيولوجيّة والفنّية انتشرت في بقاع العالم جميعها ومنها العالم العربيّ. برزت في لبنان أعمال ذات شأن نذكر منها «الرّجولة المتخيّلة الهويّة الذّكريّة والثّقافة في الشّرق الأوسط» لمي غصوب وإيما سانكلير ويب سنة 2002، والعمل المشترك الصّادر في «باحثات» المجلّد 14، سنة 2006. ومن ثمّ فإنّ أعمال آمال قرامي ومحاضراتها (2006، 2010، 2012، 2013، 2014، 2017، 2020 أ، 2020 ب، 2021) وأعمال عبد الصّمد الدّيالمي ومحاضراته (2009، 2018) ورجاء بن سلامة (2005) وأطروحة دكتوراه لمحمّد زيّان (2013) ومقالاته ومنها ما صدر سنتي (2016، 2018)، ورسائل ماجستير عديدة بالجامعات التّونسيّة والمغربيّة والجزائريّة، وبعض المقالات المنشورة على مواقع إلكترونيّة ومنها مقال مايا البوطي (2019)، ومقال خوخة ماكوير (2021)، تكشف أنّ الرّجل غادر نهائيّا الهيمنة المطلقة على التّاريخ دون مساءلة هذه الهيمنة، وأصبح جندرا من ضمن جنادر أخرى يُدرس وتُطبّق عليه المقاربات ويُفكّك «عرشه العلويّ».

الرّجل، والّتي يمكن أن نصنّفها عامّة ضمن قسم الدّراسات الرّجاليّة Men's Studies على شرط وعيها الذّاتيّ بطبيعة انخراطها ورهاناته، من الدّراسات الذّكوريّة Masculinity Studies، الّتي أصبحت تخصّصا قائما بذاته مستقلّا بمواضيعه ومناهجه ومفاهيمه. ومن بين تلك المفاهيم، نقتصر على عرض مفهومي ثنائيّة «الذّكورة/ الذّكورات»، و«الذّكورة المهيمنة» لعلاقتهما المباشرة بالمقال.

1 – الذّكورة أو الذّكورات؟

هل يمكن أن نتحدّث عن رجولات هكذا بصيغة الجمع؟ ما الفرق بين الذّكورة بصيغة المفرد والذّكورات؟ تذهب الدّراسات الذّكوريّة إلى الفصل بين الذّكورة والذّكورات. وضمن هذا المبحث، تتحدّد الذّكورة باعتبارها جنسا مختلفا عن الأنوثة. أمّا الذّكورات فتستعمل للدّلالة على المسارالّذي تتشكّل من خلاله هويّة الرّجل الجندريّة فنقول متحدّثين عن شخص ما: «هذا رجل» ونحن نقصد مظهره الخارجيّ دون شكّ، ونهتمّ، أيضا، بأنظمة خطابه وسلوكاته وخبراته في المجتمع. وبذلك نعرّف الذّكورات بربطها بالشّدّة والبأس ورباطة الجأش والقوّة البدنيّة العضليّة والغلظة والفحولة الجنسيّة والقوامة والاستقلاليّة الماليّة وغيرها من المحدّدات الثّقافيّة والاجتماعيّة المختلفة. وهكذا فإنّ إقرارنا: «إنّ هذا الشّخص رجل» يضمر أنّه يتّصف بخصائص الرّجل وميزاته المذكورة.

على أنّ ما تقدّم يطرح قضيّتين ملتبستين: أولاهما أنّ كلّ تلك الخصائص قد لا تتوفّر في شخص واحد، بل يمكن أن يختصّ المرء بالبعض منها دون الكلّ. كأن يكون قيّما على عائلة قويّ العضلات ذا بأس داخل منزله وفي علاقته بأفراد عائلته: زوجته وأبنائه، على أنّه قد يكون أيضا لطيفا حسن المعشر ميّالا إلى الموادعة في علاقته برجال آخرين في موقع العمل مثل علاقته بمسيّر المؤسّسة الّتي يعمل فيها، أو أن يكون متعاليا على عمّال دونه مرتبة في التّراتبيّة الإداريّة في المؤسّسة نفسها. وهذا يطرح قضيّة تعريف الذّكورات ضمن مؤسّسات اجتماعيّة وفضاءات متنوّعة. ويطرح بالنّتيجة قضيّة ثانية وهي مشروعيّة الحديث عن ذكورة واحدة يتّصف بها الفرد الواحد في مختلف الوضعيّات، ويتّصف بها أفراد متعدّدون سواء في مرحلة تاريخيّة واحدة وبلد واحد وثقافة واحدة أو في مراحل

تاريخيّـة وبـلاد وثقافـات مختلفة. وهـذا ما يـبرّر الحديث عن الذّكـورات بـدل الذّكورة[11].

وبهـذا فـإنّ اعتبـار الذّكورة واحـدة لا يسـتجيب لملاحظاتنـا في التّاريخ العينيّ، ويسـائل تعريفاتنـا لهـا. ولذلـك جـاء مصطلـح الذّكـورات لتجاوز هـذا المـأزق. ويُقصد باسـتخدام مصطلـح الذّكـورات «الاعـتراف المأسـاوي بالتّنـوّع الكبـير في كيفيّـة تعريـف الذّكـورة عند مختلـف المجموعـات، بـل حتّـى في المجتمـع الواحـد وفي المرحلـة التّاريخيّة الواحـدة، وكذلك التّنـوّع في تعريـف الاختلافـات الفرديّـة»[12]. وإذا كانـت أفهامنـا للاختلافـات بـين الأفـراد متباينـة تكشـف عن تنـوّع، فـإنّ تعريفاتنـا للرّجل سـتتأثّر بأفهامنـا تلك. وهـذا مدعاة إلى القـول: «إنّ الرّجـال مختلفـون حقّـا». وإذا تأمّلنـا الواقـع الماثـل وتجربـة الأفـراد والفئات الاجتماعيّـة، فإنّنـا نعثـر على عوامل مؤثّـرة في صناعة الفـروق بين رجال ينتمـون إلى مجتمع واحـد أو إلى مجتمعـات عـدّة. وهكـذا فإنّ العامـل الثّقـافيّ والعامـل التّاريخيّ وعامل السّـنّ والعامل السّوسـيولوجيّ، هي سـياقات يتشـكّل ضمنها التّنـوّع الكبير في فهـم الرّجل. ونمثّل للعامـل الثّقـافيّ بطـرح الفروق بـين نظرة المجتمـع البريطانيّ ونظـرة مجتمع قبـليّ في كينيا أوعشـائري في اليمن للرّجـال. ما يدلّ أنّ ثقافة كلّ مجتمع تسـاهم في تحديـد تمثّلاته للرّجال. وكذلك الشّـأن بالنّسـبة إلى العامـل التّاريخيّ، فإنّ البـلاد المصنّعة المتحكّمـة بالتّكونولوجيّات عاليـة الدّقّـة اليـوم، لا تنظـر إلى الذّكـورات بمنظار بلـدان القـرن الثّامن عـشر. وفضلا عن ذلـك فـإنّ عامل السّـنّ مؤثّـر بـدوره في بنـاء صورالرّجال، ففـي العائلـة الواحدة قـد نعثر عـلى تبايـن التّعريفـات إذا مـا تباينت الأجيـال العمريّـة بين اليافع والكهل والشّـيخ. ونشـير في السّـياق نفسـه إلى العامل السّوسـيولوجيّ الّذي يحدّد بنـى متعدّدة في تمثّلاتنـا للذّكورات، ويجملهـا في الطّبقـة والإثنيّـة والعرق والجنسـانيّة والمنطقة والسّـنّ[13].

11 Jeff Hearn, '*Masculinity Masculinities', international encyclopedia of men and masculinities*, (Abingdon : Routeledge, 2007), p 391.

12 Michael Kimmel, «*Masculinities», in Men And Masculinities A Social, Cultural, and Historical Encyclopedia*, (California: ABC CLIO, 2004), p 503.
«The use of the plural–masculinities– recognizes the dramatic variation in how different groups define masculinity, even in the same society at the same time, as well as individual differences».

13 Michael Kimmel, Ibid, p 503–504.

فـإذا تعـدّدت البنى الاجتماعيّـة وتعـدّدت الثّقافات وتنوّعـت الأجيال وتناقضـت التّمثّلات عـبر التّاريـخ، فـإنّ الذّكورات بدورهـا تكفّ عـن الظّهور على هيئـة واحـدة وبتعريف جامع واحـد. وهـذا يبرّر الحديـث عن الذّكـورات جمعا لاسـتدراك الاختـزالات داخل جنـدر الرّجال مـن جهـة، ولتجـاوز التّركيز عـلى التّناقـض الجندريّ بـين النّسـاء والرّجال من جهـة ثانية. وبالإضافـة إلى مـا سـبق أبانـت تجـارب الأفـراد والمجتمعـات عن وجـود صراعـات تتجاوز التّقسـيمات الجندريّـة بالكامـل. فالرّجـل الأبيـض في أمريـكا لـم يمـارس عنصريّتـه ضـدّ الأسـود مستمسـكا بتفـوّق جنـدريّ تقليديّ، أي سـيطرة الرّجـال على النّسـاء. بـل إنّه فعل ذلـك بنـازع سـلطويّ هيمنـيّ قوامـه علويّـة الرّجـل الأبيض المفعـم بالقـوّة ودونيّـة الرّجل الأسـود المدان بالعجز. وتسـمّي رايوين كونـل Raewyn Connell الذّكـورة المتعالية المفرطة في تعقّـل ذاتهـا، الذّكـورة المهيمنة.

2- الذّكورة المهيمنة

اسـتعارت كونـل مفهـوم الهيمنة مـن «تحليـل أنطونيـو غرامـشي للعلاقـات الطّبقيّة»[14] وطبّقتـه في بحوثهـا منـذ الثّمانينـات. واسـتعملت الباحثـة الأسـتراليّة لأوّل مـرّة مفهـوم الذّكـورة المهيمنة سـنة 1983[15] لتشـير إلى جملـة السّـلوكات الجندريّة الهيمنيّـة للرّجال على النّسـاء. ويتـمّ ذلك ضمـن نظام بطريكيّ تسـمح شروطـه بعلويّـة الرّجال وخضوع النّسـاء وتبعيّتهـنّ[16]. وهـي ذكـورة قوامها «جملـة من المبـادئ والممارسـات الجندريّـة الّتي تشرعن الهيمنـة»[17] وتجعلهـا مقبولـة في مجتمع مـا. ومن بين هذه المبادئ، نشـير إلى معايير السّـلطة والثّـراء والبـأس فضـلا عـن السّـنّ والعـرق. وتـشرح كونـل في تعريفهـا للرّجـل معنـى أن يكـون السّـلوك منافيـا لمعاني المهمـين فتقول: «الشّـخص غـير الذّكوريّ سـيتصرّف بخلاف (المتّصـف بصفـات الذّكـورة): فيكـون مسـالما أكثر مـن كونـه عنيفـا، وميّـالا إلى المصالحة أكثـر مـن ميلـه إلى السّـيطرة، ويـكاد يعجز عن قـذف الكـرة، ولا يبـدي اهتمامـا بالغزوات

14 خالد عبداوي، **بناء الرّجولة من خلال خطاب المغازي**، إشراف آمال قرامي، (رسالة مرقونة) (منّوبة: 2019)، ص 4.

15 Jeff Hearn, Ibid, p 392.

16 R. W Connell, *Masculinities*, (Los Angeles : University of California Press, 2005), p 77.

17 آمال قرامي، «تصدّع بنية ‹الذّكورة المهيمنة› ومحاولات إنقاذها»، باحثات، الكتاب الثّاني عشر، (2007-2006)، ص 105.

الجنسيّة»[18]. وهذا يعني أنّ الذّكورة المهيمنة تقتضي صراعا حول الغلبة والسّيادة وما يحتاجه ذلك من سطوة وبأس وغلظة وقوّة بدنيّة وسلطة ماليّة. وتمثّل بذلك «الحلم الّذي يغذّي الجماعة ويسكن أعماقها. فهي الأنموذج الّذي تحوم حوله عديد التّصوّرات والتّمثّلات الاجتماعيّة فتجعله يحتلّ المركز في حين توضع بقيّة الذّكورات في الهامش»[19] وتجدر الإشارة إلى تأكيد كونل إنّ الذّكورة المهيمنة ليست جامدة ولا تنغرس في الواقع الاجتماعيّ مرّة واحدة، بل تتفاعل تاريخيّا مع ما يعترضها من تناقضات، ولذلك فهي ذكورة متحرّكة تتأثّر بمحيطها مثلما تؤثّر فيه[20].

مسارات تشكّل ذكورة البائع المنتصب

اعتمدنا في عملنا هذا على لقاءات مباشرة وبحوث ميدانيّة كمّية تضمّنت أسئلة حول متخيّل «الرّجلة» والأنظمة القيميّة الحافّة بهذا المفهوم. وقد ركّزنا على العائلة والمدرسة، باعتبارهما مؤثّرتين تأثيرا بالغا في تشكيل الفرد وبناء هويّته ونحت ملامحه السّوسيوثقافيّة والنّفسيّة. وحول سؤال «هل كنت تقبل إهانتك عندما كنت طفلا؟»[21]. أجاب 99 % من عيّنة تتضمّن مائة مبحوث بالرّفض. وفسّر 88 % من المستجوبين رفضهم الإهانة لأنّها مرفوضة في المطلق. فذهب 47 % إلى أنّه ليس من حقّ أيّ كان إهانة غيره، واكتفى 41 % بالقول إنّهم يرفضون الظّلم. وذهب 80 % من العيّنة ذاتها إلى التّأكيد على أنّهم في فترة المراهقة كانوا يبادلون العنف بغضب وعنف مضادّين، واكتفى 20 % فحسب بالقول إنّهم لا يردّون الفعل ويكبتون مشاعرهم، ومن بين جميع المستجوبين ذهب واحد فقط إلى القول إنّه كان يبكي ردّا على إهانته.

18 R. W Connell, Ibid, p 70.
«an unmasculine person would be have differently: being peaceable rather than violent, conciliatory rather than dominating, hardly able to kick a football, uninterested in sexual conquest».

19 أمال قرامي، م.م.، ص 104.

20 R. W Connell, Ibid, p 78.

21 السّؤال 151، الإحصاء الوصفي، ص 35.

أبان المبحوثون إذن عن سلوك رافض للإهانة واستعداد للقتال من أجل ردّ الظّلم. وكشفوا عن شخصيّة احتجاجيّة لا تتقبّل الاعتداء عليها بيسر وتبدي مقاومات وفق مناويلها وقدراتها في مرحلتي الطّفولة والمراهقة. ولا يبدو بكاء الطّفل أو المراهق معبّرا عن ضعف بالضّرورة، بل يمكن أن يكون بدوره ضربا من الرّفض واحتجاجا ممسرحا عبر كسر الصّمت والإفراج عن الصّوت وإعلائه وأداء لدور مقاوم بأدوات دفاعيّة قد تتحوّل إلى وسائل هجوميّة بتكرّر الاعتداءات والإهانات، وقد تخبو وتُحيّد مرحليّا لكنّها لا تكفّ عن التّأثير في الطّفل. إذ يظلّ هذا السّلوك او ذاك مرتبطا بالفضاء وشخص المعتدي ومكانته الاجتماعيّة. وهي أسباب تجد تفسيرها خارج الذّات في بعض الحالات، وقد تفسّر بعوامل نفسيّة شتّى منها كبت الغضب وكظم الغيظ ومنها، أيضا، الخوف والتّسليم بالضّعف في حالات أخرى. وفي جميع الأحوال فإنّ «المادّة المكبوتة تبقى مخزونة في اللّاشعور عند الطّفل، وتبقى هناك تتحكّم في سلوك الطّفل وتوجّهه بطريقة غير مباشرة في معظم الأوقات»[22].

ونرى أنّ العائلة تنهض بدور رئيسيّ في بناء هويّة الطّفل وتربيته على قيم محدّدة من أجل إعداده لمواجهة مجتمع الرّجال واختباراته القاسية والمتكرّرة دون هوادة. يتأكّد هذا في سؤال متّصل بترتيب قيم العطف والغلظة والشّجاعة والحيلة والمواجهة والصّمت وفق سلّم المعايير الّتي تربّى عليها الباعة المنتصبون الّذين قبلوا الإجابة عن الأسئلة. وضع 90 % من المبحوثين المواجهة في صدر قيم تنشئته، ثمّ صنّف 85% من بينهم الشّجاعة أوّلا، وجعل 60 % العطف أولويّة تربّوا عليها، ورتّب 40% غيرهم الغلظة في صدارة قيمهم الأولى، على أنّ 15% فضّلوا الحيلة، وجنح 10 % إلى اعتبار الصّمت سمتا ومنهاجا في تربيتهم العائليّة. وهكذا تجنح التّنشئة الاجتماعيّة للباعة المنتصبين في مؤسّسة العائلة إلى إنتاج معنى الكرامة ضدّ الهوان، وبناء شخصيّة المواجه ورفض شخصيّة الصّامت، ونحت قيمة الشّجاعة بدل الجبن. ولكنّ الملاحظ أنّ العطف[23] لا يغيب عن تربية العائلة

22 عبد المجيد خليدي وكمال حسن وهبي، **الأمراض النّفسيّة والعقليّة والاضطرابات السّلوكيّة عند الأطفال**، (بيروت: دار الفكر العربيّ، 1997)، ص 82.

23 ينبغي أن نشير إلى ضرورة مواصلة التّدقيق فيما إذا كان عطفا أو تعاطفا. وربّما يكون هذا مجال بحوث أخرى.

لأبنائهـا. وهـذا يشـكّل تمثّـلات اجتماعيّة تتمحور حـول نـواة مركزيّة هي المواجهة وتشـكّل الشّـجاعة والعطـف والغلظة عنـاصر محيطة بالنّـواة[24] وفق مـا يبيّنه الرّسـم اللّاحق.

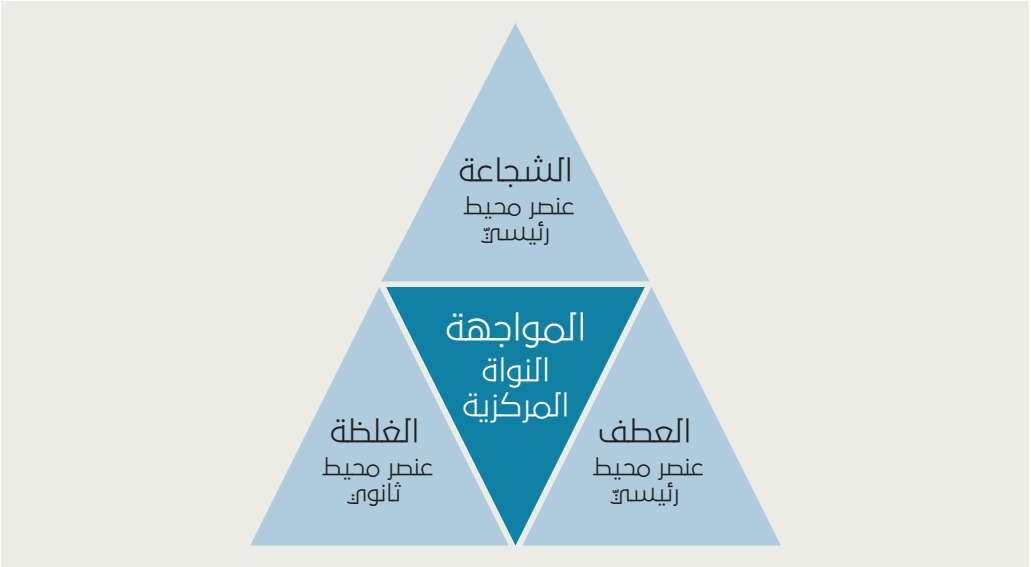

إنّ المواجهـة لـم تقتـصر عـلى مغالبة الصّبيـة والأنـداد في القـرى والأحياء الّتي نشـأ فيها المبحوثـون، بـل تعدّت ذلـك إلى مغالبة تاريخ عينـيّ ضاغط خلو مـن التّفهّم معجّـل بأحكام قاسـية لا تقبـل التّأجيـل ولا تعنـى بشيء مـن العطف. لعـلّ العطـف الّذي صرّح بـه جماعة مـن المبحوثـين لا يجـاوز درجة المكبوت الّذي صُعّد سـاعة السّـؤال، فكشـف بذلـك عن باطن شـخصيّة اضطهدهـا تاريخنـا الجماعيّ وأحالهـا رغما عنها خـارج مقاعد الدّراسـة. ومن ثمّ فقـد دخلـن المبحوثـون العطـف باعتباره شـعورا فقـدوه في خصمهـم المجرم الّذي يسـمّونه «ظروفـا» ونحـن نعلم أنّه ليس سـوى ذاك المجـرم الأزليّ المسـمّى دولة؛ المجرم الّـذي لا يبني مدرسـة ولا يعبّـد طريقـا ولا يوفّـر وسـائل تنقّـل ويكتفي بالضّبـط وينصرف غـير آبه. لقد ذهـب جميع مـن التقيناهـم ضمن مقابلات مبـاشرة وأسـئلة مفتوحة[25]، وعددهـم ثلاثة عشر

24 لمزيد من الاطّلاع حول هذه المفاهيم، انظر/ي:
Jean-Claude Abric, «les représentations sociales : aspects théoriques », dans *Pratiques sociales et représentations*, sous direction de Jean-Claude Abric, (Paris, PUF, 2001), pp 26-32.

25 مقابلات أجريت بين 5/ 10 و24/ 10/ 2021.

شخصا، إلى الإقرار: «إنّ انقطاعنا عن المدرسة لم يكن خيارنا. لقد أجبرنا على ذلك». ويتأكّد هذا في نتائج الاستبيان الّتي تشير إلى أنّ54 % من المبحوثين غادروا المدرسة مرغمين تحت إكراه الفقر والحاجة والعوز والاضطرار إلى الانتقال إلى سوق العمل. ويبدو أنّ الغالب الأعمّ ممّن التقينا مازال يحتفظ بموقف إيجابيّ من المدرسة. فقد اعتبر 87% أنّ المدرسة مؤسّسة ضروريّة، على أنّ 67% من بينهم يقرّون بفشلها دون أن ينفوا رغم ذلك ضروريّتها. وقد أبدى بعض من قابلناهم رغبة في العودة إلى مقاعد الدّراسة لو توفّرت لهم الفرص المناسبة، لأنّ تحصيل مستوى جيّد من الدّروس والشّهادات سييسّر لهم الحصول على وظيفة قارّة في الدّولة.

وبناء على ما سبق فإنّ العائلة والمدرسة بنتا نسبيّا ملامح البائع المنتصب في نهج إسبانيا. وإذا كان حضور العائلة فاعلا ومؤثّرا مباشرة في وضع الصّور الأولى للعالم والأشياء، فإنّ غياب المدرسة قد أثّر في تكوين فرد نشأ على الحرمان والفقد منذ طفولته. فلمّا فقد الطّريق والوسائل المساعدة على التّنقّل إلى مدرسته، تشكّلت معالم الحرمان الأوّليّ ونُحتت في الذّاكرة والنّفس البنى المكوّنة للبائع الشّابّ. فهل كان الحرمان من المدرسة وحده أصل كلّ حرمان؟ هذا ما لا يمكننا أبدا أن نجزم به ولا أن ندّعيه. ذلك أنّ الغالب من الأقران يرحلون باكرا عن المدرسة ويشدّون الرّحال نحو العاصمة. وقد يبدأ بعضهم العمل في حظائر البناء أو في المقاهي، ومن ثمّ يستقرّ في نهج إسبانيا صاحب تجارة أو مهاجرا «يحرق» منطق الحدود والقانون الدّوليّين. وهذا يعني أنّ المدرسة تؤثّر من خلال غيابها وتضع أسس الحرمان والعجز وتربّي في النّفس انفلاتاتها المقبلة ومقاوماتها القادمة وتمثّلاتها لذاتها ولعلاقاتها بالسّلطة ومؤسّسات الدّولة.

لكنّ التّنشئة الاجتماعيّة لا تتوقّف على العائلة والمدرسة قبل الهجرة إلى العاصمة، بل تتواصل بشكل أشدّ قسوة وعنفا بعد دخول سوق العمل. يؤكّد من قابلناهم على أنّهم بدؤوا العمل في شوارع العاصمة ومقاهيها وحظائرها، كلّ وفق تجربته، في سنّ مبكّرة بين الحادية عشر والثّامنة عشر غالبا. وإذا كانوا جميعا قد استقرّوا باعة في سوق نهج إسبانيا، فإنّ فضاءات العمل ومكوّناتها الاجتماعيّة والثّقافيّة والتّواصليّة قد خلقت منهم ما هم عليه اليوم. ويضاف إلى ذلك أيضا ما كشف عنه البحث الإثنوغرافيّ من أنّ العمل

بسوق نهج إسبانيا يظلّ محكوما في معظمه بتوزيع قبليّ وعائليّ يراسل من خلاله العمّ أو ابن العمّ أو الأخ أو الأب أفراد عائلاتهم الذّكور ليلتحقوا بهم باعة في السّوق المذكورة. وهذا يفرض وفق ما يبيّنه البحث الإثنوغرافيّ أن تظلّ الرّوابط بين الصّغار والكبار من العائلة الواحدة متأسّسة على احترام كبير وعلى تراتبيّة يؤمّنها عامل السّنّ والجهة والقرابة الدّمويّة الوثيقة. وهذا ينسّب مقالة المواجهة بأن يحصرها في التّصدّي لمن كان من خارج العصبيّة الوثقى، والسّمع لمن كان ركنا ركينا فيها أبا أو أخا أكبر.

ونؤسّس على ما تقدّم بنية تنشئة اجتماعيّة قدّت عناصرها من فضائل الشّجاعة والعطف وخلق المواجهة. ويحدث ذلك في بيئة مركّبة يسودها العوز والحاجة وينتصر فيه الحلم الأوّل إلى التّفوّق المدرسيّ والمسيرة الرّياضيّة المميّزة كما ورد في مقابلة مع أحد الباعة المنتصبين. ثمّ يعود ذاك الحلم خائبا منسّبا أطماعه في مغادرة المصير الجماعيّ ويراهن على معاودة إنتاج مسارات أقرانه ممّن سبقوه إلى نهج إسبانيا. فيركب المحاولة وقد وصلته دعوة من أب أو عمّ أو أخ أو ابن عمّ من جماعة «الغلايقية» والمنتسبين إلى فروعها، وهناك تبدأ صورة البائع المنتصب في التّشكّل النّهائيّ وهو ما يزال غضّا طريّا بعد. فكيف تُبنى هذه الصّورة، إذن، في عاصمة مزدحمة بنظام تفاعل مختلف وقيم مغايرة وصداقات محدودة أو منعدمة وسلطة متوحّشة وحاجة إلى توفير ما يسدّ الرّمق؟

محاولة في رسم «بورتريه» رجل

طلبنا من عيّنة المائة مبحوث ترتيب قيم الغلظة، والثّراء والتّكبّر، وتعدّد العلاقات الجنسيّة، والتّضامن مع المظلوم، والرّفض التّامّ لكلّ سلطة على سلّم من 1 إلى 5. فجاءت إجاباتهم على النّحو التّالي: التّضامن مع المظلوم أوّلا ثمّ الرّفض التّامّ لأيّ شكل من أشكال السّلطة يليه تعدّد العلاقات الجنسيّة أو الغراميّة ثمّ الغلظة ضدّ الجميع وأخيرا الثّراء والتّكبّر[26]. وممّا أفرجت عنه الأجوبة يمكن القول مبدئيّا إنّ ملامح البائع المنتصب تعبّر عن رجولة متضامنة أميل إلى مساندة المظلوم ونصرته ورفض أشكال السّلطة

26 الإحصاء الوصفيّ، السّؤال عدد 154، ص، 36.

والتّسلّط مع تعدّد العلاقات الجنسيّة ونفي للغلظة ضدّ الجميع ولصورة المخرّب فاقد كلّ موجّه أخلاقيّ، ورفض التّكبّر والتّعالي. وإذا ما وضعنا هذا التّرتيب ضمن ما خلصنا إليه من قيم التّنشئة الاجتماعيّة ونتائجها، فإنّنا نحصل على استنتاجات واضحة حول صورة رجل ذي بأس نازع إلى العطف والتّعاطف مثلما ربّته عائلته رافض كلّ إهانة. ويتجلّى ذلك في رفضه لأشكال السّلطة وهي كثيرة في سوق نهج إسبانيا. وهكذا فإنّ التّنشئة الاجتماعيّة الأوّليّة تستمرّ في النّبض والحياة في قيم البائع المنتصب وسلوكاته.

ونفهم الميل إلى التّضامن فهما اجتماعيّا موصولا إلى الأصول العائليّة المشتركة بين قسم واسع وغالب من الباعة، فيصبح التّضامن بينهم جزءا من فعل مقاوم من جهة، وواجبا أخلاقيّا ملحّا من جهة ثانية. غير أنّ سؤالنا لا يتعلّق بالتّضامن بين الباعة المنتصبين فحسب، ولذلك نرجّح أنّ طبيعة العلاقة بالسّلطة وحجم الاعتداءات اليوميّة على الباعة وافتكاك بضائعهم وفرض رشى من أجهزة الدّولة ذاتها على هؤلاء الباعة، يعجّل بتوليد انتصارات إلى من هم تحت، أولئك الّذين ينازعون قوّة ما ليحظوا بمساحة للوجود. إنّه انتصار للمظلومين من ظالميهم وردّ عدوان. فلا يستقيم مبدأ النّصرة دون مبدأ رفض السّلطة والقهر. ولمّا كان البائع المنتصب منبوذا من البوليس وساكنة نهج إسبانيا والشّرطة البلديّة وخلافها، فقد تولّد من النّبذ السّلطويّ نبذٌ مقابلٌ صاعدٌ من أسفل. وهكذا صار الباعة يبادلون القوّة بالقوّة والنّبذ بنبذ مقابل. وباعتبار أنّ المظلومين إنّما تظلمهم سلطة ما تمارس أنواعا مختلفة من القهر ومنه القهر ضدّ الباعة المنتصبين، فقد نشأت علاقة عطف على المقهورين والمقهورات وتحوّلت إلى قيمة متأصّلة في قسم من هؤلاء الباعة. ويشير بحث إثنوغرافيّ توصّلنا به إلى أنّ اللّصوص سرقوا من سيّدة أقبلت لتشتري من الباعة أدوات مدرسيّة مبلغا قدره أربعمائة دينار. ولمّا بلغ الخبر مسامع الباعة المنتصبين، قدّموا لها أدوات مدرسيّة بالقيمة الماليّة ذاتها حتّى لا يذهب بظنّها أنّ السّوق مربض للّصوص وحدهم. وشهد البحث الإثنوغرافيّ، أيضا، على تكفّل أحد الباعة بجمع مقدار من المال شهريّا لفائدة امرأة أنهكتها الحاجة. فتطوّع لتجميع ما يسدّ الرّمق ويكفي حاجة السّؤال باعتبار أنّ المذكورة أصيلة الغلايقية أي الجماعة القبليّة الأكثر حضورا في سوق نهج إسبانيا.

لـو عدنـا إلى تاريـخ منطقتنا زمـن الدّولة العبّاسـيّة لوجدنا الشّـطّار والعيّاريـن يأخذون مـن الغنـيّ وتـرقّ قلوبهـم للفقـير[27]. وكذلـك كان يفعـل لـصّ بغـداد ابـن حمـدي عندمـا يعـترض مواكـب الأثريـاء دون الفقـراء فيأخـذ منهـم دون أن يفنـي أموالهم[28]. هـي رجولة تخـترق الانتظامات الرّسـميّة الّتي ترسـمها سـلطة الأمر الواقع، وتشـيّد انتظاماتهـا الخاصّة وقوانينهـا الخاصّـة دون أن تتحـوّل إلى سـلطة قهريّـة بديلـة. وإذ لـم يقـو منتصب سـوق نهـج إسـبانيا عـلى بلورة صـورة فتى مـن فتيـان العيّارين ولا صـورة ابن حمـدي وصحبه، فقـد سـار عـلى منهـاج التّضامنـات الأفقيّـة غـير الملتزمة خـطّ السّـلطة. فرفـض أن يكون صانـع المشـاريع الانتخابيّة أو المصالـح المتبادلة، مفضّلا تأسـيس صورة التّضامن الإنسـانيّ العـاري مـن زينـة المدنيّـة والحضـارة المعاصرتـين والمنحـاز إلى بسـاطة القيـم الأولى: قيـم العطـف ورفـض السّـلطة ونـصرة المظلومين.

وفضـلا عن ذلـك فإنّ البائـع المنتصب في سـوق نهج إسـبانيا لا يقوى على تأسـيس عائلة بيـسر وفـق المقابـلات الّتي توصّلنـا بها. وقـد وردت شـهادات تؤكّـد أنّ التّجـارب العاطفيّة سرعـان ما تغرق في وحـل الواقع الاجتماعـيّ الصّعب فتغدو أثـرا بعد عين. وتتصـدّى العائلة لتجربـة الحـبّ بطـرح أسـئلة حارقة حـول قضيّـة العمل القـارّ، والمسـكن اللّائـق، والقدرة عـلى تأسـيس أسرة. والبائـع المنتصب هـو ذاك الطّفل الّذي غـادر منزل والديـه مبكّرا مكرها ومضطـرّا حتّـى يحصّـل بعض الـرّزق. إنّه رفقة أبنـاء عمومتـه وجماعة من أقرانه يشـقّ له طريقـا بـين جماعـة الرّجـال. فيصنع بيديـه طريق المكسـب المـاليّ ويوفّر حاجاتـه وحاجات عائلتـه. سـيضطرّ مـن أجل ذلـك إلى الجـري بسرعـة متأبّطـا بضاعته وفـارّا مـن اعتداءات البوليـس. إنّ الجـري والفـرّ وإنقاذ البضاعـة هي طقوس عبـور نحو الرّجولـة. وهي مواعيد الاختبـار الّتـي يخضـع لهـا البائـع المنتصب الطّفـل وعليـه أن يثبت كفـاءة رجولتـه ويبدي قدرتـه عـلى تحصـين البضاعـة. وعندما تكون لـه نصبته الخاصّـة بعد سـنوات ويصبح غير قابـل لعمليّـات الفـرار الجبانـة لمن هم في سـنّه، فإنّـه يتّبع مسـلك المهادنة فيمنـح رشى لقاء

27 محمّد رجب النّجّار، «**حكايات الشّطّار والعيّارين في التّراث العربيّ**»، عالم المعرفة، عدد 45، (الكويت: المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، 1981)، ص 59.

28 المرجع نفسه، ص 60- 61.

صمت البوليس أو مقابل استرجاع بضاعته من مستودع البلديّة.

وقد بيّن بحث إثنوغرافي اعتمد تقنية المشاركة بالملاحظة[29] أنّ ثلاثة باعة علّقوا على مرور فتيات تعليقات تركّز على الجسد وتعبّر عن افتتان بالجنس. وقد سبق أن ذكرنا نتائج استبيان حول ترتيب مجموعة من القيم فورد تعدّد العلاقات الجنسيّة في مرتبة ثالثة بعد التّضامن مع المظلوم ورفض السّلطة. ويصاحب التّعليق على الجسد الأنثويّ بعبارات مألوفة تنتصر إلى مركزيّة القضيب وخضوع الكثيب. وهذه الألفاظ الموسومة بالبذاءة هي من المعجم الحاضر بقوّة في نهج إسبانيا بين الباعة. تتحدّث قاطنة بالنّهج المذكور في مقابلة نصف موجّهة[30] عن تميّز هذا السّوق «بطابع العنف بكل أشكاله المادي والمعنوي والرمزي المتمثل في الصراخ والشتائم وسب الجلالة حتى نصل إلى الشجارات العنيفة التي تبلغ وترتقي إلى درجة الجريمة والعنف الشديد المتبادل، المنتشرة فيه والتي تطغى في كل ثنايا وتفاصيل العلاقات التي تجمع الثنائيات التالية: الباعة/الباعة، الباعة/ الجيران، الباعة/الأمن، الباعة/التجار المجاورين، تجعل من الشارع يتجسد ويتمثل لدى الجارة على شكل/هيئة نموذج يحاكي هامش مدينة «شيكاغو» الأمريكية وفي إسقاط للفكرة السائدة عنه على أنه مصدر للفوضى وللازدحام والتي تسجل نسبة الحوادث عالية من الجريمة والعنف»[31].

وقد أجاب 57 مبحوثا على سؤال هل تستعمل العبارة البذيئة بنعم، ونفى 29 ذلك فيما أجاب 14 بالقول: «نعم أحيانا». وهكذا فإنّ 71 بائعا ممّن قبلوا الإجابة على أسئلة الاستبيان يعتمدون ما يصطلح على تسميته باللّفظ الشّائن. على أنّ 17 مبحوثا فقط بيّنوا أنّهم دائموا التّلفّظ بما يعيب ولا يمنعهم من ذلك أيّ مانع. أمّا البقيّة فقد أكّدوا أنّهم لا يقوون على استعمال مفردات معيبة بحضور نساء أو شيوخ أو أطفال في استحضار لقيمة الحشمة والحياء ومعنى العيب واحترام متأسّس على الجندر والسّنّ

29 بحث إثنوغرافيّ أجراه الباحث إسكندر بن عمر لفائدة هذا المؤلّف الجماعيّ. (انظر الملحق عدد1).

30 دليل مقابلة نصف موجّهة مع إحدى جارات الباعة.

31 المصدر ذاته.

ومنسوج في البيئة الّتي نشأ فيها أغلب المبحوثين. ويعني ذلك أنّ نزعة الانفلات اللّفظيّ ليست مطلقة، وهو انفلات مسيّج بحضور رجاليّ من طبقة عمريّة متقاربة. هذا يجعلنا نفهم العبارة البذيئة من ثلاثة وجوه. أوّلا باعتبارها طقس عبور في مستوى عمريّ معيّن من الطّفولة والمراهقة إلى الشّباب. وثانيا باعتبارها من عادات الخطاب الذّكوريّ الّذي يطغى عليه العنف اللّفظيّ والمنحاز إلى المفردة الخشنة (تسمّى «لغة حرشة» في الاستعمال التّونسيّ الدّارج). وثالثا لكونها تعبيرة ذكورية تكشف عن جانب عدواني يلتبس ببناء الرّجل القادر على المواجهة وإحراج الآخر أو استفزازه ومعنى هذا هي علامة على التّموقع في عالم الذكورة المهيمنة أو التّماهي معها. وهذا يمنحنا بورتريه رجل ملتزم تجاه جماعته ومنحاز إلى المظلومين ورافض للظّلم والسّلطة، ومتشوّق إلى تجربة الجنس وهو المهاجر من اليبس والجفاف والقحط إلى اللّين والخصوبة المتخيّلين. هوبائع منتصب نشأ على فضائل نموذجيّة واحتفظ بها ولم ينقلب عليها. فتحرّك البنية المبنيّة فيه لتركّب عناصر بنية بانية[32] ووسائلها التّاريخيّة. وهكذا يعيد بائع سوق نهج إسبانيا إنتاج ما تربّى عليه، بل يفرضه خارج منابته الأولى في أرياف الدّواخل عامّة أو أحياء أحزمة الفقر أحيانا. إنّنا إزاء من يرتحل خارج فضاءات طفولته وتنشئته فيحمل حقيبة سفره وحقيبة قيمه ليدسّها في تمدّن الحاضرة بيئة ساكنتها. وإذا اعتمدنا المصطلح البورديويّ فإنّنا نشير إلى تطبّع راجع[33] hystérisis de l’habitus يرتدّ مع حقيبة السّفر ويشكّل منهج هيكل القيم وفلسفتها النّاظمة وروحها التّاريخيّة رغم انقطاع الماضي وشروطه عمليّا. فهل تمكّن هذا الرّجل المغامر المرتحل من غباره الأوّل صنيعة الدّولة إلى غبار نهج إسبانيا صنيعته (الرّجل المرتحل) ضدّ الدّولة من تشييد ملامح مغامرة ذكوريّة أصيلة أم ظلّ حبيس النّماذج والصّور المثاليّة للرّجل المعياريّ؟

32 Pierre Bourdieu, *La Distinction*, (Paris : Minuit, 1979), p 191.

33 لمزيد من الاطّلاع، انظر/ي:
Pierre Mounier, *Pierre Bourdieu une introduction*, (Paris : La Découverte, 2001) pp 44-45

ذكورة الآخر وفلسفة كسر النّماذج

يذهب البحّاثة في علم النّفس الاجتماعيّ مثل جون كلود أبريكJean-Claude Abric وباسكال موليني‌هPascal Moliner ووليم دواز Willem Doise وسيرج موسكوفيتشي Serge Moscovici ودينيز جودليه Denise Jodelet إلى الحديث عن التّمثّلات الاجتماعيّة باعتبارها تعبيرا عن تمثّل الذّات لموضوع خارجيّ ما. تمثّل يحدّد الموضوع ويعرّفه ويلغي بذلك الفواصل بين الذّات والموضوع، فيغدو كلّ تمثّل داخليّ وذاتيّ تمثّلا اجتماعيّا بالضّرورة[34]. وقد انطلقنا من مقاربات جون كلود أبريك في وضع أسئلة الاستبيان وفي تعرية النّواة المركزيّة ودفع المبحوث دفعا إلى التّصريح بحقيقة تمثّلاته. ولذلك اعتمدنا مبدأ التّرتيب خاصّة في تمثّل الرّجولة والعلاقات بالسّلطة وتمثّل الإهانة والاحتقار (الحُقرة بوضع ثلاث نقاط على القاف مثلما تتلفّظ في تونس). فإذا ما انطلقنا من المقابلات الّتي وصلتنا واستمعنا إلى الخيبات العاطفيّة للباعة وأسبابها مسرودة على ألسنتهم ، فإنّنا سنعثر على ملامح الرّجل النّموذجيّ في التمثّلات الاجتماعيّة للعائلة التّونسيّة الّتي رفضت المصاهرة. ويمكننا أن نجمل تلك الملامح بتحفّظ في مبدأ القوامة وخاصّة القوامة الاقتصاديّة ونقصد بذلك القدرة على حماية العائلة اقتصاديّا بتوفير الغذاء والملبس والمسكن وتأمين حياة هادئة. ومع ذلك فإنّ القيّم على عائلة ينبغي أن يحميها من أخطار الاعتداءات، ويحتاج في ذلك إلى قوّة ما. ربّما قوّة العلاقات الاجتماعيّة المبنيّة وفق مبدأ المكانة، أي ذاك الشّكل من أشكال السّلطة الّذي يمنحنا إيّاه موقعنا ودورنا في الحياة الاجتماعيّة.

وهكذا فإنّ النّظام السّيميائيّ الرّمزيّ الّذي يهيكل التّمثّلات الاجتماعيّة للرّجل المقبول من المجتمع والمصادق على قيمه وسلوكاته، هو نظام يتأسّس على هيمنة الرّجال خارج

34 Jean-Claude Abric, Ibid, p 17-18., Willem Doise, représentations sociales et analyses de données, (Grenoble : Presses Universitaires de Grenoble, 1992) pp 12- 15., Pascal Moliner, Patrick Rateau, Valéri Cohen-Scali, *les représentations sociales pratiques des études de terrain*, (Rennes : Presses Universitaires de Rennes, 2002) pp 12-15., Serge Moscovici, « des représentations collectives aux représentations sociales », dans Les représentations sociales, direction Denise jodelet, (Paris : Presses Universitaires de France, 1991), pp 62-85., Denise Jodelet, « représentations sociales : un domaine en expansion », dans les représentations sociales, direction de Denise Jodelet (Paris : Presses universitaires de France, 1991) pp 42-49.

جندرهـم بمعنى هيمنتهم على النّسـاء وإخضاعهـنّ ومواصلة إنتاج سـيمياء التّمثّلات ونواتها المركزيّـة، أي علويّـة الرّجـل ودونيّـة المـرأة. ولا يتحقّـق هذا الهيـكل البطريكـيّ دون أدوات مادّيـة تؤمّـن الحاجـات البيولوجيّـة للعائلة زوجة وأبنـاء، وما يلزم الأسرة مـن رعاية وعطف وحنـوّ وسـلام حتّـى تسـتقرّ أوضـاع أفرادهـا وربّما يقتـضي العطف فعـلا جنسـيّا محقّقا للإشـباع والكفايـة. ولكـنّ الهيمنة خارج جنـدر الرّجال أي الهيمنة على النّسـاء ليسـت كافية بـأيّ معنـى. فـأيّ جـدوى للسّـطوة في المنـزل وإخضـاع الزّوجـة والأبنـاء إذا كان الرّجل في المجتمـع خاضعـا وتابعـا ومقيّـدا؟ ولذلـك فإنّ مجـرّد الهيمنـة على النّسـاء لا يبـدو مجزيا. إذ سـيحتاج الرّجـل إلى هيمنـة داخـل جندره أي هيمنـة على رجـال آخرين. أمّـا عناصر هذه الهيمنـة فهـي وفـق عائلاتنا المذكورة لا تخـرج عن المكانـة الاجتماعيّة. وليـس مهمّا أن تكون مكانـة رفيعـة بـين عليـة القـوم وسـاداتهم، بل يكفـي أن يكـون الرّجـل موظّف دولـة، أي أن يمتهـن مهنـة لا تلفـت إليها أنظـار الواصمـين والمحتقريـن والمتربّصين. وتعتقـد العائلات عـلى الأرجـح أنّ الموظّـف سـيتمكّن مـن توفير مسـكن وسـيمنح عائلتـه حـدودا مقبولة من الاسـتقرار العائـليّ. كمـا أنّـه يحوز رأسـمال ثقـافيّ مسـاعد على منـح أبنائه وضعا مدرسـيّا سـليما. ومـن ثمّ فـإنّ رأسـماله الاجتماعيّ يكفي لرسـم صورة صهـر خيّر تطابق سـلوكاته الأنظمـة المعياريّـة الّتي يضعهـا المجتمع وتنضبـط لها العائلـة عامّة.

ونؤسّـس عـلى ما تقـدّم أنّ الصّورة المعياريّـة أو المهيمنـة للرّجل منبنية على مبـدأ القوامة ومنطـق المكانـة الاجتماعيّـة. صحيـح أنّ هـذه القاعدة تنكسـر كلّمـا كان المال وفـيرا طاغيا فيغطّـي حرفـة المتقدّم بطلـب زواج، ولكنّ تجربـة الباعة المنتصبـين الّذين قدّموا شـهاداتهم لا تنسـجم مـع المثال الثّانـي. فهم لحظـة تقدّمهم مـن حبيباتهم فقـراء بما يجعـل تقييمهم سـلبيّا مهمـا أبـدوا مـن انسـجام مـع معايـير الذّكـورة النّموذجيّـة. ولا نؤكّـد، أيضـا، أنّ البائـع المنتصـب عندمـا يوفّـر المـال ويكنزه كنـزا سـيصبح مقبـولا بالـضّرورة. ولا يمكننا أبـدا أن نكتـب قواعـد عامّـة لفهم ظواهـر اجتماعيّـة مركّبـة تركيبا معقّـدا إنّما نحـن نركّز عـلى باعتنا فحسـب وعـلى تجاربهـم وحدها، وهي دون شـكّ غـير كفيلـة ببناء قوانـين كلّية. وبعـد هـذا التّنسـيب يمكننـا القـول إنّ ذكـورة البائـع المنتصب في سـوق نهج إسـبانيا هي

ذكـورة لا تناسـب المعايـير الاجتماعيّـة. وبالعـودة إلى شـهادة جـارة الباعـة[35] وتركيزها على مسـألة النّظافـة والخطـاب والعلاقـات بـين الباعـة أنفسـهم وشـهادة بائـع سـابق[36] تكرّر المعانـي ذاتهـا تقريبا، فإنّنا نظفـر بتمثّـلات اجتماعيّة متوجّسـة من ذكورة البائـع المنتصب باعتبارهـا ذكـورة القبـح بمختلـف دلالاته، وقبحهـا جليّ من حيـث ظاهرُها العنيـف البذيء المتّسـخ الّـذي يبصق ويتبـوّل حيثمـا كان كما تقول تجربة اسـكندر بـن عمـر الإثنوغرافيّة.

وفي الواقـع ثمّـة مسـافات فاصلـة بـين ظاهرنـا الّـذي يـشي بصـور مـا، ونحـن حقيقة أي صورتنـا الفعليّـة. لذلـك فـإنّ ملاحظـات إسـكندر وحدهـا لم تكـن كافية وفق شـهادته شـخصيّا بـل نصـح بإجراء مقابـلات لمزيد رسـم ملامـح المنتصب. غـير أنّ بحثـا إثنوغرافيّا أمّنـه أمـير وهـو مـن الأصـول الجهويّـة والثّقافيّـة ذاتها الّتـي ينتمي إليها قسـم واسـع من الباعـة، كشـف عـن صور أخـرى لهـؤلاء الباعـة. أوضـح أمـير أنّ الباعـة يحقّقون مكسـبا يوميّـا لا يقـلّ عـن سـتّين دينـارا، وقـدّر ربحهـم الأسـبوعيّ بثلاثمائـة دينـار. بـل ثمّة من أصبـح صاحـب معمـل خياطـة يمدّ بقيّـة إخوتـه في السّـوق بالبضاعـة لبيعها. ومـن الباعة أيضـا، مـن كان قبل سـنوات يسـافر إلى الصّين لتوفـير بضاعته ونقلهـا إلى ليبيا ثـمّ إدخالها إلى تونـس. ويعنـي ذلـك أنّ البائـع المنتصـب ليـس بالـضّرورة فقيرا تائهـا محتاجـا كريها متّسـخا، بـل هو أيضـا ذو مكانـة مرموقة ومـورّد تعترف بـه الدّولـة ويعمل وفـق أنظمتها قبـل 2011. وهـذا مـا يجعلنـا ننسّـب مقالاتنـا ونركّزهـا عـلى أغلبيّـة الباعـة وليـس عـلى جميعهـم. والأغلبيّـة مـن بينهم وفـق اسـتبياناتنا لا تسـتطيع تأمـين حاجاتها وليـس لديها بطاقـات عـلاج ولا تهتمّ بالشّـأن العموميّ أصـلا. نتحدّث عـن عيّنة من مائـة مبحوث 69% مـن بينهم لـم يتجـاوزوا المرحلة الإعداديّـة أي أنّ رأسـمالهم الثّقـافيّ متدنّ. وهـم منحدرون مـن عائـلات فقيرة مـا يعني أنّهـم ورثوا رأسـمال اجتماعـيّ واقتصـاديّ وثقـافيّ ضعيف إذ أنّ 94 % مـن آبـاء المبحوثـين لم يجـاوزوا المرحلة الإعداديّـة، ولم تجاوز 95% مـن أمّهاتهم المرحلـة التّعليميّـة ذاتهـا. وتبـدو هذه العوامل مسـاهمة في نبـذ الباعة وإقصائهـم من العالم الاجتماعـيّ الجديـد، أي نهـج إسـبانيا. بـل إنّ 82 % يتمثّلـون أنفسـهم معطّلين عـن العمل

35 مقابلة نصف موجّهة أجريت بتاريخ 18 ديسمبر 2021.

36 مقابلة نصف موجّهة أجريت بتاريخ 19ديسمبر 2021.

وبذلك فهم يعتبرون مهنتهم مرحلة عابرة وعطالة بمعنى ما. وهذا يشي بأنّ الباعة يدخلنون قوانين المجتمع رغم كلّ شيء. وهم بذلك معياريّون في مستوى التّمثّلات العميقة للذّات وفي توقّعهم للرّجل الظّافر المقبول اجتماعيّا. وهذا طبيعيّ فليس من المنطقيّ أن يكونوا منفصلين بالكامل عن المجتمع.

وإذا أضفنا اعتداءات البوليس وقد تحدّث عنها إسكندر في ملاحظته وأكّدها أمير في بحثه وظهرت جليّة في المقابلات والاستبيانات (96 % من المبحوثين افتكّت منهم بضاعتهم وتعرّضوا لاعتداءات بوليسيّة)[37]، وتمثّل الباعة للمستشفيات باعتبارها غير موثوقة حتّى أنّ 85 % من المستجوبين لا يثقون في المؤسّسات الصّحّية[38] ولا يملك 90 % منهم بطاقة علاج ولم يلقّح أيّ من المبحوثين المائة على الإطلاق[39]، فإنّنا نحصل على فرد حوّل نبذه إلى نبذ مضادّ وجعل من إقصائه مبرّرا لدخلنة عداء واضح لمؤسّسات الدّولة وأجهزتها. وسيتجلّى ذلك بشكل أوضح في إجاباتهم عن سؤال حول موقفهم من البوليس. فقد أبدى 90 % من المبحوثين موقفا سلبيّا بل سلبيّا جدّا بالنّسبة إلى 80 % من بينهم. بل أكّد جميع المبحوثين أنّ الدّولة لم تساعدهم في تأمين فضاءات توفّر لهم عملا لائقا بعيدا عن ملاحقات البوليس وابتزاز أعوان الشّرطة البلديّة، وأنّ الدّولة لم تساعدهم بالمرّة خلال مراحل الإغلاق العامّ زمن جائحة كوفيد 19[40]. فما الّذي ننتظره من باعة منبوذين من الدّولة والمجتمع والإعلام؟

إنّنا نتحرّك غالبا ضمن قوانين مؤبّدة يصعب تدقيقها ومراجعتها وتعديلها فضلا عن تغييرها ونفيها. تلك النّظم السّيميائيّة والقوانين المدسترة وأنظمة الضّبط والتّوجيه والتّمويه والتّبرير تخلق بكلّ وضوح مجتمعات متنافرة لا مجتمعا واحدا. في الواقع فإنّ مقولة الانسجام الاجتماعيّ داخل المجتمع وبين طبقاته وفئاته وجنادره هي مقولة

37 السّؤال 101 والسّؤال 112 من الاستبيان.

38 السّؤال 72 من الاستبيان.

39 السّؤال 53 من الاستبيان، والسّؤال 76 منه.

40 السّؤال 77من الاستبيان.

إديولوجيّة لا علميّة وتبريريّة تهدف إلى تنميط العلاقات بين الأفراد وتوريطهم في أنساق معدّة سلفا لهم حتّى ينخرطوا فيها وينضبطوا لقواعدها. ولا ريب أنّ مقالات مثل التّربية السّليمة والخلق الحسن والذّوق الحسن واللّباس الأنيق وخلافها، ليست إلّا بناءات سلطويّة تضعها منطقة النّفوذ السّوسيوثقافيّ والطّبقيّ هذه أو تلك، وتحوّلها إلى أدوات التّوجيه والهيكلة، جامعةً وإعلامًا ومجتمعا مدنيّا تابعا إلخ... إلى حقائق ومعايير. فإذا شاهدنا شعرا أشعث مغبرّا ليس لصاحبه مأوى يتوفّر على وسائل النّظافة والشّروط الصّحية، وليس له الوقت الكافي ليهتمّ بنظافته أصلا، بل هو لا يعتبر نظافة جسده شأنا بالغ الأهمّية، فإنّنا نحاكمه بمنطق السّوق. فنخبره إنّ الشّامبو والصّابون والماء وسائل متوفّرة على قارعة الطّريق. وإنّ تنظيف جسمنا لا يحتاج أكثر من شراء عبوة شامبو مثلا. تستنفرنا علامات المعقّمات والمنظّفات عامّة، فنركض خلفها ونحن نعتقد أنّنا نلاحق نظافتنا، عندما نلاحق ضغط الإشهار علينا بل ضغط المعايير الّتي تبرّر استهلاكنا المفرط.

لعلّ الّذي لا يشاهد التّلفاز كثيرا ولا يعبأ بنقاشات البورجوازيّة الصّغرى حول أفضل المباركات، قد لا يعبأ بالأنظمة الرّمزيّة الّتي تقف خلف تلك العلامات التّجاريّة. هل نفترض أنّ رفض الاستحمام اليوميّ هو مسألة تنشئة على قيم البادية من رعي وزمن مستنزف من الأشغال خارج البيت وتوفير حاجات الأغنام والأرض والشّجر؟ كيف كان العرب يؤدّون حجّهم قبل الإسلام[41]؟ لنقرأ عن الشّروط التّاريخيّة لصناعة العطور في فرنسا ومبرّراتها الثّقافيّة[42] ولننتبّع إذن إيتيمولوجيا المفردة parfumer[43]. ولا نقصد بهذا كتابة تبرير الوسخ واصطناع تفهّمات له، بل نشير إلى أنّ القيمة قيم والفهم أفهام والتّمثّل تمثّلات والإنسان متعدّد تعدّد سياقات وجوده وتأثيره في العالم وتأثّره بالموجودات فيه. ولذلك لا يمكننا أن نقيس سلوك الأفراد وتوجّهاتهم بمعايير لا يعونها

41 يمكن العودة إلى كتاب تاريخيّة الدّعوة المحمّديّة في مكّة لهشام جعيّط وكتاب جاكلين الشّابّي ربّ القبائل.

42 Jean- Pierre Leguay, *La pollution au moyen âge*, (Quintin : éditions Jean-Paul Gisserot, 1999).

43 للاطّلاع على أصول المفردة، انظر/ي:
https://www.littre.org/definition/parfumer

ولا تعنيهم في لحظة محدّدة، وقد تعنيهم في لحظة مختلفة. فالبائع المنتصب نفسه في حفلة زفاف عائليّة سيضع العطور ويرتدي خير لباسه. لكنّه في العاصمة البعيدة مقيّد بحرفته ومشاقّها وزمنها الممتدّ لستّ عشرة ساعة كما يقول أحد المبحوثين[44]. ولعلّ ذلك يعني أيضا أنّ معايير الأهل والمعارف في البيئة القرويّة هي الّتي تحرّك الباعة. فيقفون أمام المرآة ليشاهدوا شروط مجتمعهم ومطالبه وأعرافه، ويخضعون لها في تلك البيئة الدّالّة عندهم. غير أنّ العاصمة فضاء يجهلهم ولا يسلّط مجتمع العاصمة على الباعة أيّ عرف أو تقليد، فلا يأبهون عندها بزينة أو عرض أو مرآة ذلك أنّهم تخلّصوا من ضغط الاختبارات الاجتماعيّة.

وبتتبّع سياقات المبحوث وحدها ومحاولة التّعرّف إليه وفق شروط يوميّاته، فإنّنا نميل إلى أن نعتبره خارجا عن السّيمياء العامّة منزاحا نحو كسر النّماذج مؤنّثا لصورة الرّجل المختلف. إنّه آخر بكلّ بساطة وليس صورة مستنسخة عن أنا نموذجيّ موافق لرغبات الجمهور. إنّه بائع منتصب يبني غيريّته على معايير سائلة مطواعة تناسب هويّاته ولا تهتمّ بملاحظاتنا. إنّها رجولة الآخر الّذي يتصدّى للسّلطة وينفلت من قمعها إنّه ذاك الّذي يكسر صورة الهيمنة والبطريكيّة ويضرب الذّكورة المهيمنة في مقتل. ونقصد بالذّكورة المهيمنة ذكوريّة البوليس وذكوريّة الجهاز أيضا. فوزارة الدّاخليّة محضن لرجال متسلّطين عبوسين غليظين قساة مقاتلين عتاة. وقد اجتمعت لديهم سطوة المال وسطوة العصا، واستعملوا أدوات الدّولة وقوانينها ليتحوّلوا إلى طبقة اجتماعيّة اقتصاديّة أو يكادون. ولذلك نحن نتأوّلهم باعتبارهم ممثّلي ذكورة مهيمنة ونعتبر الغيريّة الّتي يبنيها البائع الفارّ من ملاحقات السّلطة البوليسيّة هي غيريّة ذكورة الآخر وهي تراوغ الذّكورة المهيمنة وتكسرها في مواطنها وفضاءاتها. فيفرّ تارة حاملا بضاعته متحدّيا الأجهزة العقابيّة، ويعتمد «سياسات التّحت»[45] infrapolitics، أي «استراتيجيّات مقاومة» بعبارة جيمس سكوت James Scott من بينها دفع الرّشى واستعادة المحجوز

44 السّؤال 36 من الاستبيان.

45 James C. Scott, *Domination and the Arts of Resistance Hidden Transcripts*, (New Haven and London : Yale University Press, 1990), pp 183-184.

ومعـاودة عرضه. إنّ رشـوة السّـلطة والانفـلات منها خطوتان منسـجمتان مـن زاوية نظرنا باعتبارهمـا تعبيرتـين عـن مراوغـة للسّـلطة وكسر للأنظمـة والقوانـين. هذا الآخـر صنع له داخـل سـياجات القانونيّ فضاءات واسـعة مـن «اللّاشرعيّـات» illégalismes[46] وفق ترجمة مطـاع صفـدي لمصطلـح ميشـال فوكـو Michel Foucault. تلـك اللّاشرعيّـات الّتـي تبني وجـودا قائمـا بذاتـه ولا تعـبّر بالـضّرورة عن حـالات تنافـر، وهي اختلاف وليسـت نشـازا. ثـمّ هـي حالات أخـرى وليسـت انحرافـات. ولذلـك فـإنّ المنتصب ليـس مجرمـا ولا منحرفا بـل هـو مجـرّد كاسر للمعايير وبـان للاشرعيّة شـعبيّة بعبارة فوكـو دائما. إنّه بكلّ بسـاطة آخـر. وأنمـوذج الرّجـل الّـذي يقترحه، هـو رجل يعبّر عـن ذكورة الآخـر التي تشـبه الذّكورة المهيمنـة والذّكـورة المتواطئـة [47]، ولكنّهـا تظـلّ متميّـزة بقدرتها عـلى أن تقيم ضمـن آخريّة خاصّـة تنفلت مـن رقابات السّـلطة وعقاباتها ولو بإجبار السّـلطة على أن تتحوّل إلى سـلطة فاسـدة وفـق معايير السّـلطة. إنّ البائـع المنتصب يسـتعيد بضاعته وحياته برشـوة البوليس وهـو بذلـك يمـارس شـطارة ما على غـرار شـطّار بنـي العبّـاس. وهـو لا يفكّـر في آخريّته ولا يضـع خطّـة لهـا ولا ينجـز دراسـات نظريّـة لتبريرهـا. هـو ينجزهـا فحسـب ويحيا في انفلاتـه وفي خـوض صراعاته انتصـارات وانكسـارات ضدّ القـوّة والأقوياء. وهـو أيضا يفهم القـوّة ويرتكبهـا وهو بـدوره متسـلّط عنيف ضدّ رفقتـه أحيانا، وهـذا يفسّر برفضـه لمهنته ورفضه لمصيره.

وفي سـعيه لمغـادرة مهنة البائـع المنتصب فإنّه لا يلتزم المعايير السّـلطوية كثـيرا. فالهجرة إلى إيطاليـا كـسر جديـد للسّـلطة باعتبـار أنّهـا هجرة ترفضهـا دولـة ايطاليـا وتتربّص بها دولـة تونـس. وإذا أعدنـا الإشـارة إلى لباسـه أثنـاء عملـه باعتبـاره مظهـرا مميّـزا وهويّـة ومسرحـا بذاتـه، وربطنـا هذا المظهـر بالعلاقـة العدائيّـة بالبوليس وانعـدام الثّقـة في الدّولة وأجهزتهـا، بـل وفي تمثّـل البوليس لـه وفق شـهادة قدّمها أحد الأعـوان، فقد صـحّ القول إنّ البائـع المنتصب جعل مـن اللّاشرعيّـات المبنيّة سـلطويّا وبطريكيّـا أنظمة وجوديّـة يختارها

46 ميشال فوكو، **المراقبة والمعاقبة ولادة السّجن**، ترجمة مطاع صفدي، (بيروت: المركز الثّقافّي العربيّ، 1990)، ص ص 273- 285.

47 لتدقيق معنى الذّكورة المتواطئة انظر/ي :
R. W Connell, Ibid, pp 79-80.

دون أن يفكّـر فيهـا خـارج معنى الجـدوى والمنفعة. وهكـذا لا يكتفي البائـع المنتصب بكسر الصّـور المنسـجمة لمجتمـع التّماثـلات والمطابقـات، بـل يـؤدّي أدواره الاجتماعيّـة عـلى مبدأ الكـسر وضمـن فضـاء نهـج إسـبانيا ووفـق فلسـفة اللّاشرعيّـات السّـلطويّة الّتـي يعتبرها فطنـة وشـطارة. وهـو بذلـك يعيش تجربتـه ويتـورّط تاريخيّـا فيهـا ويختنق بمشـكلاتها ويـناور لوضـع حلـول ومخـارج تناسـبه. إنّها صـورة رجل يكـسر النّمـاذج: ذكـورة الآخر ضـدّ الذّكـورة المهيمنـة وضـدّ الذّكـورة المتواطئـة البراغماتيّـة السّـائدة في عـصر المجتمـع التّونسيّ الاسـتهلاكيّ.

خاتمة

حملتنا اللّيبراليّة المتوحّشة بعيدا نحو مستوى متدنّ من وعي وجودنا باعتباره وجودا جماعيّا لا معنى له خارج لذّة المشترك والبناء معا والعقل التّعاونيّ. وجعلتنا اللّيبراليّة المتوحّشة أقرب ما نكون إلى أفراد متوحّشين يعيشون فراداتهم وتفرّداتهم بما هي لحظات إشراقيّة صوفيّة من تقدير إله أرضيّ ما ربّما كان الدّينار أو التّفوّق على المنافس. وستجد داخل قاعة الدّرس أطفالا يتنافسون حول المقاعد الأولى وحول المراتب الأولى. وسيعترضك متسوّقون يحملون سلّاتهم باكرا لنيل نصيبهم من خير الغلال والخضر قبل غيرهم. تلك السّلاسل الطّويلة المسترسلة في تمدّدها تشي بأنّ العرض وفضاءه ضيّقان ربّما ولكنّها تفضح إقبالنا على استهلاك الشّيء ذاته في الزّمن ذاته درءا لإمكانيّة تفوّق جار ما. فغادرت التّنافسيّة إذن الشّركات والمصانع واستقرّت فينا نحن البشر. فلماذا نتنافس إذن؟

لقد تعلّمنا عبر أدوات الدّولة إشهارا ومدرسة وإعلاما وشبكات تواصل اجتماعيّ وشبكة أنترنت، أنّ فرديّاتنا وحدها تكفينا لنحيا سلامنا الخاصّ. وتعلّمنا أن نكون بمفردنا ونعيش من أجل فرديّاتنا وشخوصنا وذواتنا وحدها. وقد بنينا حول قصور الفرديّة الحرّة والفردانيّة المتوحّشة سياجات قيميّة تؤصّل لاختياراتنا تلك، اختيارات دخلنّاها باعتبارها بنياتنا الّتي بنيناها، وتجاهلنا أو لم نع ولم نعرف أنّها اختيارات قُدّت لتبدوَ مناسبة لنا حتّى وإن كانت أبواب مأساتنا المقبلة. وهكذا فقد شيّدت النّيوليبراليّة نماذجنا ومعاييرنا وتقبّلناها بصدر رحب وسمّينا ذلك أحيانا حرّية وابتهجنا لقدرتنا على الاستهلاك والاستمتاع بلذّة التّسوّق. وقد رسمنا أيقونات اللّائق والجميل والمناسب والعصريّ والمتحضّر والرّفاهيّ، ووضعنا مقابلها قائمة في مقولة السيمولاكرsimulacre أو النّسخ الرّديئة: قذر وقبيح ومتّسخ وريفيّ «جبري جاي من وراء البلايك» وخشن غليظ الطّباع بذيئ اللّفظ كثير العراك.

لقد صنعنا نظما معياريّة وسكنّا ما يناسبنا وتركنا ما لا يوافق أذواقنا وما تنفر منه تمثّلاتنا للعالم والأشياء فيه لمن لا يستجيبون لاشتراطات نحن وضعناها وفرضناها عليهم. نسمّي الرّجل المنتصب في سوق نهج إسبانيا، رجلا غليظ الطّباع همجيّ الطّبع

سيّء السّمعة مفتقرا إلى المكانة والوجاهة قليل الحظّ من الموادعة والتّودّد إلى النّساء. نسمّيه الرّجل الغريب الموحش المتفرّد في وحشته والمنعزل داخل بيئته وسوقه والمغاير لنا. لذلك فإنّ مجرّد إصرار البائع المنتصب على ملبسه ولغته وسلوكاته هو إصرار على التزام معاييرنا السّالبة الموجّهة ضدّه. أمّا من غادر صور الوحشة تلك فقد حقّ له أن يتشبّه بنماذجنا وأن يرتقي مرتقانا ويبيت واحدا منّا رجلا متطبّعا على معاييرنا ملتزما بها. وهكذا فإنّنا في الواقع لا نحاكم البائع المنتصب في سوق نهج إسبانيا بقدر ما نحاكم ذواتنا ونختبر معاييرنا ولا نتفطّن لسقوط ذكوراتنا أو ذكوريّتنا النّمطيّة المهيمنة. إنّ البائع المنتصب وفق هذا المعنى هو محض نصّ تأوّلناه اعتمادا على المكتسب المعرفيّ الأوّلي الّذي نملكه، فإذا أمعنّا قراءة النّصّ بما هو معان حجب تتخفّى خلف أقنعة نسجناها من اغتراباتنا، فقد نظفر برؤية أخرى وصورة مغايرة.

ليست ذكورة كسر النّماذج أي ذكورة الآخر المتصدّية للذّكورة المهيمنة، إلّا تعبيرة تحيا وفق مناويلها الّتي أوجدتها عبر فعل المقاومة وسياسات التّحت المنسيّ. فهي في انفلاتاتها وعمليّات فكاكها من القيد البوليسيّ والضّبط القانونيّ للدّولة تؤسّس كونها الجديد وتصنع داخل اللّاشرعيّات شرعيّتها الفريدة الّتي يتأوّلها الجمهور من النّاس شرعيّة لا شرعيّة لها، شرعيّة لا قانونيّة. ولكنّ البائع المنتصب عامّة لا يعبأ لتلك الاستنتاجات القواعد. بل لعلّه يخترق عبر اللّفظ الّذي نسمّيه بذيئا سلامة الألفاظ الرّقيقة ويقاوم بذلك غربته وسجوننا الّتي وضعناها لنحبسه داخلها. إنّه يقاومنا عندما يزدرينا، لكنّه سرعانما يعود إلى طباع أوّليّة نشأ عليها فيذرف دمعته ويصل ادّعاءه اللّامبالاة بعطف جارف يحمله على مساعدة سيّدة سُرق مالها أو ملاحقة لصّ عطف على حقيبة يد ففتك بها وركب الرّيح طيرا. تقبع خلف المظهر الخشن والشّعر المغبرّ والعبارة الجافّة والنّظرة القاسية، روح طفل حالم لا تزال تصارع بؤس المصير وتنفلت من قبضة المحتوم والمهيمن لتعلن نفسها إمكانيّة أخرى ورجولة أخرى. فهل توقّفنا عن ترديد معاني السّلطة وصناعة الأشخاص غير المطابقين للأنظمة المعياريّة البورجوازيّة؟●

ببليوغرافيا مختارة

- غيدنــز، أنطونــي، وصاتن، فيليــب. **مفاهيم أساســيّة في علم الاجتمــاع**. ترجمة، محمود الــذّوّادي. بــيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراســة السّياســات، 2018.

-Hearn, Jeff 'Masculinity Masculinities', *in international encyclopedia of men and masculinities,* 394-390**.** Abingdon : Routeledge, 2007. p 391.

-Connell, R. W. Masculinities. 2nd edition. Los Angeles : University of California Press, 2005.

- قرامي، آمال. «تصدّع بنية ‹الذّكورة المهيمنة› ومحاولات إنقاذها». في **باحثات**، الكتاب الثّاني عشر (2006-2007)، ص 125-100.

-Jean-Claude Abric, *«les représentations sociales : aspects théoriques », dans Pratiques sociales et représentations*, sous direction de Jean-Claude Abric. 46-15. Paris, PUF, 2001.

- رجب النّجّار، محمّد. «حكايات الشّطّار والعيّارين في التّراث العربيّ». **عالم المعرفة**، عدد 45، الكويت: المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، 1981.

-Bourdieu, Pierre. *La Distinction*. Paris : Minuit, 1979.

- Mounier, Pierre. *Pierre Bourdieu une introduction*. Paris : La Découverte, 2001.

- Leguay, Jean- Pierre. *La pollution au moyen âge*. Quintin : éditions Jean-Paul Gisserot, 1999.

- Scott, James C. *Domination and the Arts of Resistance Hidden Transcripts.* New Haven and London : Yale University Press, 1990.

7

المحور السابع

بريكاريا نهج إسبانيا:
مقاربة أنثروبولوجيّة
للاقتصاد الشارعي في تونس

كلمات مفاتيح: بريكاريا، الاقتصاد الشارعي، البائع المتجول، نهج اسبانيا

المقدمة

دخلت تونس بعد لحظة 17 ديسمبر/14 جانفي مرحلة ما يسميه علماء السياسة الانتقال الديمقراطي، وكانت هذه المرحلة مصحوبة بتحولات اجتماعية وسياسية على المستويين الوطني والمحلي. ومن عام 2011 إلى الوقت الحاضر، شارك التونسيون في انتخابات المجلس التأسيسي الذي صاغ دستورا جديدا للبلادسنة 2014، كما شاركوا أيضا في الانتخابات التشريعية والرئاسية في سنوات 2014 و2019. وفي سنة 2018 صوّت التونسيون، لأول مرة، في انتخابات بلدية محلية. في هذا السياق، سعى علماء السياسة إلى الإجابة عن أسئلة كيف نجحت تونس ولماذا نجحت، على عكس بلدان ما اصطلح عليه إعلاميا بالربيع العربي، في المرور من لحظة الانتفاضة/الثورة، إلى لحظة انتقال ديمقراطي ضمن قدرا من السلم الاجتماعي وتماسك مؤسسات الدولة. ومن المؤكد أن أدبيات علماء السياسة الذين اعتمدوا خاصة على نظريات الدمقرطة لدراسة «التحول الديمقراطي» ساهمت في فهم الترتيبات المؤسسية التي أعقبت الثورة. ومع ذلك، فإن تركيز المقاربات المعيارية normative على إضفاء الطابع المؤسساتي على الثورة والتحولات المرتبطة بها في تونس، ساهم في فهم السياسات الماكروسكوبية macro للثورة،)أي التحولات الهيكلية على مستوى مؤسسات الدولة والأحزاب مثلا(، لكن هذه المقاربات أهملت إلى حد ما دراسة الثورة والتحولات الاجتماعية والسياسيةباعتبارها واقعا معيشا تتشابك فيه أبعاد مؤسساتية ودولتية وأخرى تخرج عمّا تضبطه الدولة أو المؤسسة أو الجمعية من أشكال تنظم ومشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتتنزّل هذه الدراسة في سياق المجهود البحثي الذي يحاول من خلاله المشتغلون على سياسات الثورة في تونس، فهم الأبعاد الميكروسكوبية micro للعلاقة بين المجتمع والدولة في فترة تتّسم بالحديّة liminality[1]. ونعني بهذا أن ما تشهده تونس منذ 2011 إلى الآن هي فترة تتّسم

1 انظر/ي:

بتحـولات هيكليـة على مسـتوى المؤسسـات، لكـن لا يمكننـا اختـزال التحـولات الاجتماعية والسياسـية في الجانـب الهيـكلي منها، ففترات التحـول والانتقـال والعبور مـن الدكتاتورية إلى الأنظمـة الديمقراطيـة هـي فـترات تنطـوي على درجـة من الالتبـاس والغمـوض وعدم الاسـتقرارية، ولا يمكـن اختزالهـا بحـال في إجـراءات وترتيبـات مؤسسـاتية. وتكـون هذه الفـترات بذلـك، فترات تشّـكل معنى عـلى مسـتوى الدولـة والمجتمع[2].

في هـذا السـياق نحـاول مـن خـلال هـذا البحث دراسـة ظاهـرة الاقتصـاد الشـارعي في تونـس بعـد عقـد مـن انـدلاع الثـورة. وإنّ الهدف الأسـاسي مـن خلال هـذا البحث هـو أولا الاهتمـام بظاهـرة لـم تتطرّق لهـا أدبيـات العلـوم الاجتماعية بالقـدر الكافي. وثانيـا محاولة الكشـف عـن جوانـب مـن العلاقـة بـين المجتمـع والدولـة مـن خـلال دراسـة تفاعلهمـا في الشـارع، أي خـارج المؤسسـات أو المركز، وهـي الفضاءات التـي تركّز عليها أغلـب الأدبيات، وخاصـة الغربيـة منهـا، في دراسـتها لسياسـات الثـورة في تونـس. وفضـلا عن ذلـك، نهتم في هـذا المقـال بدراسـة ظاهـرة سـوق نهـج إسـبانيا وما اصطلـح عـلى تسـميته بالاقتصاد غـير الرسـمي. أمـا المقاربـة المعتمدة في هـذا البحث فهـي مقاربـة أنثروبولوجيـة ترتكز على أدبيـات الأنثروبولوجيـا الاقتصاديـة والاقتصاد الإنسـاني كمـا تناوله أساسـا الأنتروبولوجي كيـث هـارت Keith Hart. وينقسـم المقـال الى جزأيـن: جـزء نظـري نقـدّم فيـه باقتضاب لمحـة عـن الأنثروبولوجيا الاقتصاديـة وأبرز مدارسـها وتوجهاتهـا البحثية، وجـزء إثنوغرافي تحليـلي نتناول فيـه ملامح البائـع المتجول وتشـابكات حياتـه الاقتصاديـة والاجتماعية التي تنتـج ما سـميّناه الـذات المرتابـة، كما نتنـاول في هذا القسـم تمثـلات البائع المتجـول للدولة ودور علاقـات القرابـة في تشـكيل تنظيـم داخـلي لنهج إسـبانيا تتداخـل فيه أبعـاد تقليدية عشـائرية وأخـرى دولتية رسـمية.

Bjørn Thomassen, *Liminality and the Modern: Living Through the In-Between* (Farnham: Ashgate Publishing Limited, 2014).

2 انظر/ي:

Harald Wydra, *Communism and the Emergence of Democracy* (Cambridge: Cambridge University Pres, 2007).

منهج التحليل والمفاهيم

اعتمدنا في المحور على العمل الميداني الإثنوغرافي الذي أجراه باحثو المنتدى، واستأنسنا أيضًا بالمقابلات التي أجريت مع الباعة المتجولين والبحث الكمي. وقد تطلب فهم ملامح البائع المتجول وعوالم النصّابة بحثا اثنوغرافياً حاولنا من خلاله «تجذير المعرفة في المعيش»[3] «grounding knowing in being»، إذ نتفق في سياق هذا البحث مع ما ذهب اليه الانثروبولوجي تيموثيانغولد Timothy Ingold بأنّ «أي دراسة حول النّاس، يجب أنّ تكون دراسة معهم»: «any studyof human beings must be a study with them»[4]. وقد أجرى باحثو المنتدى في هذا الإطار بحثا إثنوغرافياً كانوا خلاله حاضرين في نهج إسبانيا مع النصّابة وشارك بعضهم مثلا في العمل في سوق نهج إسبانيا بصفته مساعد بائع مما سهّل فهم ميدان البحث والولوج إليه. وقد مكنتنا تقنية الملاحظة بالمشاركة من فهم تفاصيل الحياة اليومية للفاعلين في الاقتصاد الشارعي في تونس وتفاعلهم مع غيرهم من الباعة والجيران والتجّار وأجهزة الرقابة كالشرطة البلدية. كما حاولنا من خلال المقابلات مع الباعة الجائلين البحث عن أنماط المواضيع thematic patterns الحاضرة في خطابهم حولأنفسهم والمجتمع والدولة لنرسم بذلك الملامح العامة للنصّاب/ البائع المتجول في نهج إسبانيا. وقد اخترنا أن نختزل إلى درجة ما الملمح العام للبائع المتجول ولتجاربه الحياتية في مصطلح البريكاريا precariat[5] الذي يفيد عدم الاستقرار

3 Timothy Ingold, «*Anthropology is not Ethnography*», *In Proceedings of the British Academy*, (2008), p 83.

4 Ibid.

5 ارتبط مصطلح البريكاريا في السياق الغربي بالليبرالية الجديدة/النيوليبرالية التي بدأ التنظير لها في السبعينات ثم تحولت النظريات الى سياسات اقتصادية في الثمانينات على يد رونالد ريغينRonald Reagan ومارجريت تاتشر Margaret That-cher. وكان مفهوم مرونة سوق العمل labour market flexibility الذي احتفى به منظرو النيوليبرالية وراء بداية جعل الموظفين أقل أمانا. ومع تجذّر العولمة ومسارعة الحكومات والشركات في جعل اقتصاداتها مرنة حتّى يسهل تسريح الموظفين وتحويلهم من وظيفة إلى أخرى داخل الشركة نفسها، وتنمية مهارات الموظفين الموجودين وغيرها من مظاهر المرونة، دون الحاجة إلى تشغيل موظفين جدد، بدأت أعداد الأشخاص الناشطين في العمل غير الآمن تتضاعف وتنامت أوجه عدم المساواة في المجتمعات. هكذا بدأت طبقة جديدة في التشكل وهي ليست البروليتاريا proletariat أو طبقة العمّال working class. فهذه الطبقات على هشاشتها، ينطوي نظام عملها على ساعات محددّة وقد تتنظم في مجموعات مهنية ونقابات. ويمكن لهؤلاء بسهولة أيضا تعريف طبيعة عملهم ووظائفهم، أي أن درجة من اتساق نظام العمل)والتواتر(تكون حاضرة. كما لا تنتمي طبقة البريكاريا للطبقة الوسطى فليس لها عادة جراية أو مدخول ثابت ومتوقع ولا تتفاعل كثيرا مع مؤسسات الدولة التي قد

والهشاشة[6]. وسنتناول في المقال مفاهيم الرِّيبة والذات المرتابة للدلالة على حالة الوجود الاجتماعي والسياسي للنصّاب في نهج إسبانيا. ولفهم تمثلات البائع المتجول للدولة والعلاقة بينهما، حاولنا في هذا المقال من خلال مقارنة إزائيّة juxtaposition التفريق بين الدولة كما تحضر في خطاب البائع المتجول المتّصل بذاته وبوضعه الاجتماعي والاقتصادي، أي تخيّله لذاته وموقعه، وبين تفاعله مع أجهزة الدولة في حياته اليومية باعتباره نصّابا في نهج إسبانيا (أي مستوى الممارسة(. ونشير هنا إلى أنّ دراسة تمثلات البائع المتجول للدولة لا تعني الفصل بين الدولة والمجتمع فصلا يرسم حدودا واضحة بين الاثنين كما سنبيّن في هذا البحث. فنهج إسبانيا كما نفهمه من خلال العمل الإثنوغرافي هو فضاء نظامي وغير نظامي في آن، ينتجه البائع المتجول والدولة. ورغم أنّ العلاقة بين الاثنين قد تحيل على فصل من نوع ما، إلّا أن المقاربة السوسيوأنثربولوجية تكشف عن تداخل فاعلية البائع والدولة في إنتاج الاقتصاد الشارعي الذي يتشكّل بتوفر نظام دولتي وآخر يرتكز على القرابة.

الأنثروبولوجيا الاقتصادية

يهتم علماء الأنثروبولوجيا عموما بدراسة جوانب وأبعاد مختلفة من الحياة الفرديّة والجماعيّة للنّاس.وعادة ما يسعى الأنتروبولوجي للكشف عن الترابط بين هذه الأبعاد المختلفة لتفسير ظواهر متعدّدة دينية كانت أو سياسية أو اقتصاديةومترابطة فيما بينها. فقد يؤثر معتقد دينيّ ما في الحياة السياسية للأفراد وقد تُنتج العلاقات الاجتماعية والعائلية مثلا نظاما اقتصاديا خاصا بمجموعة ما في مكان وزمان محدّدين. لذا، يحاول الأنثروبولوجيون عادة عدم إهمال الأبعاد الميكروسكوبية Micro لحياة الأفراد عندما يتعرضون لتحليل الظواهر الماكروسكوبيةMacro. ويميل الأنتروبولوجيإلى الاهتمام بفهم

تمنحها امتيازات او تسهيلات، بل إن طبقة البريكاريا كما نتناولها في بحثنا في إشارة الى الباعة الجائلين، تتخيّل نفسها خارج الدولة ومؤسساتها كالبنوك والحماية الاجتماعية ولا تشارك في الانتخابات ولا تنخرط في الجمعيات.

6 انظر/ي:
Guy Standing, The Precariat: The New Dangerous Class (London: Bloomsbury Academic, 2011).

العلاقة بين «ما يفكر فيه الناس ويقولونه من ناحية، وما يفعلونه من ناحية أخرى»[7]. وقد تختلف تسميات هذين الجانبين باختلاف الحقول العلمية، ولكن يمكننا أن نشير إليهما بالثقافة والممارسة. فيشتغل عالم الأنثروبولوجيا على فهم وتحليل مدى تأثير الثقافة على الممارسة أو العكس، وكيف يتم ذلك خاصة اليوم داخل مجتمعات تتحرك وتتشكّل باستمرار.

يشير أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة إنديانا جيمس كاريير James G. Carrier إلى خاصيتين من خصائص البحث الأنثروبولوجي[8]. أولا، يُعتبر المنظور الأنثروبولوجي منظورا تجريبيا وطبيعيا بالأساس empirical and naturalistic، أي أنه يعتمد على الملاحظة التجريبية empirical لحياة النّاس كما يعيشونها naturalistic. أما الخاصية الثانية للمنظور الأنثروبولوجي فتتمثل في تردّد علماء الأنثروبولوجيا عموما في التفكير في الظواهر الاجتماعية تفكيرا يرتبط بقوانين اجتماعية social laws شاملة وكونية universal. فرغم أن علماء الأنثروبولوجيا درسوا عددا كبيرا من المجتمعات في مناطق مختلفة من العالم، إلا أنهم توصلوا تقريبا إلى عدم وجود قوانين اجتماعية شاملة قابلة للتطبيق على مناطق جغرافية شاسعة أو على الكون بأسره. نفهم من خلال هذه الخاصيات إذن، أنّ الأنثروبولوجيا تميل إلى كونها حقلا علميا أيديوغرافيّاً idiographic أو تخصيصيّاً particularising على عكس الحقول العلمية الكميّة النوموثيتيّة nomothe-tic أو التعميمية. بالتالي، فإن مقاربة الاقتصاد من منظور أنثروبولوجي يستدعي بداية فهم سياقات تشكّل التفكير الأنثروبولوجي في الاقتصاد. فالأنتروبولوجيا كما أسلفنا علم تخصيصي يبتعد عن التعميم عادة، أما الاقتصاد كما نتمثله اليوم، أو على الأقل كما يُعرّفه الاقتصاديون أنفسهم، فهو علم تعميمي تجريدي يقدم تفاسير وتحاليل رياضية/عقلانية لخيارات الأفرادأينما كانوا، ضمن ثنائية التكاليف والمنافع متأثرا بمذهب النفعية الإنكليزي utilitarianism[9].

7 James G. Carrier, *A Handbook of Economic Anthropology*, (Cheltenham: Edward Elgar, 2005), p 2.

8 James G. Carrier, Ibid, p 3.

9 كريس هان وكيث هارت، **الأنثروبولوجيا الاقتصادية: التاريخ والإثنوغرافيا والنقد**، ترجمة عبد الله فاضل، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 23.

في هـذا السـياق، حـاول بعـض علمـاء الأنثروبولوجيـا طـرح بدائـل مفهوميـة في مقابل التعريفـات المجـردة والرياضيـة للاقتصـاد عـلى ضوء أعمـال وبحـوث إثنوغرافيـة ونظرية. وقـد كشـفت بعـض البحـوث الأنثروبولوجيّـة التـي اعتمـدت عـلى العمـل الميدانيكدراسـة مُؤسـس الأنثروبولوجيـا الحديثـة برونيسلافمالينوفسـكي Bronislaw Malinowski لنظام الكـولا Kula (وهـو نظـام تبـادل لـدى قبائـل الأرغنـوت Argonauts في شـمال شرق غينيا الجديـدة(أن النشـاط الاقتصـادي عند بعـض الشـعوب لا يخضع بالـضرورة لمنطق العرض والطلـب أو الربـح والخسـارة. ورغم النقد الموجـه لمنهجية مالينوفسـكي الفردانيـة indivi- dualistic methodology في دراسـته لظاهـرة الكـولا، أو حلقـة الكـولا Kula ring، إلا أنّ عملـه يظـل مرجعـا كلاسـيكيا في دراسـات الأنثروبولوجيـا الاقتصاديـة. بالإضافـة إلى بحث مالينوفسـكي يمكننـا هنـا أيضـا الإشـارة إلى دراسـات أخـرى تناولـت اقتصاديـات الهبـة كعمـل مارسـيل مـوس الموسـوم بـ«مقالـة في الهبة: أشـكال التبـادل في المجتمعـات الأرخيّة وأسـبابه»[10]. وسـواء تعلـق الأمـر بدراسـة مالينوفسـكي لنظام الكـولا أو بحـث موس حول الهبـة وظاهـرة البوتلاتـش Potlatch لـدي هنـود كولومبيا البريطانيـة التي درسـها فرانز بـواس Franz Boas وغيرهـا مـن أعمـال علمـاء الأنتروبولوجيـا، فيمكننـا القـول عموما إنّ المقاربـة الأنثروبولوجيـة لا تفصـل الاقتصـاد عن باقـي أبعاد الحياة. فدراسـة مالينوفسـكي لنظـام تبـادل الكـولا مثـلا يكشـف عـن القيمـة الرمزيـة لتبـادل الأسـاور والعقـود بـين قبائـل جـزر التروبريانـد Trobriand فيصبـح للأشـياء)أسـاور وعقـود(قيمـة اجتماعية إيثاريـة ورمزيـة، لا ترتبـط بعقلانيـة السـوق، فيعزز فعـل العطاء وقبـول العطـاء الترابط بـين القبائـل والعشـائر، وتجعل طقـوس التبـادل الاحتفاليـة الحيـاة الاقتصادية جـزءاً من كوسـمولوجيا الحيـاة القبليـة التي ترتكـز على ثنائيـة الأخذ والعطـاء الثابتة فينظـم التبادل الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسـية في آن.

10 مارسيل موس، **مقالة في الهبة: أشكال التبادل في المجتمعات الأرخية وأسبابه**، ترجمة وتحقيق وتعليق: محمد الحاج سالم، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2013).

أبرز براديغمات البحث في الأنثروبولوجيا الاقتصادية

عكس البراديغم المهيمن في دراسات الأنثروبولوجيا الاقتصادية الكلاسيكية في فترة ما قبل السبعينيات اهتماماً مشتركا بمفهومي المعاملة بالمثل reciprocity والتبادل exchange. ويظهر الاهتمام بهذين المفهومين في أعمال موس وبولاني وليفي شتراوس وسالينز وآخرين. وقد حاول هؤلاء التوليف بين البحوث الرائدة لمالينوفسكي ورايموند فيرثRaymond Firth وما جمع بينهم أيضا هو اعتراضهم على تصوّر الاقتصاد الطبيعيnatural economy، كما جاء في كتابات أرسطو حول الاقتصاد والتي طوّرها لاحقا آدم سميث مؤسس الاقتصاد السياسي ونظرية قيمة العمل labour theory of value. ويرى كريس غريغوري Chris Gregoryالمختصّ في الأنثروبولوجيا الاقتصاديّة أنّ لحربالفيتنام وتبعاتها الاقتصادية، مثل انتصار أفكار السوق الحرة لميلتون فريدمان Milton Friedman على أفكار دولة الرعاية لماينارد كينزMaynard Keynes،أثر كبير على توجهات الانثروبولوجيا الاقتصادية. فالبراديغمات المهيمنة في البحوث العلمية، حسب كريس غريغوري، ليست مجرد انعكاس لتطوّر منهجيات البحث بقدر ما هي انعكاس للتحولات السياسية والاقتصادية، وهذه التحولات الكبرى والعالمية تدفع نحو طرح أسئلة جديدة وتجعل هذه الأسئلة بعض البراديغمات قديمة. وهنا يقصد الباحث براديغم المعاملة بالمثل والتبادل reciprocity and exchange في الأنثروبولوجيا الاقتصادية الذي تم نقده وتعويضه ببراديغم التمفصل articulation المنبثق عن الاطار المفاهيمي الماركسي الذي أولى أهمية لمفهوم الإنتاج عوضا عن التبادل. ورأى أنصار البراديغم الجديد أنّ أنّاسي التبادل لم يطرحوا إشكاليات في علاقة بالغزو الاقتصادي الأوروبي لأفريقيا وآسيا والمحيط الهادئ وتناولوا عوضا عن ذلك موضوعات بحثية لحقب تاريخية سبقت الامبريالية، وتساءلوا عمّا كان سالينز يفعله: «إنّه يضع جسده بشجاعة على المحك في شوارع شيكاغو للتظاهر ضد الإمبريالية الأمريكية في فيتنام ، لكن رأسه في حقبة ما قبل الإمبريالية»[11]. هكذا، تبلوّر براديغم جديد في الانثروبولوجيا الاقتصادية نقدَ أنثروبولوجيا

11 Chris Gregory, «Whatever Happened to Economic Anthropology?», *The Australian Journal of Anthropology*, volume 20, (2009), p 288.

التبـادل وطرحَ إشـكالية دراسـة تمفصـل أنمـاط الإنتـاج the articulation of modes of production مـن خـلال مفاهيـم القبيلـة والفلاّح والرأسـمالية لفهـم الاسـتغلال، والتبادل غـير المتكافـئ، والنـزاع/صراعexploitation, unequalexchange, and conflict. لكـن هـذا التوجـه البحثـي في الأنثروبولوجيـا الاقتصادية سرعان مـا انتهى بانتهاء حـرب الفيتنام حيـث تحـول ضحايـا الامبرياليـة إلى فاعلـين agents، وتحول اهتمـام علمـاء الأنثروبولوجيا أيضـا مـن التمفصـل articulation الى الفاعليـة agency بمـا هي براديغـم جديد في البحث الأنثروبولوجي.

نهج إسبانيا: نظرة عامة

يقـع نهـج إسـبانيا في مجـال مركـزي بالعاصمـة تونـس وعلى مرمـى حجر من شـارع الحبيـب بورقيبة وسـاحة برشـلونة، قريبا مـن سـوق بومنديل(نهج سـيدي بومنديل) ونهج الكوميسـيون، ومجـاورا للسـوق المركزيـة. ويتقاطع الشـارع مع خمسـة أنهـج في العاصمة وهـي عـلى التـوالي انطلاقا من جهة سـاحة برشـلونة: نهج جمـال عبد الناصرثم نهج شـارل ديغـول ثـم نهج الدنمـارك ثم نهج الجزيـرة ثم نهج الكوميسـيون بالتواصل في الخط نفسـه مـع نهج سـيدي بومنديـل. يتميّز الشـارع بحركيـة اقتصاديّة عالية ينشـطها انتشـار الباعة والتجّـار عـلى طرفي النهـج والحضـور المكثف للمـارة يوميـا من موظفـين وعَملـة، وتلاميذ، وطـلاب، وغيرهـم. ورغـم أنّ نهج إسـبانيا مكوّن بالأسـاس من محـلات تجارية يعـود تاريخ بعضهـا إلى فترة الاسـتعمار الفرنسي، إلّا أنّ اسـم الشـارع ارتبط بالباعة الجائلـين أو النصّابة كمـا يطلـق عليهـم في العاميـة التونسـية. يتوفـر نهج إسـبانيا على سـلع موسـميّة وملابس وأدوات منزليـة وغيرهـا مـن المنتوجـات المرتبطـة بالمناسـبات والأعيـاد الدينية كعيـد الفطر والأضحـى والمولـد النبـوي. وعـادة مـا تكون هذه السـلع أقل سـعرا أوجـودة مـن نظيراتها في المراكـز التجاريـة الكـبرى أو المحـلات. ولا تمـر بضائـع الباعـة المتنقلين في نهج إسـبانيا عـبر مسـالك الديوانـة التونسـية، فهـي عادة سـلع مهرّبـة مـن الجزائـر – كانت ليبيـا قبل أحـداث مـا يُعـرف بالربيـع العربـي أبـرز مسـلك للتهريـب غـير أنّ حالـة عدم الاسـتقرار فيهـا حوّلـت وجهـة التهريـب نحـو الجزائر . يعـرض الباعـة الجائلـون سـلعهم على طول

نهـج إسـبانيا باسـتخدام صناديـق كرتونية)كردونـة(، أو قطع مـن الألحفة البلاسـتيكية) بـاش(، أو نقّـالات بسـيطة)برويطة(أو عـلى معلاق ملابـس بعجلات -شـطار- مثلما يطلق عليهـا الباعـة، وعـادة مـا يكـون نهـج إسـبانيا مكتظـا طوال أيـام الأسـبوع حيـث تتراصّ السـلع المعروضـة ويكثر الضجيج الـذي تتداخل فيـه أصوات المـارة ونداءات الباعـة للتدليل عـلى أسـعار بضائعهـم. ويرافق هـذا التداخل في الأصـوات فـوضى الأكياس وأغلفـة البضائع والقواريـر البلاسـتيكية وغيرهـا فضـلا عـن الروائـح الكريهـة التـي تتكثـف عنـد مداخـل العمـارات وخلـف أبـواب المباني داخل نهـج إسـبانيا. ويمكن ملاحظـة تواجد النصّابـة بدءاً مـن النقطـة الرابطـة لنهـج إسـبانيا مـع سـاحة برشـلونة وصـولا إلى التقاطـع الرابط بين نهـج الكوميسـيون ونهـج سـيدي بومنديـل على الطـرف الآخـر من النهـج. ينتصـب الباعة المتجولـون أيضـا على تقاطعـات نهج إسـبانيا وهم عادة المنتصبـون الجدد الذين لـم يتمكنوا من عـرض سـلعهم داخـل النهج.

ويُقسِّـم الباعـة المتجولـون نهـج اسـبانيا تقسـيما حسـب مناطـق مجالية/جغرافيّة(1) ودرجـة التهديـد(2) وتدفـق الزبائـن(3). أما التقسـيم الجغـرافي فيحتوي على ثـلاث مناطق تنتسـب كل منهـا إلى مـكان مميّز في ذلك المجـال، فالمنطقة الأولى (أ) تنسـب إلى مقهى البرانس أو مبنـى البريـد بنهـج شـارل ديغول، أي بحسـب مدى قـرب الفـرد إلى أحد المبنيـين، وتمتد مـن مدخل سـاحة برشـلونة إلى حـدود السـوق المركزية. وتبـدأ حـدود المنطقـة الثانية (ب) عـلى مقربة من السـوق المركزيـة وتمتد إلى نهـج الجزيرة وتنسـب إمّا إلى السـوق المركزية أو نهـج الجزيـرة بينما تُنسـب المنطقة الثالثـة (ج) إلى نهـج سـيدي بومنديل.وبالإضافة الى هذا التقسـيم المجـالي، يُميّـز النصّابة بين ثلاث مناطق حسـب درجـة التهديد المرتبطـة بالحملات البلديـة على السـلع المعروضـة. وتعتـبر المنطقـة الجغرافية (أ) الأشـد خطورة حسـب الباعة الجائلـين لأن الحمـلات البلديـة تبدأعـادة مـن سـاحة برشـلونة ونهج شـارل ديغـول، بينما تقـل درجـة الخطـورة تدريجيـا في المنطقتـين (ب) و(ج). ويعكـس هـذا التقسـيم حركـة النصّابـة في حـالات الهروب من ملاحقـات الشرطة البلدية فيكـون الفرار عـادة في اتجاه نهج سـيدي بومنديـل، وفي حـالات الحمـلات المكثفة يتفـرّق الباعة بالسـلع في الأنهـج المتفرعة من نهـج إسـبانيا. أما التقسـيم الأخير (تدفـق الزبائـن)، فيرتبط بحركيـة الزبائن وفـرص البيع وتعتـبر المنطقتـين (أ) و (ج) أفضل مـن المنطقـة (ب) باعتبار أنّ المنطقتـين تقعان في مدخلي

نهـج إسـبانيا. وعلى الرغم مـن هذه التقسـيمات للنهج فإن تمثـل الباعة الجائلـين له يتجاوز الرسـم البلـدي، وتكشـف الملاحظـة الميدانيـة التي أجراهـا باحثو المنتـدى التونـسي للحقوق الاقتصاديـة والاجتماعيـة أنّ الباعـة المتنقلين يعتـبرون أنّ مجال نهج إسـبانيا يمتـد بقدر ما توجـد بضائـع معروضة ونصّابة. فلاحـظ باحثوالمنتدى مثـلا أنّ أحد الباعـة المنتصبين بنهج شـارل ديغول اتصل بشـخص ليعلمـه بأنه قد تـم حجز بضاعتـه إثر عمليـة مداهمة. وأصرّ البائـع المتجـول أنه في نهج إسـبانيا رغـم أنّ بضاعته كانت في نهج شـارل ديغـول. ويتقاطع تمثـل الباعـة المتجولين لفضـاء نهج إسـبانيا أحيانا مـع تمثلات المـارة أيضا، فخـلال مكالمة أجرتهـا فتـاة لترشـد مخاطبها لمـكان تواجدهـا لم تذكـر أنّها قرب مقـر البريد بنهج شـارل ديغـول حيـث كانـت تجـري المكالمـة بـل أشـارت بأنهـا في ''جهـة نهج إسـبانيا ''.وحسـب المقابـلات مـع الباعـة الجائلين والعمـل الإثنوغرافي في نهج إسـبانيا، فإن الأربـاح التي يحققها بعـض النصّابـة تسـاوي 50 بالمائـة مـن المداخيـل عمومـا. وهذه النسـب من الأربـاح تتغير بحسـب البضاعـة المعروضـة والموسـم. فتتجـاوز الأربـاح في بعض السـلع الموسـمية نسـبة 300بالمائـة مثل أكيـاس تخزين اللحوم المرتبطة بموسـم عيـد الأضحى وبـين100 بالمائة إلى 150 بالمائـة بالنسـبة إلى الألعاب وملابـس العيد وكذلك الأدوات المدرسـية.

الاقتصاد غير الرسمي وملامح البائع المتجول

يقـدّم نهـج إسـبانيا مثـالا على مـا اصطلح عـلى تسـميته الاقتصاد غـير الرسـمي أو غير المنظم أو اللانظاميinformal economy، وقد بدأ هذا المفهوم في التشـكّل (قبل التسـمية، أي قبـل أن يُطلق عليـه اقتصاد غير منظم) في سـياق بحـث إثنوغرافيأجراه عالـم الأنثروبولوجيا الاقتصاديـة كيـث هارت في الأحيـاء الفقيرة في أكرا عاصمـة غانا في أوائل السـبعينات. وتتعدّد تسـميات هـذا النـوع مـن الاقتصـاد، فنجـد مثـلا مصطلحـات كاقتصـاد الظـل والاقتصاد المـوازي والاقتصـاد المسـتور/التحتي والاقتصـاد الخفـي والاقتصـاد غـير المهيـكل وغيرها. وتسـتخدم هـذه المصطلحـات عمومـا للتدليـل عـلى نوع مـن النشـاط الاقتصـادي لا يرتبط الفاعلـون فيـه بآليـات الاقتصـاد الرسـمي للدولـة، أي أنّه خـارج عـن آليات رقابـة وضبط الدولة للنشـاط الاقتصادي. ويشـير كيث هـــارت وكريـس هـان Chris Hann في كتابهما

«الأنثروبولوجيا الاقتصادية: التاريخ والإثنوغرافيا والنقد» إلى أنّ معظم النّاس يعيشون داخل اقتصاد رسمي أو منظم formal economy، وهذا الاقتصاد هو عالم من الرواتب والمعاملات المالية المنظمة ودفوعات الإيجار والائتمان والغطاء الصحي و«الخوف من السلطات الضريبية، والواجبات المنتظمة»[12] ورغم أنّ من يعيش في عالم الاقتصاد المنظم قد يكون عرضة للأزمات الاقتصادية والخطر، إلّا أن أسلوب الحياة يظل منظماً، -وما يجعل أسلوب الحياة هذا منظما هو اتساق نظامه، والتواتر الذي يمكن التنبؤ به والحس بالسيطرة الذي غالبًا ما نعتبره بديهيا.

ويقول الكاتبان إنّ الجهد المؤسساتي للدولة يسعى إلى ضبط المجتمع على أسس مُنظمة/رسميّة formal، ويصبح الشكلform بذلك هو القاعدة، وهو «فكرة عما يفترض أن يكون عاماً في الحياة الاجتماعية»[13]. وتتولى البيروقراطية الوطنية دور إنتاج الأشكال المسيطرة ساعية إلى خلق تماه بين المجتمع والدولة الأمة (وكانت هذه أبرز وظائف البيروقراطية طوال معظم القرن العشرين). فإذا عجزت أجهزة الدولة وبيروقراطيتها عن مراقبة نشاط اقتصادي وإخضاعه لآليات ضبطها)كالضرائب والرقابة الجمركية(، أي إلى الشكل والقاعدة، يصير هذا النشاط غير منظم informal من زاوية نظر الدولة، أي أنّه يخرج عن الشكل form المُراد تعميمه. وتكون الأشكال بالضرورة مجردة abs-tract، وغير قادرة على استيعاب كل جوانب الحياة الاجتماعية، فالشكل يختزل ويُبسط ويُثبت، أما الحياة الاجتماعية فهي مركبّة ومعقدة وتتّسم بالتحول. وبالتالي فمن غير الممكن أن يحيط الشكل form كماترسمه وتتخيله الدولة بكل التحولات المجتمعية التي تقع خارج حدوده.

أما عن السياق التاريخي لظهور مصطلح الاقتصاد غير الرسمي، الذي طرح أسئلة حول البيروقراطيات الوطنية وفشلها في احتواء التحولات الاقتصادية والاجتماعية فيقول هارت وهان: تجلت الأزمة العالمية في دوائر صنع السياسيات التنموية في مطلع السبعينات

12 كريس هان وكيث هارت، المرجع نفسه، ص 157.

13 كريس هان وكيث هارت، المرجع نفسه، ص 158

عـلى هيئة خـوف من «البطالـة الحضريـة في العالـم الثالث». كانـت المدن تنمـو بسرعة، لكن دون نمـو مماثـل في «فـرص العمـل» التـي اقتـصر فعـل تأمينها عـلى الحكومـة والشركات. واعتقـد كل مـن الكينزيـين والماركسـيين، عـلى حدّالسـواء، أن الدولـة هـي الوحيـدة القادرة عـلى أن تقـود اقتصاداً يمكـن أن يحقـق التنمية والنمـو. وبذلك كان السـؤال: كيف سـنؤمّن)«نحـن»، أي البيروقراطيـة ومستشـاروها الأكاديميـون(للنـاس فـرص العمـل والصحـة والسـكن وغيرهـا ممـا يحتاجـون إليه؟ ومـا الذي سـيحدث إذا لـم نفعل؟

وفي الواقـع، رفَـعَ شـبحُ أعمال الشـغب في المدن، بل والثـورة، رأسـيهما. وأنتجت«البطالة» صـور الكسـاد العظيـم، أي صـور حشـود مـن الرجـال المحطمـين الذيـن يتجمهـرون على نـواصي الشـوارع... وهكـذا لم تتقاطع هـذه القصة مـع تجربة العمـل الميداني الـذي قام به هـارت عـلى مدى سـنتين في أحياء أكـرا الفقيرة. وهـو الـذي أراد أن يُقنع اقتصاديـي التنمية بالتخـلي عـن نمـوذج «البطالـة» وتبنّـي الفكرة القائلـة إن ما يجـري في الأسـاس الاقتصادي هو أكـبر مما يسـمح خيالهـم البيروقراطـي بتصوره[14].

وبالعـودة إلى بدايـات تبلـور مفهـوم الاقتصـاد غـير الرسـميinformal economy في كتابـات علمـاء الأنثروبولوجيـا، أي الاقتصـاد الـذي يخـرج عن الشـكل form الـذي تحدده الدولـة، يمكننـا أن نسـتحضر هنـا المقاربـات الشـكلانية formalist والجوهرانيـة subs-tantivist في الانثروبولوجيـا الاقتصاديـة، فقـد اتسـمت فـترة خمسـينات وسـتينات القرن العشريـن بالنقاشـات المنهجيـة والنظريـة بـين علمـاء أنثروبولوجيـا الاقتصـاد الذيـن انقسـموا إلى شـكلانيين formalists وجوهرانيـين substantivists[15]. فاعتـبر الشـكلانيون أنـه يمكن توظيـف مفاهيـم ومنهجيات وأدوات علـم الاقتصاد (السـائد آنذاك) في الدراسـات الأنثروبولوجيـة للحيـاة الاقتصاديـة بينمـا عـارض الجوهرانيـون هـذا التوجـه معتبرين أنّ

14 . نفس المرجع والصفحة.

15 يشير كارل بولانيKarl Polanyi الى أنّ تعريف مصطلح ''اقتصادي'' economicالذي يستخدم عادة للإشارة الى نوع من أنواع النشاط الإنساني يتراوح بين معنيين. أما المعنى الأول، الشكلاني، فهو مستمد من العلاقة المنطقية بين الغاية والوسيلة. فعندما نعرّف الاقتصاد بالإشارة الى الندرة scarcity مثلا، فإننا هنا نعرّف الاقتصاد تعريفا شكلانياformalist. أما المعنى الثاني، الجوهرانيsubstantivist، فيولي أهميةً ''للعلاقة بين البشر والبيئات الطبيعية التي يستمدون منها وسائل معيشتهم''، ويعتبر التعريف الجوهراني هذه العلاقة أو هذا الترابط عنصرا مكونا لمفهوم الاقتصاد.

«الحيـاة الاقتصاديـة في المجتمعـات التي لـم تهيمن عليها الأسـواق المتجرّدة عمّا هو شـخصي «متضمنـة» دائمًا في مؤسسـات اجتماعيـة أخرى، تندرج مـن الأسرة إلى الحكومـة والدين»[16].

و لا يتنـاول هـذا البحث الحيـاة الاقتصادية مـن منظـور شـكلاني formalist لأننا بذلك سـنهمل ما يقـع خارج الحـدود التي ترسـمها الدولة للفعـل الاقتصادي وللحيـاة الاجتماعية عمومـا. إنّ بحثنـا هذا يرمي إلى دراسـة الحياة الاقتصادية دراسـة لا تفصلها عـن باقي أبعاد الحيـاة، أي دراسـة تـولي اهتمامـا لتشـابك التجـارب الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية للباعـة الجائلـين. بـل إنّالمنهجيـة المعتمـدة في هـذا البحـث تتقاطـع مـع منهجية مـا يطلق عليـه كيـث هارت الاقتصـاد الإنسـاني، أي الاقتصاد الذي-يشـدّد على الأشـخاص الذين تأتي تفضيلاتهـم وخياراتهـم أحيانـا نتيجة ما يقومـون به من حسـابات، لكنّها تأتـي كذلك عادة نتيجـة السـياقات العائليـة والاجتماعيـة والسياسـية التي يتشـابك فيها البـشر، والتي تحيط بهـم مـن كل جانب [17].

عدم الاستقرارية وإنتاج الذوات المرتابة

يُظهـر تتبّـع المسـارات الحياتية للباعـة الجائلين، بما في ذلـك حياتهم الأسريـة، وتجاربهم في مؤسسـة المدرسـة والمعهـد، وأحلامهـم، وآمالهـم، وتجاربهمالعاطفية،وتمثلاتهـم للدولـة، عددًا من السـمات المشـتركة بينهـم. لكن لا يعنـي هذا بالـضرورة أن الباعـة الجائلين في نهج إسـبانيا كيـان واحـد متجانس، مـا نعنيه بالسـمات المشـتركة هنا هـو مدى تأثـير الظروف الاقتصاديـة والاجتماعيـة والسياسـية في تشـكيل بعـض تصـوّرات النصّابـة حـول ذواتهـم والدولـة والمجتمـع (أي كيف تتشـكّل نظرتهم للعالم worldview)، فالسـمات المشـتركة إذن هـي نقطـة تقاطع هـذه التمثـلات والتصـوّرات والتي ترسـم بدورهـا الملامح العامـة للبائع المتجـول في نهج إسـبانيا.

16 كريس هان وكيث هارت، المرجع نفسه، ص 18.

17 المرجع نفسه، ص 26-25.

ونلاحظ من خلال المقابلات مع النصّابة تشابها في بعض ملامح التنشئة الأولية في علاقة بالأسرة والمدرسة. إذ ينحدر أغلب الباعة الجائلين، وهم أصيلو مدينة سبيبة في ولاية القصرين وعرش الغلايقية تحديدا، من أسر متواضعة يكون فيها الأب عادة عاملا يوميا بينما تهتم الأم بشؤون المنزل. ويشترك أغلب الباعة الجائلين أيضا في تجربة الانقطاع المدرسي نظرا للظروف المادية للأسرة، فيغادرون مقاعد الدراسة في فترة المراهقة ويتوجهون إلى العاصمة للعمل في نهج إسبانيا، وتصاحب رحلتهم إلى العاصمة بمشاعر الفقر والحرمان من جهة، وآمال تحسين الوضعية المادية للعائلة من جهة أخرى. وقال بعض المستجوبين أيضا إنهم كانوا يعملون في السوق في سبيبة ويدرسون، ولكنهم قرروا لاحقا مغادرة مقاعد الدراسة والسفر إلى تونس للعمل في نهج إسبانيا. ولنفهم أكثر تمثّل بعض البائعين المتجولين للمدرسة بما هي مؤسسة تنشئة أولية يكفي أن نتتبع قصصهم حول المعاناة اليومية للوصول إلى المدرسة. وفي هذا المعنى، يصف أحد المستجوبين مثلا رحلته اليومية إلى المدرسة التي تبعد عديد الكيلومترات عن منزل عائلته فيكون عليه قطع مسافات طويلة في الصباح والمساء مشيا على الأقدام خلال الصيف والشتاء. وقد يفيض الوادي الذي يفصل بين المنزل والمدرسة فيتغيب عن المدرسة لأيام. يقول المستجوب إن السنوات التي قضّاها في المدرسة ولدت لديه مشاعر «الكره والحقد» على المؤسسات التعليمية. أما بعض المشاركين في المقابلات في إطار هذا البحث فلم يلتحقوا أصلا بمقاعد الدراسة ولم ترسلهم عائلتهم إلى المدرسة نظرا لبعدها عن منازلهم.ويشير البحث الكمي الذي تضمّن سؤالا حول رأي الباعة المتجولين في المدرسة إلى أنّ 67 بالمائة من المستجوبين يرون أنّ «المدرسة مؤسسة ضرورية لكنها فاشلة». وحول سبب الانقطاع المدرسي أجاب 54 بالمائة من نفس العينة التي تتضمن مائة مبحوث أن وضعهم المادي اضطرهم للعمل وترك مقاعد الدراسة.

أما فترة المراهقة التي يقضيها الباعة المتجولون عادة بعيدين عن عائلاتهم، أي في نهج إسبانيا، فتمثل بدورها لحظة انقطاع أخرى تضاف إلى الانقطاع المدرسي. فمثلما فسّر بعض المستجوبين، لم تكن الموارد المالية كافية دائما لزيارة العائلة بانتظام مما وتّر العلاقة بينهم وبين أسرهم في فترة المراهقة. أما أولئك الذين قضّوا فترات من المراهقة في سبيبة قبل السفر إلى العاصمة فقد قال بعضهم أنّ العلاقة مع العائلة تتوتر نظرا

لتأثير المحيط الاجتماعي الذي شجعهم على تعاطي القنب الهندي/الزطلة في ظل غياب دور الشباب والثقافة والمكتبات العمومية مما انعكس سلبا على علاقاتهم مع العائلة ودفعهم لاحقا للانقطاع المدرسي والتوجه إلى العمل في نهج إسبانيا. وتكشف المقابلات التي أجراها باحثو المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية مع الباعة المتجولين في نهج إسبانيا أيضا عن سمة مشتركة بين أغلب المستجوبين وتتمثل في فشل أغلب علاقات الباعة المتجولين العاطفية في فترة المراهقة، ثم صعوبة تأسيس عائلة والتفكير في الزواج بعد سن المراهقة نظرا لأن أغلب النصّابة يرون أن مهنتهم ظرفية لا تسمح بالاستقرار (82 بالمائة يعتبرون انفسهم عاطلين عن العمل). وأشار عدد من المستجوبين أيضا إلى أن عدم الاستقرار يتمثل في الخطر اليومي المتمثل في الحملات الأمنية التي قد تؤدي إلى حجز البضائع والسلع والخطايا المالية.

وبالإضافة إلى ما تقدّم، فإن للنصّابة أحلاما وآمالا لم تتحقق لكنها تظل حاضرة عند سردهم لقصص حياتهم وماضيهم، فأحد الباعة المتجولين مثلا)ولد سنة 1991 بسبيبة(كان يحلم بأن يكون لاعب كرة قدم محترف، والتحق فعليا بنادي سكك الحديد الصفاقسي وبدأ في التدرب معه، وبعد دخول والده السجن اضطر لمغادرة الفريق للعمل في العاصمة نادلا في مقهى ثم بائعا متجولا في نهج إسبانيا. وقال مستجوب آخر)ولد سنة 2003 بسبيبة(إنّه بدأ العمل في نهج إسبانيا عندما كان عمره أحد عشر عاما وقال إن حلمه في ذلك الوقت كان الانضمام إلى الجيش وليس العمل بائعا منتصبا. لكن المستجوب نفسه أكّد أن الظروف المادية لعائلته كانت –تحت الصفر- فانقطع عن الدراسة كحال أغلب الأطفال في منطقة سبيبة، ويرى المستجوب أن الطفولة في منطقة سبيبة لا تشبه أي طفولة في أماكن ومدن أخرى في تونس...هي حالة خاصة من الحرمان والفقر والخصاصة-

يمكننا القول إنّ عدم الاستقرارية هي إحدى السمات الرئيسية لحياة الباعة الجائلين. ويمكن تتبع مسارات تشكل عدم الاستقرارية من خلال سلسلة الانقطاعات وتفكّك الروابط بينهم وبين المؤسسات والأفراد كما تبينه المقابلات والبحث الإثنوغرافي. وبعبارة أخرى، فإن عدم الاستقرار يُضعف علاقة البائع المتجول بداية بالمدرسة، ثم بالعائلة

خـلال فـترة المراهقـة والانتقال للعيـش والعمـل في العاصمة. ويؤثـر على علاقاتـه العاطفية، وحياتـه الاقتصاديـة. وحتـى داخـل نهـج إسـبانيا يرى كثـير من المسـتجوبين أنـه لا علاقة متينـة تربطهـم بزملائهم.ذلـك أنّ 84 بالمائـة مـن المبحوثين أجابوا عن سـؤال حـول الزمالة داخـل نهـج إسـبانيا بأنهم –أفـراد لا يجمع بينهـم إلا مكان العمـل- وتبقى دوائـر انتمائهم وعلاقاتهـم ضيّقـة ومتعلقـة أساسـا بالروابـط الأسرية وأصدقـاء الطفولـة ممـن انتقلوا إلى العاصمـة للعمـل أيضـا في نهـج إسـبانيا. وتُضاف إلى سلسـلة الانقطاعـات وتفـكّك الروابط مـع المدرسـة والعائلـة، خيبـات الأمـل والإحبـاط التـي يعيشـها البائـع المتجول الـذي يترك خلفـه أحـلام الطفولـة ليلتحق بأقاربـه أو أصدقائـه في نهج إسـبانيا ويبدأ حيـاة جديدة، أي حيـاة الاقتصـاد الشـارعي، الذي يجـد النصّاب نفسـه جـزءًا منهخـارج رغباته الشـخصية وحسـابات الربـح والخسـارة الاقتصاديـة المجردة، ووفـق ما تفرضهأسـباب عديـدة حاولنا إبـراز أهمها في هـذا البحث.

وهكـذا ترتسـم في الشـارع الملامـح الاقتصاديّـة والثّقافيـة عامّـة للبائـع المتجـول الـذي يخـرج عـن الشـكل المألوف للفاعـل الاقتصـادي. فالبائـع المتجول في نهـج إسـبانيا، ونتيجة لعـدم الاسـتقرار ولخيبات الأمـل والإحباط الذي يعيشـه في علاقـة بماضيه الـدراسي والعائلي والعاطفـي والاقتصـادي والعنـف الرمـزي والمـادي الذي يتعرض لـه في الشـارع) وفي علاقة بالدولـة أيضـا كمـا سـنبيّن لاحقـا(، يسـتحيل ذاتـا مرتابـة ،والرِّيبة تعني مـن جِهةٍ الشّـكّ والظـنّ والتّهمـة[18]، وتعنـي من جهـة أخـرى، مصاعب الحيـاة ومشـقاتها[19]. ولذلـك يمكننا القـول إنّ المسـارات الحياتيـة للبائـع المتجـول تجعـل منـه ذاتـاً مرتابـة أي تشـك في نوايـا الآخريـن تجاههـا ولا تثـق فيهـم نظـرا لخيبـات الأمـل المتتاليـة والإحباطـات التي يعيشـها النصّـاب منـذ الطفولـة والتي تؤثر سـلبا عـلى قدرته على بناء علاقات ثقة وتشـكيل رأسـمال اجتماعـي يتجـاوز شـبكة العلاقـات الأسريـة وصداقـات العمـل في نهـج إسـبانيا. ويصبح النصّـاب المرتـاب المتشـكّك في الآخـر موضـوع ريبة رجـل الأمن والشرطـة البلديـة والجيران القاطنـين في نهج إسـبانيا وأصحـاب المحـلات في النهج وهو أيضـا موضوع وصـم اجتماعي

18 ابن منظور، **لسان العرب** (القاهرة: دار المعارف، 2010)، ص 1788.

19 المرجع نفسه.

مـن الآخـر ذاته. ونفهـم أيضا مـن المقابلات والبحـث الكمـي، أنّ البائع المتجـول لا يثق عادة في الدولـة ومؤسسـاتها وفي الجمعيـات والأحزاب ، أي أنّـه يعيش إلى درجة ما خارج الرسـمي the formal، لا في حياتـه الاقتصاديـة فقـط، بـل في جوانـب أخرى من حياته أيضـا والتي قد تحتـاج بدورهـا لبحـث أنثروبولوجي مسـتقل لفهـم تفاصيلها[20].

ونذكـر هنـا مثـلا، للدلالـة عـلى شـعور الريبـة والتوجـس مـن الآخـر، وعـدم الثقـة في المؤسسـات، أنـه عند إجراء البحـث الإثنوغرافي في نهج إسـبانيا، كان بعض البائعين يسـخرون مـن باحثـي المنتـدى ومـن أجهـزة التصويـر «تشـوف فيـه عـرس جـاي تصـور هنا....تي باعثينهـم اسـيادهم» وفي مشـهد آخـر تـلا حملـة أمنيـة عـلى الباعـة، أرادت فتـاة أن تظهر تعاطفهـا ومسـاندتها للنصّابـة: «ما تهربـوش وهانـا الكلنا معاكـم والجمعيـات زادا ياقفوا معاكـم انتومـا زواولة وعندكم الحق في الشـغل «فـكان ردّ بائع متجوّل» باللـه تعدي **** مـن قدامـي يعطـك **** ليكـم ولهـا اللغـة الي حفظتوهـا». ويبـيّن البحث الكمـي)عينة تتضمـن 100 مبحـوث(أنّ 82 بالمائة مـن النصّابة ليس لهم حسـاب بنكـي أو بريدي، و90 بالمائـة ليـس لهـم دفتر عـلاج وقرابـة 100 بالمائة مـن العينة ليسـوا منخرطـين في جمعيات أو أحـزاب أو نقابـات، أمـا عـن المشـاركة في الانتخابـات عمومـا، فأجـاب 89 بالمائـة إنهم لا يشـاركون فيها.

20 يتقارب مفهوم الرِّيبة والذات المرتابة مع مفهوم السينيسيزمcynicism كما تناولته عالمة الأنثروبولوجيا يائيلنافاروYael Navaroفي دراستها الإثنوغرافية للوجود السياسي في تركيا وتفاعل الأفراد مع الدولة وخطابها)واشتهر المفهوم في عمل بيتر سلوتردايكPeter Sloterdijk قبل ذلك وتعليق سلافويجيجاكSlavoj Žižek عليه(. وقد درس الأنتروبولوجي ألكسي يُرشاك Alexei Yurchak أيضا حالة السينيسيزم في الاتحاد السوفياتي وكيف فقد الأفراد تدريجيا الثقة في خطاب الدولة الرسمي الذي استحال مع الوقت خاليا من أي محتوى، مما جعل، حسب يورشاك، آخر أجيال الاتحاد السوفياتي تقبل بهدوء نهايته. ويفيد السينيسيزم، بما هو حالة وجود سياسي، مرحلة يصبح فيها تفاعل الفرد مع الدولة منحصرا بين التهكم واللامبالاة، ويرى كل من نافاروويجيك أنّ الدولة الحديثة تحتاج للذّات السّاخرة cynical subject للحفاظ على استمرارية سلطتها ووجودها.
انظر/ي:
Yael Navaro-Yashin, *Faces of the State. Secularism and Public Life in Turkey* (Princeton: Princeton University Press, 2002).
Alexei Yurchak, «The Cynical Reason of Late Socialism: Power, Pretense, and the Anekdot», *Public Culture*, Volume 9, (1997).
Alexei Yurchak, *Everything Was Forever, Until It Was No More: The Last Soviet Generation* (Princeton: Princeton University Press, 2006)

البائع المتجول وتمثلات الدولة

إنّ دراسة نهج اسبانيا كنموذج للاقتصاد غير رسمي informal economy يخرج عن الشكل form الذي تضعه الدولة للنشاط الاقتصادي قد يحيل على فصل بين كيان مستقل: الدولة، وبين فضاء نهج اسبانيا والفاعلين فيه، أي النصّابة أو المجتمع بصورة أعم. لكنّ هذا الفصل الذي يرسم حدودا بين الدولة والمجتمع فصل مُتخيل ولاوجود واقعي له. أمّا نشاط النصّابة الاقتصادي، وإن خرج عن الشكل الذي ترسمه الدولة، فهذا لا يعني أنه نشاط فوضوي لا تحكمه قوانين وأشكال أخرى للتنظيم. ويكشف البحث الاثنوغرافي والمقابلات مع الباعة المتنقلين عن أشكال تنظم وقوانين تحكم الاقتصاد الشارعي في نهج إسبانيا. وسنحاول في هذا الجزء من البحث (1)فهم علاقات القرابة في تشكيل قوانين وتقاليد داخلية تنظم الاقتصاد الشارعيو(2) أشكال حضور الدولة في الشارع ومساهمتها في انتاج نهج اسبانيا.

القرابة والتنظيم الداخلي لنهج إسبانيا

عدد كبير من البائعين هنا هم أبناء عمي... ننحدر من منطقة سبيبة في ولاية القصرين...من عائلة الغلايقي...نحن هنا افراد عائلة يربط بيننا الدم والمهنة... جئنا الى تونس على مراحل وفترات، بعض أقاربي يقيمون هنا في تونس العاصمة واستقروا هنا وتزوجوا..عندما جئت هنا لأول مرة...كان عمري عشر سنوات...استقبلني أقاربي...[21]

يخضع التنظيم الداخلي لنهج اسبانيا أساسا لنفوذ العرش)العشيرة(الذي يمتلك العدد الأكبر من الأفراد)عرشا الغلايقية، والجمايليةبالقصرين، وأولادعيّاربسليانة(ويتمتع بنفوذ مالي. وتنظم العروشية) نسبة إلى العرش أو القبيلة(شبكة العلاقات داخل نهج اسباينا فتقسّم المجال بين الباعة وتفرض معلوم كراء)المَكْس(على الباعة غير

21 مقابلة نصف موجّهة أجريت بتاريخ 05 أكتوبر 2021.

منتمين إلى العرش المسيطر على السوق)كعرش جلاص مثلا(. وإذا رفض البائع دفع معلوم الكراء تُحجز سلعته وافتكاكها ويطرد من المكان. ويروي أحد الباعة المتجولين قصته مع هذا النظام الداخلي للسوق فعندما رفض دفع المكس فتم تهديده بافتكاك السلع، لكنه بمجرّد ذكر انتمائهإلى عشيرة المكّاس نفسها لم يطالبه أحد بدفع معلوم كراء مكان النصبة. كما أنّ-للأقدمية- في السوق أهمية حسب الباعة المتجولين، فأوائل الواصلين إلى السوق من النصّابة يحجزون لأنفسهم بعض الأماكن في نهج إسبانيا والتي سميت بأسمائهم وأصبحت كأنها خاضعة لملكيتهم الشخصية، ثم مع مرور السنوات يقومون بالمتاجرة فيها ببيعها أو كرائها بمقابل مادي وكأنهم أصحاب عقود ملكية.

وتحدث بعض النصّابة عن دور القرابة العروشية في مسقط رأسهم وكيف أنّهم رفضوا الانخراط في العمل الفلاحي نظرا لنمطه التقليدي ولأنّه عمل تحكمه الملكيات الاشتراكية للأراضي. فيخضع الاستثمار الفلاحي لموانع قرابية، ومن يسيطر أولا على الأراضي الاشتراكية يستثمرأولا. وقد يضع لاحقا عراقيل تحول دون استثمار أقاربه للأرض. هكذا يبدأ بعض الشباب خاصة في منطقة سبيبة في البحث عن عمل في نهج إسبانيا نظرا لتوفر ما يمكن تسميته ببوابة عبور، وهوعادة شخص تربطه قرابةأو صداقة بالشاب المعطل عن العمل والمنقطع عن الدراسة.فيتولى المساعد تأمين عملية دخول الشاب المعطل إلى عالم الاقتصاد الشارعي في نهج إسبانيا. فيتم انتداب العامل بداية عبر اتصال هاتفي، أي تواصل مباشر بين أحد أصحاب الرأسمال الذي يمتلك العديد من الأماكن المخصصة للانتصاب والتي يمنحها للباعة العاملين تحت إمرته في بيع المواد والسلع التي يملكها. هذا التملك للأماكن لا يتم عبر اتفاقأوعقد قانوني مبرم مع بلدية المكان وإنما بفعل توفر شبكة علاقات مع الأمن والتي تضعه في خانة المعفيين من حملات الحجز وتحرير محاضر الانتصاب الفوضوي في الطريق العام دون موجب رخصة من السلطات المعنية. وهي الحملات التي يعاني منها الباعة الصغار (الحلقة الهشة في السوق، وهي فئة تعمل دون تغطية وحماية لضعف القوة المالية التي تسمح لأفرادها بتوفير غطاء حماية أمنية مقابل رشوة يدفعونها لأعوان الأمن(. أمّا صاحب الثّروةالتي تتحقّق في أغلب الأحيان من العمل كبائع في النهج لسنوات طويلة، فيتمكن بسهولةاعتمادا على صلة القرابة والحالة الاجتماعية الهشة للعائلات خاصة في منطقة

سـبيبة، مـن انتداب عمّـال وبينهـم أطفال وقصر تـتراوح أعمارهـم بين 12 و16 سـنة لمزيد مراكمـة ثروتـه وتدعيم أسـطوله مـن النّصبات.

وبهـذا يكون مسـار البائـع المنتصب مشـكّلا وفق خطوط واضحة. إنّه مسـار يبـدأ عندما يغـادر الطفـل منطقة سـبيبة ليبدأ في العمـل برتبة مسـاعد (صانع) مقابل أجـر يومي قدره (في أغلـب الأحيـان) 60 د لـدى صاحـب رأس المـال الـذي يمنحـه مكانـا للانتصـاب فيه أو بصفـة شريـك في المداخيل التي تقسـم بالتسـاوي بينهمـا أو بنسـب متفاوتة حسـب الاتفاق المـبرم شـفويا بينهما. وحسـب شـهادات لبعـض الباعـة، فإنه وبعد 5 سـنوات مـن العمل) عـلى الأقـل(يمكـن للصانـع أن يصبـح بـدوره صاحـب رأسـمال قادر عـلى تشـغيل آخرين في النطـاق الجغـرافي والتقسـيم الجغـرافي القائـم. ويمكنه أيضـا أن يتوجـه إلى العمل بصفة فرديـة باعتبـاره صاحـب نصبةيبيـع عبرهـا بعـض السـلع غـير المكلفة مـن ناحيـة القدرة الشرائيـة ومـن ناحيـة الخسـارة في حـال الحجز مـن قبل أعـوان الأمن.

«الركض داخل الدائرة» : الدولة والبائع في الشارع

إنّ خطـاب البائـع المتجـول حـول الدولـة، كمـا نفهمـه مـن خـلال البحـث الإثنوغـرافي والمقابـلات التـي أجراهـا باحثوالمنتـدى التونـسي للحقـوق الاقتصاديـة والاجتماعية، يرسـم حـدودا مُتخيلـة بـين حياتـه الاجتماعيـة والاقتصاديـة وبـين الدولة بمـا هي كيان مسـتقل. فـيرى البائـع المتجـول أنـه يعيـش خـارج حـدود الدولـة، أو عـلى هامشـها. وقـد توحـي اللارسـميّة informality التـي تحكـم حياتـه الاقتصادية في نهج إسـبانيا أيضـا بهذا الفصل بـين النصّـاب والدولـة، أو بصفـة أعـم بـين الدولـة مـن جهـة والمجتمـع مـن جهـة أخرى. وباختصـار فـإن القـراءة الأوليّـة لخطـاب النصّاب حـول الدولة تكشـف أنّ البائـع المتجول يتمثـل الدولـة بصفتهـا كيانا يدفعـه أولا، ومن خـلال تهميش منطقتـه الداخليـة، إلى التنقل إلى العاصمـة والعمـل في القطاع غير الرسـمي. ثم يسـعى هـذا الكيان، في مقام ثـان، إلى تأبيد حالـة الهشاشـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للبائـع المتجولوتثبيتهـا مـن خلال أجهـزة الدولة وقوانينهـا. وفي هـذا السـياق، يقـول بعض النصّابـة مثلا إنهم يـرون أنفسـهم «رهائن» عند

الدولــة تهددهــم وتضغــط عليهــم من خلال قــوت يومهــم) في إشــارة هنا لحمــلات الشرطة البلديــة وحجــز الســلع(. ويمثــل بائع متجــول آخر وضعــه وكأنه خُلــقَ داخل دائــرة يركض وســطها ولا يمكنــه مغادرتهــا، فــلا يمكنــه أن يصبح غنيــا أو منتميــا إلى الطبقة المتوســطة ميســورة الحــال ولا يمكنــه أيضــا العمــل بصفة قانونيــة في نهج إســبانيا.

عــلى الرغــم مــن أن وصف الباعــة المتجولين لمســاراتهم الحياتيــة ودور التهميــش في نحت ملامحهــا يحيل عــلى واقع يعيشــه النصّاب فعليــا، إلّا أن هــذا الواقع الاجتماعــي والاقتصادي لا يعنــي غيــاب الدولــة كمــا يصفــه بعــض الباعــة المتجولــين أو كما قــد يتمثله القــارئ، ولا يعنــي أيضا أن النصّــاب يعيش خارج حــدود واضحة للدولــة تفصل بينها وبينه. ويســاعدنا العمــل الميدانــي المنجــز في إطار هذا البحــث على مقاربــة العلاقة بــين الدولة والباعــة مقاربة اثنوغرافيّــةً نقــف مــن خلالهــا عــلى أبعــاد مختلفــة لهــذه العلاقة التــي تتراوح بــين خطاب يصــوّر الدولــة باعتبارهــا كيانــا غائبــا في الهامش، وهو بذلــك كيان بعيــدٌ جغرافيــا وماديا، وبــين كيــان متفاعل وممــارس لأدواره وهو مــا نلاحظه في نهج إســبانيا، ونرى مــن خلاله أنّ البائــع المتجــوّل يشــعر بالدولة على جســده[22] كما ســنبين لاحقا.

وقبــل التطــرّق لمــا يكشــف عنه العمــل الميدانــي في نهج إســبانيا عــن العلاقة بــين الدولة والبائــع المتجــول، يمكننــا بإيجاز الإشــارة إلى أن دراســة الدولة دراســة إثنوغرافية في ســياق الــدوّل ما بعد الاســتعمارية، كمــا ذهب إلى ذلــك الأنثروبولوجي أخيل جوبتــا Akhil Gupta، تســتوجب الوعــي بــالإرث الغربي في أدبيات دراســة الدولــة، وهوذلك الإرث الــذي يفصل مثلا بــين مفاهيــم الدولــة والمجتمــع المدنــي state and civil society. ويقــول غوبتا إنّ دراســة الخطــاب حــول الفســاد والرشــوة كما ينتشر بــين النّــاس في معــرض حديثهم عــن الدولة لا يجــب أن يفهــم عــلى أنّه اختــلالٍ في جانب مــن جوانب عمل الدولــة فقط، بل إنّ هــذا الخطاب يمثــل آليــة تنتج الدولة نفســها مــن خلالــه خطابيــا discursively، وتحضر الدولــة بذلك في أبســط المحادثاتبــين النّــاس وفي تفاصيل حياتهــم اليومية[23].

22 See: Maple Razsa, *Bastards of Utopia: Living Radical Politics after Socialism* (Bloomington: Indiana University Press, 2015).

23 Akhil Gupta «Blurred Boundaries: The Discourse of Corruption, the Culture of Politics, and the Imagined State». *American Ethnologist*, volume 22, (1995). P 376.

حـاول باحثـو المنتـدى مـن خلال العمـل الميدانـي ملاحظـة تفاعـل الباعـة المتجولين مع بعـض أجهـزة الدولـة والمتمثلـة أساسـا في الشرطـة البلديـة. ويمكننـا القـول إن الحمـلات الأمنيـة عـلى الباعـة تمثل لحظات تكشـف عـن الأدائيـة performativity التي تنتـج الدولة نفسـها من خلالها في الشـارع. وتأتـي هذه الحملات في أوقـات بإمكان الباعـة توقعها أحيانا، خاصـة بالنّسـبة إلى أولئك الذين اشـتغلوا في السـوق لسـنوات طويلة. وتحـضر الدولة في هذه الحمـلات مـن خـلال أصـوات صافـرات الإنـذار التـي تطلقهـا سـيارات الشرطـة وأصوات أعـوان الأمـن التـي تتعـالى بالعنـف اللفظـي والعبـارات النابية. وتُضـاف إلى هـذا صيحات الفـزع التـي يطلقهـا الباعـة لتنبيه بعضهـم البعـض. ويرافق العنـف اللفظـي، أو الحضور الصوتـي للدولـة، عنف مادي يمـارس على الباعـة المتجولين، فيشـعر البائع المتجـول بالدولة عـلى جسـده، وهـو البائـع نفسـه الذي يؤمـن بغيـاب الدولـة وبعدها عنـه في الهامـش. وقد يـركل رجـال الأمـن كراتين الباعة بعـد هروبهـم وهـذه الأدائيـة performativity هي التي تنتـج الدولة وتأثير الدولـة[24]، بعبارة تيموثي ميتشـلTimothy Mitchell ، في الشـارع. لكنّ هـذه الصـورة أو المشـهد المعتـاد للحمـلات الأمنية ليـس ثابتـاً. فأحيانـا، كما لاحـظ باحثو المنتـدى خـلال العمـل الميدانـي، يختار أعـوان الشرطـة أن يحتسـوا قهوة في مقهـى البرانس وعنـد ملاحظتهـم لمحاولـة بائـع قـد هـرب مـن حملة أمنيـة سـابقة، مـن أن يعـود بنصبة سـجائر مهربـة، فانهـم يكتفـون بتهديـده بطريقـة سـاخرة ودون عنف لفظي او جسـدي: «أرجـع أرجـع خير مـا نجـي نفكهالك».

تختلـف إذن صـور حضـور الدولة في الشـارع وتفاعـل النصّـاب مع أجهزتهـا، ونضيف هنـا مثـالا تمـت ملاحظتـه في نهـج اسـبانيا يوضـح أن علاقـة النصّاب مـع الدولـة تتأثر لا فقـط بمـا يعيشـه في الشـارع مـن تفاعـل مبـاشر مـع الشرطـة البلدية، بـل أيضـا إنّ هذه العلاقـة تتأثـر بأحـداث هيكليـة. فقـد أجـرى باحثـو المنتدى عمـلا ميدانيـا قبل إجـراءات 25 جويليـة 2021 التـي أعلـن عنها رئيـس الدولـة قيّس سـعيّد وبعدها ولاحظـوا أن علاقة الشرطـة البلديـة بالنصّابة شـهدت تحولا طفيفا مـن العدائيـة والمطاردة (قبـل 25 جويلية)

24 Timothy Mitchell «The Limits of the State: Beyond Statist Approaches and Their Critics». *The American Political Science Review,* volume 85, (1991).

إلى الهدوء الحذر)بعد 25 جويلية(. فقلت وتيرة الدوريات ولم النصّابة يهربون من الدوريات، وفي عديد الأحيان كان أصحاب الكراتين والعربات اليدوية يتنحون جانبا للسماح للدوريات الأمنية بالمرور.

ولاحظنا أيضا في إطار العمل الميداني أنه لا يمكننا أنّ نقسّم الشارع بين بائعين وسكّان من جهة) مجتمع، (وأعوان الشرطة البلدية) دولة (من جهة أخرى، تقسيما ثابتا يخضع لأدوار مضبوطة دائما. فأحيانا يستغل الأمني انتصاب الباعة بشكل غير قانوني كي يبتزهم طلبا للرشوة مقابل عدم تحرير المحاضر ضدهم. وهم يستغلون الرشوة التي يدفعونها للتمرد على متساكني المنطقة والتصرف وفق أهوائهم دون أي احترام لأهالي المنطقة الذين توجهوا إلى السلط الأمنية لتقديم شكاو كالتعدي على الملك الخاص والاعتداء بالعنف وعدم احترام الجار إلا أن تشكياتهم لم تقبل ولم تجد آذانا صاغية. وعلى مستوى آخر، فإن لأجهزة الدولة دورا رقابيا في علاقة بوصول السلع المهربة عبر الحدود، ويشير عبد الرحمن بن زاكور في بحثه حول القطاع غير الرسمي في تونس، إلى أنّ الدولة، وخلال عقود من الزمن، سمحت بدرجة من هذا الاقتصاد خاصة على الحدود التونسية الليبية نظرا للفقر الذي تعيشه بعض هذه المناطق [25]. وتحدّث عدد من البائعين في إطار هذا البحث عن مسؤولية الديوانة وأجهزة الدولة الرقابية في وصول السلع الى المزودين والوسطاء قبل أن تصل أخيرا للبائع المتجول في نهج إسبانيا.

إنّ دراسة الممارسات اليومية للبائع المتجول في السوق وتفاعله مع أجهزة الدولة ومؤسساتها وربط الممارسات اليومية الميكروسكوبية كالرشاوي وشبكة العلاقات مع رجال الأمن في الشارع والتي تسهل عمل النصّاب، بممارسات ماكروسكوبية متعلقة أساسا بالتهريب وعلاقته بأجهزة الدولة كالديوانة وشرطة المعابر وحرس الحدود، يكشف أنّ النصّاب والدولة ينتجان نهج إسبانيا، وأنّ هذا الفضاء الاقتصادي هو فضاء بين الرسميّة واللارسميّةformality/informality ، تراه الدولة بوضوح، أي أننا لا يمكن

25 Abdelrahman Ben Zakour, «*Le secteurinformel en Tunisie: Autorité de l'état ouautorité de l'informel*», Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux, (2021), p 31.

ان نصفه بأنه اقتصاد سري/تحتي underground. وتنتج الدولة نهج اسبانيا لا من خلال التدخل المباشر في آليات اشتغاله، بل من خلال اختيار فترات ما يتدخل فيها الأمن لفرض سيطرتهمن خلال حملات صغيرة وحملات كبيرة كما يصفها الباعة.

يمكننا القول أخيرا إنّ دراسة تمثلات البائع المتجول للدولة تستوجب بداية التفريق بين الدولة كما تحضر في خطاب النصّاب حول نفسه وحول وضعه الاجتماعي والاقتصادي، أي كما يتخيلها البائع المتجول، وبين تفاعله مع أجهزتها ومؤسساتها في حياته اليومية) الممارسة. (ومن جهة أخرى، فإن دراسة تمثلات البائع المتجول للدولة لا تعني الفصل بين الدولة والمجتمع فصلا يرسم حدودا واضحة بين الاثنين. ويبّن هذا البحث أنّ الدولة تنتج ظروفا اجتماعية واقتصادية تدفع أبناء الهوامش الداخلية للتحول إلى بائعين متجولين، كما تنتج من خلال تقنيات الحضور/الغياب والأدائية) والسماح بدرجة من الاقتصاد غير الرسمي، (باستمرار الاقتصاد الشارعي وباستمرار الهشاشة الاجتماعية والاقتصادية أيضا. فنشاط الاقتصاد الشارعي في فضائه المباشر، أي نهج إسبانيا، وفي فضائه غير المباشر،أي الحدود أو نقاط التهريب، هو نموذج لتداخل أشكال تنظيم عروشيةودولتية تجعلنا نتساءل كما تساءل عدد من الباحثين لعلّ أبرزهم فيليب أبرامز Philip Abrams وتيموثي ميتشل Timothy Mitchell، وبيجونا أريتشاغا Aretxaga Begoña ومايكل تاوسينج Michael Taussing، عن ماهية الدولة الحديثة ووظائفها، وحدودها إن وجدت.

خاتمة

يمثل سوق نهج إسبانيا مخبرا للعلوم الاجتماعية. ورغم أننا حاولنا من خلال هذا البحث الإحاطة ببعض الجوانب المتعلقة بتشابكات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للفاعلين في نهج إسبانيا، إلا أننا ندرك جيدا أن التجارب الحياتية للنصّابة لا يمكن أن تُختزل في بحث أو مؤلف جماعي واحد. فبعض المباحث، كحضور المرأة في نهج إسبانيا مثلا، تتطلب حتما مزيدا من البحث. لكننا، وبعملنا هذا حول نهج إسبانيا، والذي حاولنا فيه أن نقدم تحليلا سوسيو-أنثروبولوجيا لظاهرة لم يتناولها، على حد علمنا، الباحثون في تونس وخارجها بالدرس، فإننا نقدم مادة بحثية أوليّة تتطلب بلا شك مزيدا من الغوص في عوالم الباعة المتجولين باعتبارهم نماذج لفاعلين في الاقتصاد الشارعي في تونس. وقد حاولنا من خلال هذا المقال أن نتتبع المسارات الحياتية لعينة من الباعة المتجولين وأن نلاحظ، من خلال العمل الإثنوغرافي، تفاصيل حياتهم الاجتماعية والاقتصادية في نهج إسبانيا كما يعيشونها. فالبحث الأنثروبولوجي هو بحث مع النّاس وليس بحث حولهم فقط.

وفي سياق ما تعيشه تونس اليوم من فترة تشبه طقس عبور من مرحلة سياسية اتسمت بالتفرّد بالحكم والديكتاتورية، إلى مرحلة إعادة بناء وتشكيل لمعنى الدولة والسياسيّ the political/le politique، فإن دراسة المجتمع وخاصة الفئات الهشة والمهمّشة والتي كانت تاريخيا وقود الثورات والانتفاضات الاجتماعية في تونس لا يجب أن تفصل عن مسارات دراسة الدولة ومؤسساتها. ففترات الانتقال والتحول كما يصطلح عليها في العلوم السياسية، هي أيضا فترات تشكل المعنى كما أسلفنا في هذا البحث. وإن كان السؤال الذي يُطرح في المنابر الإعلامية في تونس اليوم، خاصة بعد 25 جويلية، هو أي نظام سياسي نريد؟ وأي ديمقراطية نريد؟ وأي برلمان وقضاء نريد؟ فإننا نرى أن السؤال الأجدر بالطرح هو أي دولة لأي مجتمع؟ وأي ديمقراطية لأي دولة؟ لا تُفصل هذه الأسئلة عما تناولناه في بحثنا هذا،

فمحاولــة فهم فئــة الباعــة المتجولين، هي محاولــة في فهم المجتمــع بعد 2011. ودراســة الدولــة في الشــارع هي دراســة الســياسيّ. لــذا فإننا نرى بــأن فهم ما تعيشــه تونــس مــن تحــولات كــبرى وهيكلية حتــى على مســتوى أعــلى هرم في الســلطة اليــوم، يبــدأ بفهــم المجتمع في الشــارع. ويظــل الهدف مــن بحثنا هذا ومــن باقــي البحوث في هــذا المؤلــف الجماعي عموما المســاهمة في فهــم المجتمع التونــسي والدولــة خلال فترة تاريخية تعيشــها تونــس اليوم قد تفتــح إمكانات جديّــة لتغيــير حقيقي لعلاقــة المجتمــع بالدولة ●

بيبليوغرافيا مختارة

المراجع العربية

هان، كريـس، وهارت كيـث. **الأنثروبولوجيا الاقتصاديـة: التاريـخ والإثنوغرافيا والنقد**، ترجمـة عبد اللـه فاضل. الدوحـة : المركز العربي للأبحاث ودراسـة السياسـات، 2014.

المراجع الأجنبية

Ben Zakour, Abdelrahman, *''Le secteurinformel en Tunisie: Autorité de l'état ouautorité de l'informel''*.Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux, (2021): 1-79.

Carrier, James G. A *Handbook of Economic Anthropology*. Cheltenham: Edward Elgar, 2005.

Gregory, Chris. *''Whatever Happened to Economic Anthropology?''*.The Australian Journal of Anthropology, 20 no 1 (2009): 285–300.

Gupta, Akhil. *''Blurred Boundaries: The Discourse of Corruption, the Culture of Politics, and the Imagined State''*. American Ethnologist. 22 no 2 (1995) 375-402.

Hart, Ketih, Cattani Antonio David, and Laville, Jean-Louis. *The Human Economy*. Cambridge: Polity Press, 2010.

Mitchell, Timothy, *''The Limits of the State: Beyond Statist Approaches and Their Critics''*.The American Political Science Review, 85, no 1 (1991): 77-96.

Navaro-Yashin, Yael. *Faces of the State. Secularism and Public Life in Turkey.* Princeton: Princeton University Press, 2002.

Standing, Guy. *The Precariat:The New Dangerous Class.* London: Bloomsbury Academic, 2011.

8

المحور الثامن

نصّابة نهج إسبانيا: هشاشة صحية بين مطرقة المخاطر المهنية وسندان غياب التأمين على المرض

الكلمات المفاتيح: هشاشة صحية، العملة اللانظاميون، تغطية صحية شاملة، حماية الصحة، العوامل الاجتماعية للصحة

مصطلح «الصحة العمومية»: إعادة مفهمة قبل الاستعمال

يطرح إدماج الصحة العمومية بمقارباتها المخصوصة في هذا العمل التحليلي متعدد الاختصاصات للاقتصاد اللانظامي -نصابة نهج إسبانيا نموذجا- إشكالية مفهومية تتعلق بالمعنى المتداول لـ«الصحة العمومية» في بلادنا، حيث يسود التأويل العلاجي المفرط لمفهوم «الصحة» كما يسود استعمال مصطلح «الصحة العمومية» للإشارة إلى القطاع العمومي للخدمات الصحية، وهو ما يتعارض أساسا مع المعنى الأكاديمي والعلمي للصحة العمومية التي تعرف على أنها «فن وعلم الوقاية من الأمراض، وإطالة الحياة، وتعزيز الصحة بفضل الجهود المنظمة للمجتمع»[1].

وبحكم ذلك، فإن الصحة العمومية هي قبل كل شيء -على الأقل نظريا- «عمل منظم ومنسق بين عدة فاعلين داخل المجتمع من أجل ضمان صحة العموم»، أي تلكالحصيلة التراكمية لتدخلات أطراف وعوامل مختلفة تفضي إلى مستوى معين للصحة الجماعية، قد يكون جيداأو سيئا. تفرض لحظة إعادة المفهمة هذه نفسهابصفتها فاتحة ضرورية ترفع عنا حرج المخاطرة المنهجية بمقاربة الصحة العموميةلموضوعنا دون استيضاح البعد التأليفي والجامع للمفهوم الذي يرمي بامتداداته بعيدا خارج الأسوار الضيقة لاستعمالاته المتداولة،محتضنا بذلك ما يعرف بـ«المحددات الاجتماعية للصحة»(Social determinants of health) والتي تشمل كل «العوامل غير الطبية»(Non medicalfac-tors)التي تؤثر عليها وهي تباعا المعرفة المتوفرة عنها(Health-relatedknowledge)، المعتقدات(Beliefs) والتصرفات(Attitudes)والسلوكات(Behaviors) إضافة إلى ما يعرف بـ«العوامل الفوقية» للصّحة(Upstreamdeterminants of health)مثل

1 Wendy Y. Huang, Stephen H. Wong, and Yang Gao, 'Public Health', in Encyclopedia of Quality of Life and Well-Being Research, ed. Alex C. Michalos (Dordrecht: Springer Netherlands, 2014), 5208–11,

الحرمان الاجتماعي (Social disadvantage) والتعرض للمخاطر (Riskexposure) والغبن الاجتماعي (Social inequity) والتي تفضي كلها إلى نتائج صحية سيئة (Poor healthoutcomes)[2]. تشير المحددات الاجتماعية للصحة إذن إلى كل الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تحدد سياق عيش الأفراد وتؤثر بذلك على صحتهم عن طريق فرضها لزيادة أو نقصان في مخاطر الإصابة باعتلال أو مرض ما.

إن زحزحة مفهوم «الصحة العمومية» من معقله البديهي في النفوسعن طريق الاقصاء الحازم لمقصوده الشائعمن علبة أدواتنا المنهجية في هذا البحث، وإعادة موضعته أكاديميا كمحصلة لتفاعلات محدداته الاجتماعية المختلفة، يمثل مدخلا ضروريا لاستنطاق النتائج الكمية والكيفية لهذه الدراسة بشكل يبرز حجم الارتباط الوثيق بين المخاطر الصحية العضوية والنفسية التي يتعرض لها نصابة نهج اسبانيا بمناسبة عملهم، ومختلف العوامل الاجتماعية التي تحكم ظروف حياتهم وتتسم بانعدام الأمان. وهو ارتباط يجعل الوضعَ الصحيّ في حد ذاته نتيجةً لغياب أبعاد معينة في سياسات الصحة، وحضور أبعاد أخرى تمارس على الفئة المستجوبة اقصاء مستمرا هو في حقيقته تمظهر من تمظهرات إقصائية عدة يتطرق إليها هذا البحث في بقية أجزائه.

1- المخاطر الصحية المهنية

أ- المخاطر العضوية

يتميز محيط العمل الخاص بالنصابةفي نهج اسبانيا بكونه يقع مباشرة تحت السماء المفتوحة (Work under open sky) في قلب وسط حضري مكتظ بمصادر التلوث الهوائي وهو ما يجعل الفئة المدروسة معرضة بشكل دائم للمخاطر المرتبطة بالعوامل المناخية سواء كانت البرد الشديد شتاء أو الحر الشديد صيفا وبارتفاع تركيز الجسيمات المعلقة

2 M. G. Marmot and Richard G. *Wilkinson, eds., Social Determinants of Health, 2nd ed* (Oxford ; New York: Oxford University Press, 2006).

(Particlematter) الملوثة للهواءالناتج خاصة عن الانبعاثات المتأتية من أساطيل النقل على الطرقات المجاورة[3]. وتعتبر هذه الجسيمات أحد المؤشرات الشائعة وغير المباشرة لتلوث الهواء، ويتجاوز عدد الأشخاص المتضررين من الجسيمات عدد المتضررين من أي ملوِّث هوائي آخر (لوحة 1).

لوحة 1: تعريف الجسيمات الملوثة للهواء حسب منظمة الصحة العالمية (عن موقع منظمة الصحة العالمية).

مكوناتها الرئيسية هي الكبريتات والنترات والأمونياوكلورايدالصوديوم والكربون الأسود والغبار المعدني والماء.

تتشكل من مزيج من الجزيئات الصلبة والسائلة للمواد العضوية وغير العضوية العالقة في الهواء. وفي حين أنه يمكن للجسيمات التي لا يتجاوز قطرها ١٠ ميكرومترات ($PM_{10} \leq$) أن تخترق الرئتين وتتغلغل فيهما، فإن الجسيمات الأضرّ على الصحة هي تلك التي لا يتجاوز قطرها ٢,٥ ميكرومتر ($PM_{2.5} \leq$)، وذلك لأنه يمكن للأخيرة أن تخترق حاجز الرئتين وتدخل إلى نظام الأوعية الدموية.

يُسهم التعرض المزمن للجسيمات في احتمال الإصابة بالأمراض القلبية الوعائية والأمراض التنفسية، وكذلك سرطان الرئة.

وعادةً ما يُبلَّغ عن قياسات نوعية الهواء بحساب متوسط تركيزات الجسيمات التي لا يتجاوز قطرها ١٠ ميكرومترات، بشكل يومي أو سنوي، في كل متر مكعب (م^3) من حجم الهواء في المكان.

عادةً ما تصف القياسات الروتينية لنوعية الهواء تركيزات الجسيمات هذه بالميكروغرام لكل متر مكعب (ميكروغرام/م^3). وعند توفر أدوات قياس حساسة بما فيه الكفاية، يُبلَّغ أيضاً عن تركيزات الجسيمات التي لا يتجاوز قطرها ٢,٥ ميكرومتر ($PM_{2.5}$) .

3 Md. Sadequr Rahman, 'Exploring Socio-Economic and Psychological Condition of Street Vendors of Barishal City: *Evidence from Bangladesh*' 7, no. 2 (2019).1,15

وهـي جسـيمات مجهريـة في حجمها ولكـن تركيزها المرتفـع في الهواء المستنشـق يجعلها ذات خطـر هام عـلى الصحة البشرية (رسـم 1).

رسـم 1: مقارنـة تقريبية لحجـم الجسـيمات الملوثة للهواء مع شـعرة بشريـة وحبات رمل شاطئية 4.

ويـؤدي التعـرض المسـتمر للجسـيمات الملوثـة للهـواء والتـي يـزداد تركيزهـا خاصة في المناطـق الحضريـة ذات الكثافـة السـكانية العالية إلى انعكاسـات سـلبية مبـاشرة على صحة

4 موقع الوكالة الأمريكية لحماية المحيط مع تعريب للمؤلف https://www.epa.gov/pm-pollution/particulate-matter-pm-basics (تاريخ الاطلاع: 20 جانفي 2022)

الإنسان[5]. وتشمل هذه الانعكاسات أجهزة ووظائف حيوية متعددة مثل الجهاز العصبي والعين والجهاز التنفسي والجهاز القلبي الوعائي والكبد والطحال والدم والجهاز التناسلي(رسم 2).

رسم 2: التأثيرات الممكنة للجسيمات الملوثة للهواء على الصحة6.

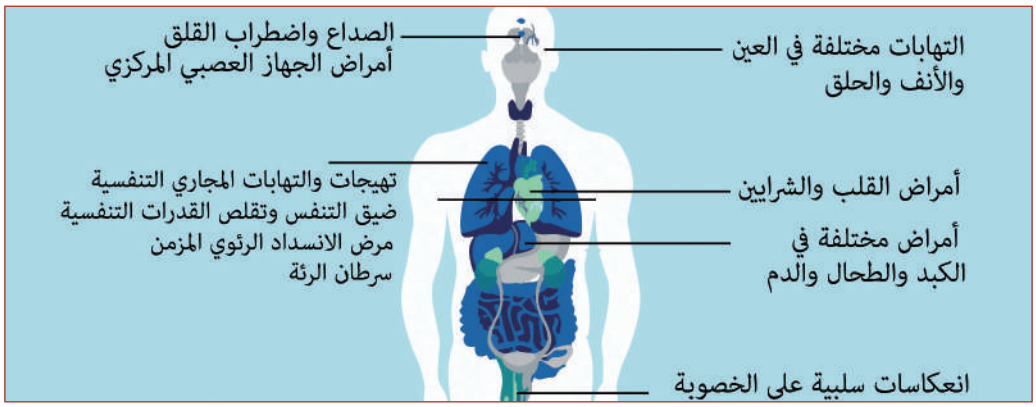

كما تعتبر العينة المشمولة بالدراسة معرضة بشدة لمخاطر حوادث الشغل الناجمة عن حمل المواد الثقيلة ومخاطر الاستنفار المستمر والمجهد للجهاز العضلي-العظمي والتي تشمل التهابات مختلفة للمفاصل وآلام الظهر والانزلاقات الفقرية الظهرية المؤدية

5 John W. Hollingsworth and Srikanth S. Nadadur, eds., Air Pollution and Health Effects, 1st ed. 2015, Molecular and Integrative Toxicology (London: Springer London : Imprint: Springer, 2015).both indoors and outdoors has been associated with the exacerbation and also in the etiology of diverse human diseases. This book offers an overview of our current understanding ofair pollution health risks and how this knowledge is being used in the regulatory, therapeutic intervention measures to protect the public health and reduce the disease burden caused by acute and long-term exposure to air pollutants. Air Pollution and Health Effects provides readers with a comprehensive understanding of air pollution health risks, morbidity and the global disease burden, whilst also delivering critical review on state of the art research so as to gain a fundamental understanding of the biological mechanisms involved in the etiology of air pollution-induced diseases. Chapters range from pregnancy outcomes and pre-term birth, carcinogens in the ambient aerosol and the health consequences of indoor biomass burning. Special emphasis is placedon regional and local air pollution and its impact on global health along with suitable preventive and interventional measures. With contributions from international experts in the field this volume is a valuable guide for researchers and clinicians in toxicology, medicine and public health as well as industry and government regulatory scientists involved in health protection»,»call-number»:»615»,»collection-title»:»Molecular and Integrative Toxicology»,»edition»:»1st ed. 2015»,»event-place»:»London»,»ISBN»:»978-1-4471-6669-6»,»note»:»DOI: 10.1007/978-1-4471-6669-6»

6 موقع الوكالة الأوروبية لحماية المحيط، الرابط: https://www.eea.europa.eu/themes/air/health-impacts-of-air-pollution(تاريخ الاطلاع: 20 جانفي 2022)

لالتهـاب العصـب الوركـي المعـروف بعـرق الأسى[7]. كما يمكـن أن يـؤدي التعرض المسـتمر لأشـعة الشـمس فوق البنفسـجية خاصـة في الصيـف لسرطان الجلـدة، والتعـرض لدرجات الحرارة الشـديدة للشـياح مـن الماء[8].

ب- المخاطر النفسية

تشـير العديد من الدراسـات المقارنة أنالهرسـلة المادية والمعنوية المسـتمرة التي يمارسـها ممثلـو السـلطة العمومية عـلى باعة الطريـق اللانظاميين بين إهانات وشـتم وعنـف تلعبدورا مركزيـا باعتبارهـا عامـل ضغطوانهـاك نفـسي مسـتمر للمعنيـين، ينضـاف إلى ذلـك تمثل العديـد منهـم لعملهم كعمـل «وقتـي» لا يمكن له أن يحقق الاسـتقرار المنشـود.

فضـلا عمـا يولـده هـذا الضغـط مـن شـعور بالضيـم والوصـم الاجتماعيو»الحقـرة» يجعـل مـن كل احتـكاك بالفضـاء العام عـبر العمل فيـه مخاطرة تولـد معيشـا مختلطا من الخـوف والرهبـة والقلق والشـعور بعدم الاسـتقرار وبالاضطهاد المسترسـلفي الوقت نفسـه الـذي يمثل فيـه العمـل -نظريا- وسـيلة لتحقيـق الأمـان والكرامـة والاسـتقرار الاجتماعي والاقتصـادي للفـرد[9][10]. يتجـلى ذلـك خاصة في النظرة التشـاؤمية للمسـتقبل التي تشـمل ما يقـارب نصـف العينـة 55%فيما يخـص الوضعية الشـخصية، و72% فيمـا يخص وضعية البلاد.

وتتفـق الدراسـات المقارنـة عـلى أن باعـة الطريق اللانظاميـين معرضون بسـبب كل هذه العوامـل إلى الإصابـة بالأمـراض النفسـية الرائجـة (Common mental disorders) والتي تشـمل الاكتئـاب (Depression)، اضطرابـات القلـق(Anxiety disorders)، واضطرابـات

7 Rockefeller Foundation. 2013. 'Health Vulnerabilities of Informal Workers'.

8 المصدر نفسه.

9 Rahman, 'Exploring Socio-Economic and Psychological Condition of Street Vendors of Barishal City: Evidence from Bangladesh'.1,15

10 Ana Bernarda Ludermir and Glyn Lewis, 'Informal Work and Common Mentaldisorders', Social Psychiatry and Psychiatric Epidemiology 38, no. 9 (September 2003): 485–89.

الفوبيا(Phobic disorders) والاضطرابات الجسدية ذات الأسباب النفسية (Somato-formdisorders) وهي الصعوبات النفسية التي تتمظهر عبر عوارض عضوية غالبا ما تكون غامضة ولا يمكن إسنادها طبيا لأي اضطراب عضوي[11][12].ونشير كذلك إلى السلوكاتالإدمانيةوهي بدورها وجه آخر من وجوه غياب الاستقرار النفسي الذي زادت في تعميقه أزمة الكوفيد 19 حيث يصرح حوالي 74% من المستهلكين[13] للكحول (يمثل مستهلكو الكحول 59% من العينة) و80% من المستهلكين للمخدرات (يمثل مستهلكو المخدرات 35% من العينة) بزيادة نسبة استهلاكهم بسبب الضغط المرتبط بالأزمة.

ورغم كل هذه الحقائق فإن الأغلبية الغالبة للعينة (90%) يعتقدون أنهم لا يعانون من أي مرض نفسي وهو ما يمكن أن يطرح تساؤلات حول المحددات والمدركات التي تحكم تعريف الشريحة لـ«المرض النفسي» خاصة وأن 74% من المستجوبين يشيرون إلى تدهور صحتهم النفسية بسبب أزمة الكوفيد 19، و72% يصرحون بأنهم تعرضوا لأفكار سوداوية جراءها، و27% فكروا في الانتحار.

تمارس المخاطر النفسية والاضطرابات المتعلقة بها أيضا مفعولا عكسيا على الاضطرابات والأمراض العضوية ذلك أن الضغط النفسي المستمر عامل خطر يزيد في إمكانية الإصابة بأمراض القلب والشرايين وفي إمكانية تعكرها في شكل جلطة قلبية أو دماغية إن كانت الإصابة بها حاصلة[14].

11 نفس المصدر

12 Sonu R. Meher and Pushkar S. Ghatole, 'A Study of Common Health Problems and Utilization of Healthcare Facilities among Self-Employed Street Vendors of Chandrapur District of Maharashtra', International Journal Of Community Medicine And Public Health 7, no. 7 (26 June 2020): 2782.

13 الأسئلة الواردة بالاستجواب اكتفت بالاستفسار عن الاستهلاك من عدمه فقط وهو ما لا يكفي للاستدلال على حالات الإدمان على الكحول أو على المخدرات ان وجدت.

14 Andrew Steptoe and Mika Kivimäki, 'Stress and Cardiovascular Disease', Nature Reviews Cardiology 9, no. 6 (June 2012): 360–70.

2- تأثير أزمة الكوفيد 19

ضاعفت أزمة الكوفيد 19 من حدة عوامل الهشاشة الصحية الآنف ذكرها على كل الأصعدة حيث عمقت من معيش العزلة الاجتماعية الذي يميز الشريحة المستجوبة والتي تصرح بنسبة 100% بأنها لم تشعر بأي مساندة تذكر للدولة لها. تتجلى علاقة القطيعة مع كل ما يمثل المنظومة الرسمية بصفة مخصوصة بمناسبة الوباء حيث لا يهتم حوالي ثلثي المستجوبين (63%) بالأخبار التي تبثها وسائل الاعلام حول الكوفيدورغم أن 51% منهم مساندون لفكرة التلقيح فإن نسبة المسجلين من الباعة لتلقي التلقيح لا تتجاوز الـ5% بتاريخ إجراء الاستجواب وهو ما يكون له عدة عوامل قد يمثل تدني الثقة في منظومة التلقيح الرسمية إحداها. ولا بد في هذا الصدد من الإشارة إلى أن نسبة مساندة التلقيح لدى العينة تتجاوز النسبة المسجلة في عمليات سبر الآراء لعموم التونسيين حيث كانت نسبة قبول التلقيح في عملية سبر آراء قامت بها مؤسسة امرودكونسلتينغ في فيفري 2021 41% فقط[15] [16].

يطرح المكتب الأوروبي لمنظمة الصحة العالمية في تقريره حول تأثير أزمة الكوفيد 19 على العملة اللانظاميين نموذجا يحدد ثلاث مسارات رئيسية لتأثيرات الأزمة السلبية على صحة هؤلاء تتمثل تباعا في الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية المباشرة للإصابة بالكوفيد 19 (رسم 3: المسار الأخضر) والانعكاسات غير المباشرة المرتبطة بالإجراءات السياسية التي تهدف لاحتواء الوباء (رسم 3: المسار الأحمر)، وانعكاسات إجراءات الاحتواء في حد ذاتها على الصحةأي الانعكاسات الصحية غير الناتجة عن الكوفيد 19 (رسم3 : المسار الأزرق)[17].

15 يبدي الكاتب تحفظا منهجيا على جواز المقارنة الإحصائية بين نتائج قبول التلقيح من عدمه بين العينتين باعتبار التباعد في الزمان بين نتائج سبر الآراء الموجه للعموم الذي كان في فيفري 2021 ونتائج استجواب العينة الذي كان في أكتوبر 2021، حيث لم يتسن لنا عند المساهمة في هذه الدراسة إيجاد سبر آراء موجه للعموم تم إنجازه في السداسي الثاني من سنة 2021 بخصوص الموافقة على التلقيح.

16 إذاعة شمس اف ام 'امرودكونسلتينغ : 41% من التونسيين مستعدون لتلقي تلقيح كورونا'، فيفري 2021

17 World Health Organization. Regional Office for Europe. 2020. 'COVID-19 Health Equity Impact Policy Brief: Informal Workers'.

رسم 3: تأثيرات أزمة الكوفيد 19 على العملة اللانظاميين[18]

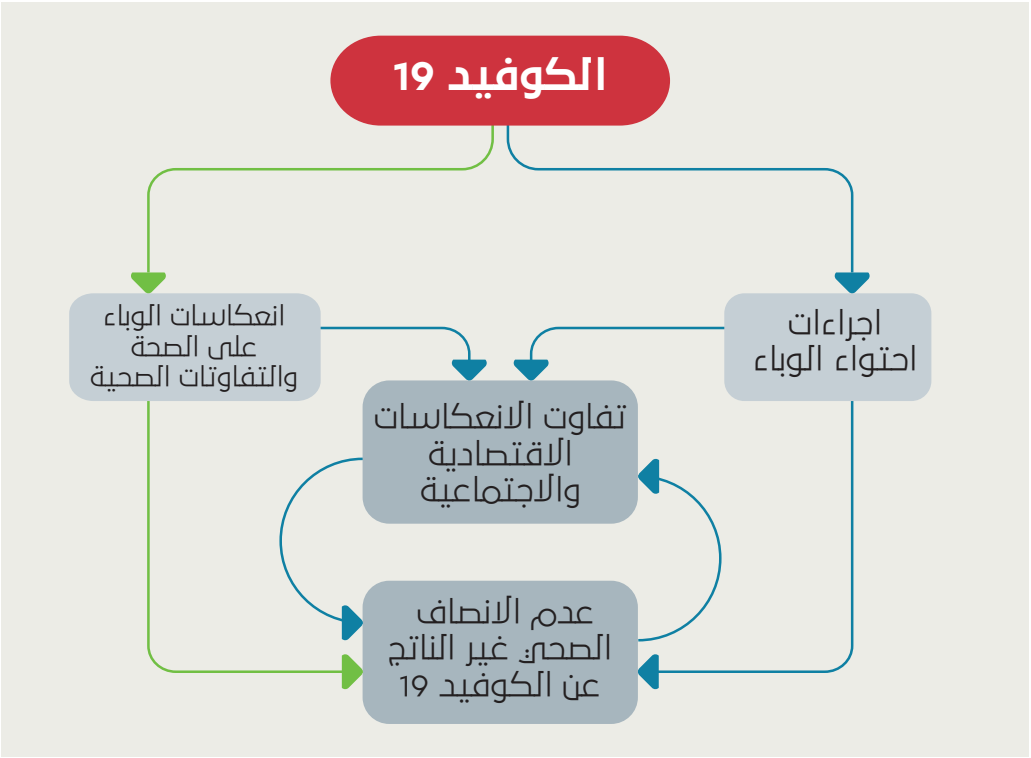

كما يشير نفس التقرير إلى أن العملة اللانظاميين كانوا من بين أكثر الفئات المتأثرة بظروف الوباء وذلك خاصة لغياب التأمين الصحي والاجتماعي لهذه الفئة وهو ما سوف نتعرض له لاحقا في هذا الجزء. من جهة أخرى فإن الشعور بالضيم وبالعزلة عند مواجهة الخطر يتعمق بشكل خاص خلال الوباء حيث يصرح حوالي 42% من العينة أنهم شكوا في إصابتهم بالفيروس لكن إمكانياتهم المادية لم تكن لتسمح لهم بإجراء تحليل من أجل التأكد من ذلك.

18 المكتب الأوروبي للمنظمة العالمية للصحة، 2020.

3- تمظهرات «الصحي» في السلوك الفردي كجزء من العلاقة النفعية-التصادمية بالمحيط

إلا أن هذه العلاقة بين أفراد العينة والمحيط الذي يمارسون فيه نشاطهم تتجاوز مجرد كونهم مفعول به صحي للعوامل المحيطة لكونهم فاعلا مباشرا فيها عن طريق نشاطهم في حد ذاته والذي ينتج كمية مهمة من الفضلات البلاستيكية لا يقوم الباعة برفعها وذلك رغم تواجد حاويات قمامة قريبة ورغم أن هذه الفضلات تمثل إزعاجا للباعة أنفسهم عند هبوب الريح (لوحة 2).

لوحة 2: مقتطفات من تقرير «اتنوغرافيا نهج اسبانيا» باعتماد تقنية الملاحظة بالمشاركة، الباحث إسكندر بن عمار. أوت 2021.

"القذارة تملأ المكان: اكياس واغلفة، بضائع وقوارير بلاستيكية، رائحة بول تفوح من الاماكن التي لا تطالها الاعين بشكل مباشر مثل مداخل العمارات وخلف الابواب. يتعامل الباعة مع المكان بعقلية مفرطة في النفعيةفلم نلاحظ ابدا خلال المدة التي تواجدنا فيها في نهج اسبانيا اي تصرف يذكر من الباعة ليتخلص من الفضلات التي تنتج عن عملية البيع من اكياس واغلفة ورقية وبلاستيكية رغم تواجد عدد من حاويات القمامة القريبة اوان يخصص كيسا يجمع فيه الفضلات التي سيخلفها فتصبح بالتالي كل عملية بيع تساوي فضلات جديدة تنضاف الى النهج رغم ان هذه الفضلات تمثل ازعاجا للباعة انفسهم عند هبوب اي ريح."

على الرغم من أنه يصعب علميا ربط التبول والبصاق في الفضاء العام بنتائج معينة على الصحة العمومية فإنها تعتبر في تمثلات العامة «سلوكات غير صحية»حيث يذهب بعض الباحثين إلى القول إنّ المفهوم الحديث «للمدينة الصحية والمُرتّبة» ينبني في جزء هام منه على الفصل القاطع بين الفضاءات والأمكنة حسب الدور أو الوظيفة المُسنَدين لكل منها وهو ما يحيل في المخيلة الاجتماعية إلى ضرورة إسناد دور «احتواء النجاسة والسلوكيات الفضة» لفضاءات خاصة منفصلة عن الفضاء العام. فحسب الباحثة الاجتماعية الاسترالية باركان (Barcan)فإن «وظيفة دورات المياه العمومية تتمثل في احتواء مشاعر الخجل والقرف عبر إعطاء النجاسة شكلا يتلاءم مع المخيال العام

حـول حفـظ الصحـة[19](Hygienicimagination)، مع التحفـظ منهجيا على حدود اِسـقاط هـذه التحليـلات في واقعنا المحـلي حيث لا يمثل اِنشـاء دورات ميـاه عمومية شـاغلا ذا أولوية تذكـر لصانعـي سياسـات الصحـة. إلا أن اِدراك التبـول والبصـاق عـلى هذا النحـو يمكن أن يخضـع لمتغـيرات عدة حسـب هويـة الفاعل، وجنسـه، وعمره، وحتـى الوقت الـذي يقوم فيه بفعلـه خـلال اليـوم إن كان في وضـح النهـار أو ليـلا. فالحكـم القيمـي على الجهـر بالتبول مثـلا يختلـف إن كان الفاعـل طفلا صغـيرا، أو شـخصا مخمورا في السـاعة الثانيـة صباحا، يسـتند حسـب بعض الباحثـين إلى مدى تمثلنـا لقدرة الآخر عـلى التحكم في سـلوكه، فتختلف بالتـالي المقبوليـة الاجتماعية للسـلوك بحسـب ذلك.

لوحـة 3: مقتطفـات مـن تقريـر «اتنوغرافيـا نهـج اسـبانيا» باعتمـاد تقنيـة الملاحظـة بالمشـاركة، الباحـث إسـكندر بـن عمـار. أوت 2021.

"عملية التبول والبصاق على قارعة الطريق امر شائع جدا الا ان هذين السلوكين تختلف شكليا فعملية التبول تستوجب تستر صاحب الفعلة عن الاعينو لو بشكل جزئي خلف حائط او في مدخل عمارة واحيانا يكتفي البعض بالالتصاق بالحائط في حين ان البصاق وارد في اي لحظة و على مرأى من الجميع و ان حدث ان تمت هذه العملية بشكل مباشر قبالة احدهم فانه يكتفي بالاشارة بيده او ان يقول سامحنا خويا / معلم/ اختي / مادام..."

مـن جهـة أخرى، فـإن التبـول الذكـري في الفضـاء العـام يمكـن أن يقـرأ اجتماعيا على أنـه سـلوك يهـدف لضبط حـدود المجـال التابـع للمتبـوّل بحيـث يصبـح التبـوّل في المكان أسـلوبا لفـرض التواجد فيـه كأمر واقـع يمكن أن يمتـد حتـى إلى «جندرة الفضـاء» كفضاء ذكـوري بامتيـاز[20] كمـا يمكـن تأويلـه كتعبـير عـن ردة فعـل نفسـية ذات بعد ثائـر على/ ثـأري مـن معيـش «الاقصـاء» الذي يعيشـه العامـل اللانظامـي في الفضـاء العـام يجنّد من خلالهـا حميميتـه الجسـدية من أجـل إدغامها مـع المـكان الطارد لـه وتملّكه وقتيـا وفرض نـوع مـن حتمية الاجتمـاع مع الفضـاء في كنـه مُوحّد قـد يكون وسـيلة للمقاومـة والصمود

19 Ruth Barcan, 'Dirty Spaces: Communication and Contamination in *Men's Public Toilets*' 6, no. 2 (2005): 7.

20 Clara H. Greed, *Inclusive Urban Design: Public Toilets* (Amsterdam Heidelberg: Architectural Press, 2003).

النفسي أمام خطر الطرد والإقصاء الذي قد يداهمه في أي لحظة من قبل ممثلي السلطة العمومية[21].

4- العلاقة بين المستوى التعليمي وإدراك الحاجيات الصحية

تجمع مختلف دراسات الصحة العمومية على علاقة الترابط الوثيقة بين تدني المستوى التعليمي وتدني النتائج الصحية (Poor healthoutcomes)[22 23 24]، وهو ما يحملنا إلى فحص العلاقة الممكنة بين التحصيل العلمي وصحة الأفراد، وإن كان لضعف المستوى التعليمي تأثير متوقع على زيادة مخاطر الإصابة بالمرض بوجه عام، وضعف القدرة على الصمود الاقتصادي والاجتماعي في وجه الأحداث الصحية الخطرة (Seriousheal-thevents) بشكل خاص والتي تمثل مجمل التعكرات التي قد تطرأ بمناسبة مرض ما، خاصة الأمراض المزمنة، والحوادث الطارئة سواء كانت حوادث شغل أو طريق أو غيرها.

يعتبر التحصيل التعليمي للفرد محددا مباشرا لأمل الحياة عند الولادة وللإصابة بالأمراضوللسلوكات الصحية من جهة، كما يعتبر محددا غير مباشر للصحة من خلال دوره في صياغة فرص الشغل وبالتالي نسبة الدخل والقدرة على الانفاق الصحي من جهة أخرى. زيادة على ذلك، فإن الدراسات تشير أيضا إلى أن التفاوت في نسبة ارتباط التقدم في العمر بالأمراض يزيد كلما كان الأفراد معرضين للتفاوت في مستوى التحصيل العلمي والدخل في مراحل مبكرة من أعمارهم[25]. هذه العلاقة الجدلية بين التحصيل

21 Jose Antonio Lara-Hernandez, '*Temporary Appropriation: Theory and Practice of the Street*' (University of Portsmouth, 2019).

22 Nancy E. Adler and Katherine Newman, 'Socioeconomic Disparities In Health: Pathways And Policies', *Health Affairs* 21, no. 2 (March 2002): 60–76.

23 Anton E Kunst et al., 'Trends in Socioeconomic Inequalities in Self-Assessed Health in 10 European Countries', International Journal of Epidemiology 34, no. 2 (1 April 2005): 295–305

24 Johan P. Mackenbach et al., 'Socioeconomic Inequalities in Health in 22 European Countries', *New England Journal of Medicine* 358, no. 23 (5 June 2008): 2468–81.

25 Yu-Tzu Wu et al., 'Education and Wealth Inequalities in Healthy Ageing in Eight Harmonised Cohorts in the ATHLOS Consortium: A Population-Based Study', The Lancet Public Health 5, no. 7 (July 2020): e386–94.

العلمـي والدخـل تتجـاوز المسـتوى الفردي لتشـمل المحيط العائـلي حيث يـصرح العديد من المسـتجوبين في المقابـلات المبـاشرة معهـم أن عجـز الوالدين عـن تغطية المصاريف المدرسـية للأبنـاء كان سـببا مبـاشرا في انقطاعهم عـن التعليم.

يفيـد أكثـر من ثلثـي العينـة 68% بأن مسـتواهم التعليمـي لا يتجاوز في أقصـاه المرحلة الإعداديـة، وهـو مـا يحيل عـلى محدوديـة في المعـارف العامة الخاصـة بالحاجيـات الصحية الجسـدية والنفسـية والتـي تبلـور تمثل الإنسـان للخطـر وتعامله معـه بالوقايـة الفعالة أو الصـدّ النشـيط، كمـا تحدد الوعـي بالانعكاسـات المحتملـة للخطر عـلى الصحـة والعوارض الممكنـة للأمـراض التـي قـد تنشـأ عنهـا وقـدرة الفـرد عـلى تقصيهـا المبكـر وأخـذ القرار بالبحـث عـن الرعايـة والعـلاج اللازمين لهـا في الوقت المناسـب[26].

5- انعدام الأمان الصحي والاجتماعي

يقـصي الطابـع اللانظامي للعمـل صاحبه مبـاشرة من فضاءيـن مهمين: أولهمـا الفضاء الاقتصادي-الصحـي الرسـمي حيـث يتمتـع الأجـير آليـا بالحـق في التغطيـة الصحيـة التي يمولهـا عـن طريـق الاقتطـاع الآلي مـن الأجـر لخـلاص الانخـراط في منظومـة التأمـين على المـرض، وثانيهما الفضاء الرسـمي للصحة والسـلامة المهنيـة المتمثل في طب الشـغل. فتمويل منظومـة التأمـين الاجتماعـي والصحي يرتبـط ارتباطا مبـاشرا بوجود عقد عمـل المصرّح به رسـميا وفي غيـاب ذلك فـإن أي علاقة بـين منظومـة التأمـين والعامل تصبـح معدومة.

يسـجل البنـك الـدولي أن الاقتصـاد اللانظامـي يسـاهم بنسـبة تقـارب 30% في الناتـج المحـلي الخـام في تونـس[27]، ورغـم أهمية هذه المسـاهمة فـإن العملـة اللانظاميـين باعتبارهم فاعـلا خفيـا في منظومـة الثـروة فـإن أغلبيتهم السـاحقة فاقـدون لحـق النفـاذ إلى التغطية الصحيـة مثلمـا يـصرح بذلك 90% مـن المسـتجوبين في العينـة، فالتأمين عـلى المرضرغم أنه

26 Glanz, Karen, Barbara K. Rimer, and K. Viswanath, eds. 2008. Health Behavior and Health Education: *Theory, Research*, and Practice. 4th ed. San Francisco, CA: Jossey-Bass.

27 Cammett, Melani. 2018. The Political Economy of the Arab Uprisings.

يهـدف في مبادئـه إلى تحقيـق نـوع من العدالـة الاجتماعيـة في الصحـة فإنه لا يشـمل من لا «تـراه» المنظومـة حتـى وإن كان يخدمها. غياب التأمـين على المرض يجعـل النفقات الصحية للمسـتجوبين تقـع مبـاشرة عـلى كاهلهـم، وهو مـا يعرضهـم إلى زيـادة حجم المدفـوع من الجيـب Out of Pocket Expenditure بشـكل يمكـن أن يخنـق القـدرة الشرائيـة العامـة للفـرد في غيـاب أي إمكانيـة لاسـترجاع المصاريـف العلاجية ولـو جزئيا.

لا شـك أن الفـوارق الطبقيـة داخـل هيكلـة رأس المـال اللانظامـي ترمي بظلالهـا أيضا عـلى قـدرة المسـتجوبين عـلى الصمـود في وجـه النفقـات الصحيـة الكارثيـة (Catastro-phicHealthExpenditure) وهـي النفقـات الصحيـة التـي يجـد الفـرد نفسـه مجبرا على تكبدهـا بمناسـبة وقـوع أحداث صحيـة خطرة، وتفـادي مخاطـر التفقير الناجم عـن زيادة النفقـات الصحيـة (HealthImpoverishment)، ذلـك أن المسـتجوبين ليسـوا مـن كبـار مـزودي السـوق السـوداء أو أعرافهـا وقدرتهـم على مراكمـة الثـروة تبقى محـدودة وهو ما تتعـرض إليـه بالتأكيـد أجزاء أخـرى من هـذه الدراسـة.كما أن غيـاب التغطيـة الاجتماعية لـدى مـا يقـارب 97% مـن المسـتجوبين يضاعف مـن هـذه المخاطـر في صـورة تقدمهم في العمـر إلى مـا بعد السـن النظريـة للتقاعد وذلـك لانعـدام جراية تقاعـد، خاصـة وأن الكثير منهـم وحسـب المقابـلات الموثقـة معهـم يصرحـون بأنهـم العائلـون الوحيـدون لعائلاتهم. وفي المحصلـة فـإن الهشاشـة الاقتصادية والهشاشـة الاجتماعيـة -ممثلة في ضعـف المعارف الصحية-تطبقـان بفكّيهمـا عـلى الوضـع الصحي للمسـتجوبين حيـث يؤدي ضعـف الوعي بالحاجيـات الصحيـة مـن جهـة وضعف/عـدم اسـتقرار الدخل من جهـة أخـرى إلى زيادة مخاطـر الإصابـة بالأمـراض وهـو ما يمكـن أن ينتـج عنه نشـوء حلقـة مفرغة مـن الانفاق الفـردي المتزايـد عـلى الرعاية الصحيـة الذي يعود بدوره سـلبا على مسـتوى الدخـل الفردي (رسم 4).

رسـم 4: حلقـة الانفـاق الفـردي المفرغـة كنتيجـة للهشاشـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة. (رسـم تأليفـي للمؤلـف).

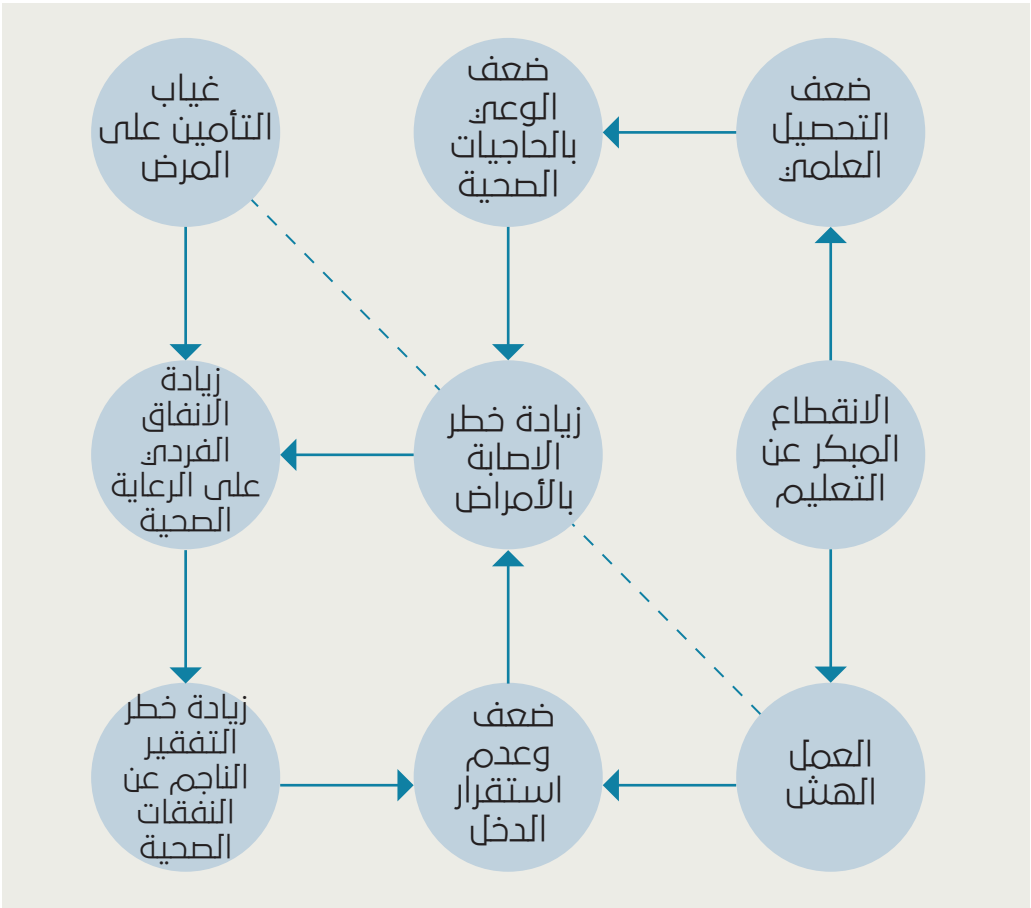

يمثـل سـحب التغطية الصحية عـلى العاملـين اللانظاميينأحـد الأهداف التـي تعمل عليها منظمـة الصحـة العالميـة في إطار برامـج التغطية الصحيـة الشـاملة (Universal Health-Coverage) والتـي تعتبرمـن أهـم أهـداف التنميـة المسـتدامة السـبعة عـشر التـي حددتها الـدول الأعضـاء -ومنهـا تونس- في الأمـم المتحـدة سـنة 2015 والتزمت بالعمل عـلى بلوغها

في أفـق 2030. إلا أن توفـر فـرص النفـاذ إلى منظومـة التأمـين عـلى المـرض لهـذه الفئـة لا يعنـي بالـضرورة أنهـا سـوف تنخـرط فيهـا، حيـث يفـرّق الباحثون بـين مفهـوم «القدرة عـلى الدفـع» (Willingness to pay) ومفهـوم «الرغبة في الدفـع.(Ability to pay)[28] فتوفر القـدرة لا يعنـي بالـضرورة تحقـق الرغبة التـي تبقـى مرتبطة بعوامـل عدة منهـا الثقة في المنظومـة ذلـك أن قلـة الثقـة في الإدارة والسـلط العموميـة تجعـل النفـور مـن التعامـل مع كل مـا يمثـل المنظومـة الرسـمية سـمة مميـزة لنظـرة العامـل اللانظاميلهـا وهو ما تشـير لبـه نتائـج البحـث الكمي للدراسـة حيـث يصرح 92% مـن المسـتجوبين بانعدام تـام للثقة في الدولـة و85% بانعـدام الثقـة في المؤسسـات الصحيـة العموميـة للعـلاج ضـد الكوفيـد 19 كمـا يأتـي «عـدم التمتـع بالضمـان الاجتماعـي» في المرتبـة الثامنـة والأخـيرة في ترتيب النصّابـة المسـتجوبين لمشـاكل مهنتهـم.وفي دراسـة للاتحـاد العـام التونـسي للشـغل حول العمـل اللانظامـي في تونـس شـملت عينة مـن 1128 عامـل من قطاعـات مختلفـة، يخلص الكاتـب إلى أن حجـم الفرق بين مسـتوى الدخـل الذي يحققـه العامل اللانظامي من السـوق السـوداء والمدخـول النظـري الـذي كان سـيحصل عليـه في المقابـل لو مـارس عمـلا نظاميا بنفـس المؤهـلات، يجعـل العامـل يحـس بنـوع مـن «الأمـان النسـبي» الآني قـد يحجب عن ادراكـه قيمـة منظومـة الأمـان الاجتماعـي التـي يتمتع بهـا العملـة النظاميـون ويحمله على الاقتنـاع بإمكانيـة العيـش في غنـى عنها[29].

أمـا فيمـا يخص طب الشـغل فـإن ارتبـاط مهنة «النصـاب» بعديـد المخاطر التـي يمكن أن تـؤدي لأمـراض مزمنـة أو إلى حـوادث صحيـة خطـرة فـإن الصبغـة اللانظاميـة للعمل تقـصي عـن صاحبـه وبشـكل بـات إمكانيـة الانتفـاع بعديد الحقـوق التـي تضمن لـه أمانا صحيـا واجتماعيـا على المدى المتوسـط والطويـل والتي لا يمكـن النفاذ إليها إلا عـبر العيادات المختصـة لطب الشـغل مـن ذلك الحـق في التقاعـد المبكر لأسـباب صحية، والحـق في الانتفاع

28 Jairous Joseph Miti et al., 'Factors Associated with Willingness to Pay for Health Insurance and Pension Scheme among Informal Economy Workers in Low- and Middle-Income Countries: A Systematic Review', *International Journal of Social Economics 48*, no. 1 (1 December 2020): 17–37.

29 Karim Trabelsi, '*Current State of the Informal Economy in Tunisia as Seen through Its Stakeholders: Facts and Alternatives*' (Union Générale des TravailleursTunisiens, 2014).

بإعـادة تكييـف العمل بسـبب صعوبات صحيـة، والحق في الانتفـاع بمنحة العجـز في صورة العجـز عـن العمـل لأسـباب صحيـة، إضافـة إلى الحـق في التعويـض عـن حـوادث الشـغل والأمـراض والحـوادث المهنية.

مـن المفيـد في هـذا الصـدد الإشـارة إلى أن التأمـين الصحـي والاجتماعـي لباعـة الطريق اللانظاميـين يمثـل شـغلا شـاغلا لعديد الـدول التي حاولـت إيجاد حلـول لهذه المسـألة من ذلـك مـا توصلت إليـه الهند منـذ سـنة 1992 عبر تأسـيس منظومـة تأمين خاصة بالنسـاء بائعـات الطريـق اللانظاميـات قائمة على الاشـتراك الاختيـاري. وتمكن هـذه المنظومة في جزء منهـا مـن تغطيـة حوادث الشـغل والمـرض وفقدان القريـن وفقدان مـورد الـرزق وهو جزء يشـمل القريـن والأبناء أيضـا، وفي جزء آخر مـن اسـترجاع المصاريف العلاجية التـي يدفعها الأفـراد[30]. كمـا نجحـت غانـا أيضـا في سـنة 2008 في بعـث صنـدوق تأمـين خـاص بباعة الطريـق يوفـر إمكانيـات مرنـة للاشـتراك فيه حسـب القـدرة الماليـة والحاجة وذلـك للباعة الذيـن تـتراوح أعمارهم بين 15 و59 سـنة ويوفر للباعة أيضـا إمكانية اسـتعمال مدخراتهم في الصنـدوق كضمـان مـالي في صـورة الاقـتراض مـن البنـوك[31]. وتقـارب هذه المشـاريع في تصورهـا لإيجـاد صيغ تأمينيـة خاصة بالفئـات الهشـة مبـادرة «احميني» لتوفـير الحماية الاجتماعيـة للعامـلات الفلاحيـات في تونس[32].

وحتـى لـو فرضنا توفـر صيغ تأمين صحـي واجتماعـي فإن سـلوك البحث عـن الرعاية الصحيـة في إطـار تمش فردي واع لا يمكن أن يتحقق في غيـاب إدراك كاف للحاجيات الصحية والرغبـة في الحصـول عليهـا وهـو مـا تسـاهم في تقريـره عوامل عـدة مرتبطة في جـزء منها بظـروف التشـغيل تتمثـل في الحرمـان الاقتصـادي وإدراك العامل لهشاشـة عملـه وظرفيته وعـدم امتلاكـه لأسـباب التمكين وافتقاره لأبسـط حقوقـه. وترتبـط في جزئها الآخـر بتنظيم المنظومـة الصحيـة في حـد ذاتها، وهـو التنظيم الـذي يحدد مدى القـدرة على تأمـين الرعاية الصحيـة واسـتمرارها عبر تحديده لمـدى توفرهـا والنفاذ إليهـا ومقبوليتها من المسـتخدمين

30 Rockefeller Foundation. 2013. 'Health Vulnerabilities of Informal Workers'.

31 المصدر نفسه.

32 دويتشهفيليه، «احميني» مبادرة لحماية عاملات المزارع في تونس'»، https://bit.ly/3Kmu4RE18.. ماي 2019

لهـا وقدرتها عـلى الاتصـال والتواصل معهم (رسـم 5).

في المحصلـة فإن سـحب التغطية الصحية الشـاملة عـلى باعة الطريق اللانظاميين حسـب الباحثـة الشـيلية أوريـال سـولار (Orielle Solar) يبقـى رهينـة تمكنهـم مـن الدفـاع عن حقوقهـم المهنيـة بشـكل يسـمح بالتغلـب عـلى العوائـق المهنيةللنفـاذ إلى الرعايـة الصحية مـن جهـة، وتمكـن المنظومـة الصحيـة من عـرض صيغ مرنـة للنفـاذ إلى خدماتهـا لا تكون بالـضرورة مرتبطـة بالوضعيـة المهنيـة للفـرد من جهـة أخرى[33].

رسـم 5: الحواجـز المحـددة لسـلوك البحـث عـن الرعايـة الصحيـة لـدى باعـة الطريـق اللانظاميـين[34].

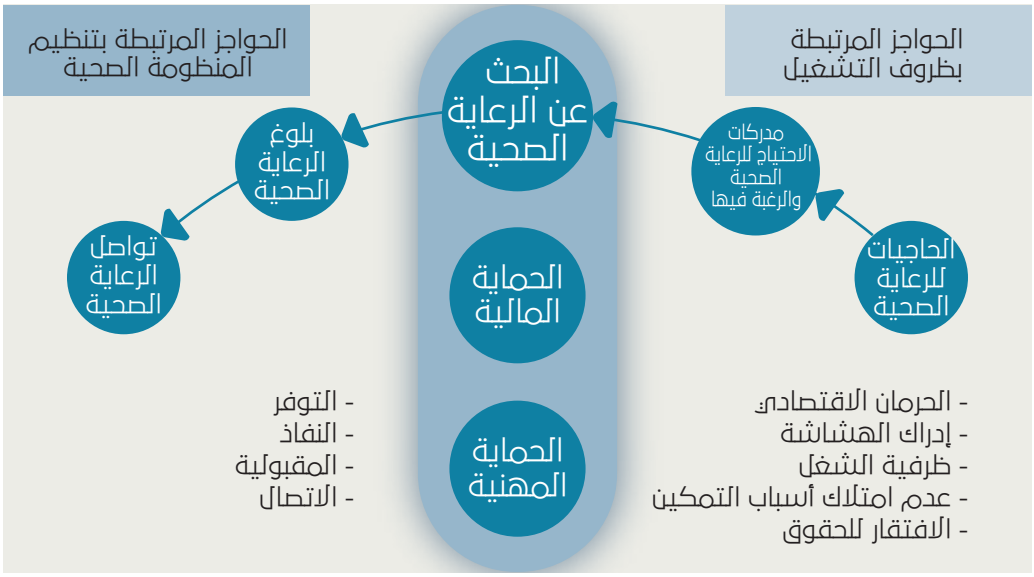

33 Rachel M. Taylor, Approaches to Universal Health Coverage and Occupational Health and Safety for the Informal Workforce in Developing Countries: Workshop Summary (Approaches to Universal Health Coverage and Occupational Health and Safety for the Informal Workforce in Developing Countries (Workshop), Washington, DC: The National Academies Press, 2016).{\\i{}Approaches to Universal Health Coverage and Occupational Health and Safety for the Informal Workforce in Developing Countries: Workshop Summary} (Approaches to Universal Health Coverage and Occupational Health and Safety for the Informal Workforce in Developing Countries (Workshop

34 المصدر نفسه، تعريب المؤلف.

خاتمة

تدخل فئة نصابة نهج اسبانيا سوق العمل اللانظامي في مرحلة الشباب المبكر بحثا عن أمان غالبا ما يكون مفقودا في بيئتها الأصلية، غير أن عملها في حد ذاته يجعلها بمشاقه المضنية ترزح تحت ضغط نوع جديد من انعدام الأمان الصحي والاجتماعي، بما يساهم في تعميق تعرضها لمختلف المخاطر الصحية العضوية والنفسية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة نشاطها المنهك. وهم في تسللهم الخفيلمجهر الباحث في الصحة العمومية يطرحون أكثر من سؤال حول مدى قدرة المجتمع الرسمي على تمثل صحة شاملة للكل في بعدها التعزيزي الوقائي وعلى توفير مظلات الحماية لمن هم أكثر هشاشة علها تساهم في شد أزر السقف حتى لا ينهار على الجميع. وتبقى تمثلاتنا الأكاديمية لهذه المخاطر محدودة في غياب بيانات وبائية دقيقة ووجود نوع من «اللامبالاة العلمية» لدى باحثي الصحة العمومية المحليين يجعل من دراسة الواقع الصحي الخاص بمثل هذه الشرائح الهشة أمرا نادرا أو منعدما في المدونة العلمية كما يحيل على ذلك مجرد بحث صغير في محركات البحث العلمية باستعمال المفردات المفاتيح) «in-formalworkers»، «informallabor»، «streetvendors»، «occupational health»، «Tunisia»(.لعل في اجتماع الباحثين من آفاق مختلفة ما يرسي لتقاليد جديدة تجعل من البحث متعدد الاختصاصات قنديلا ينير الطريق نحو صحة عمومية تبارح أبراجها العاجية المفهومية واللغوية والوظيفية نحو التصاق أكثر بمجتمعها والتزام أكبر بقضايا الواقع ●

بيبليوغرافيا مختارة

Adler, Nancy E., and Katherine Newman. 2002. 'Socioeconomic Disparities In Health: Pathways And Policies'. Health Affairs 21 (2): 60–76. https://doi.org/10.1377/hlthaff.21.2.60.

Barcan, Ruth. 2005. 'Dirty Spaces: Communication and Contamination in Men's Public Toilets' 6 (2): 7.

Glanz, Karen, Barbara K. Rimer, and K. Viswanath, eds. 2008. Health Behavior and Health Education: Theory, Research, and Practice. 4th ed. San Francisco, CA: Jossey-Bass.

Hollingsworth, John W., and Srikanth S. Nadadur, eds. 2015. Air Pollution and Health Effects. 1st ed. 2015. Molecular and Integrative Toxicology. London: Springer London : Imprint: Springer. https://doi.org/10.1007/978-1-4471-6669-6.

Lara-Hernandez, Jose Antonio. 2019. 'Temporary Appropriation: Theory and Practice of the Street'.University of Portsmouth.

https://pure.port.ac.uk/ws/portalfiles/portal/21226980/2019.09.09_PhD_thesis_JALH_pdf.

Ludermir, Ana Bernarda, and Glyn Lewis. 2003. 'Informal Work and Common Mentaldisorders'. Social Psychiatry and Psychiatric Epidemiology 38 (9): 485–89. https://doi.org/10.1007/s00127-003-0658-8.

Mackenbach, Johan P., Irina Stirbu, Albert-Jan R. Roskam, Maartje M. Schaap, Gwenn Menvielle, Mall Leinsalu, and Anton E. Kunst. 2008. 'Socioeconomic Inequalities in Health in 22 European Countries'. New England Journal of Medicine 358 (23): 2468–81. https://doi.org/10.1056/NEJMsa0707519.

Meher, Sonu R., and Pushkar S. Ghatole. 2020. 'A Study of Common Health Problems and Utilization of Healthcare Facilities among Self-Employed Street Vendors of Chandrapur District of Maharashtra'. International Journal Of Com-

munity Medicine And Public Health 7 (7): 2782. https://doi.org/10.18203/2394-6040.ijcmph20203015.

Miti, Jairous Joseph, MikkoPerkio, Anna Metteri, and Salla Atkins. 2020. 'Factors Associated with Willingness to Pay for Health Insurance and Pension Scheme among Informal Economy Workers in Low- and Middle-Income Countries: A Systematic Review'. International Journal of Social Economics 48 (1): 17–37. https://doi.org/10.1108/IJSE-03-2020-0165.

Rockefeller Foundation. 2013. 'Health Vulnerabilities of Informal Workers'. Rockefeller Foundation. https://www.rockefellerfoundation.org/report/health-vulnerabilities-of-informal-workers/.

Taylor, Rachel M. 2016. Approaches to Universal Health Coverage and Occupational Health and Safety for the Informal Workforce in Developing Countries: Workshop Summary. Washington, DC: The National Academies Press.

Trabelsi, Karim. 2014. 'Current State of the Informal Economy in Tunisia as Seen through Its Stakeholders: Facts and Alternatives'. Union Générale des Travailleurs Tunisiens. https://www.solidaritycenter.org/wp-content/uploads/2014/11/Tunisia.Informal-Economy-Report.UGTT_.2014.ENGLISH.pdf.

World Health Organization. Regional Office for Europe. 2020. 'COVID19 Health Equity Impact Policy Brief: Informal Workers'. https://apps.who.int/iris/handle/10665/338203.

Wu, Yu-Tzu, Christina Daskalopoulou, Graciela Muniz Terrera, Albert Sanchez Niubo, Fernando Rodríguez-Artalejo, Jose Luis Ayuso-Mateos, Martin Bobak, et al. 2020. 'Education and Wealth Inequalities in Healthy Ageing in Eight Harmonised Cohorts in the ATHLOS Consortium: A Population-Based Study'. The Lancet Public Health 5 (7): e386–94. https://doi.org/10.1016/S2468-2667(20)30077-3.

9

المحور التاسع

نهج إسبانيا...
أو عندما يعجز النص القانوني
عن استيعاب الظواهر الاجتماعية

كلمات مفاتيح: سلطة الدولة، القانون، الاقتصاد اللانظامي

مقدمة

تمثل سلطة القانون مرآة لقوة مؤسسات الدولة وبرهانا على قدرتها على تطبيق قوانينها، فالقاعدة القانونية تهدف إلى تنظيم العلاقات داخل المجتمع بما يضمن النظامين الاجتماعي والاقتصادي الذين يقع التوافق حولهما بين أفراد مجتمع معين. ويتدخل النص القانوني في المجال الاقتصادي لينظم قواعد السوق ويحفظ مصالح مختلف المتدخلين حتى تتم الموازنة بين المصالح المتقاطعة وحتى لا يتم فسح المجال للفراغ فتتجاوز عندئذ الظواهر الاجتماعية التشريعات والتراتيب المعمول بها ونصل لمرحلة يعجز فيها النص القانوني عن استيعابها.

ويشكّل الاقتصاد الموازي مثالا لواقع تعجز النصوص القانونية عن تنظيمه واستيعابه فهي منظومة اقتصادية تشتغل خارج الإطار الذي تضبطه الدولة في غياب أي تقنين أو استيعاب لسلسلة من المهن الهشة تتجسد في الباعة المتجولين الذين يعملون خارج إطار أنظمة الجباية والتغطية الاجتماعية التي تقننها الدولة التونسية. ولا يحيد مثال نهج إسبانيا عن هذا المنطق، فقد يتميز الباعة المتجولون في هذا الشارع في وسط العاصمة التونسية بخاصيات على مستوى المسار والدوافع لكن تواجدهم بذلك الفضاء يؤكد عجز الدولة التونسية عن استيعاب الاقتصاد الموازي في المنظومة القانونية الحالية بتوفير ما ينشده البائع المنتصب على قارعة الطريق بنهج إسبانيا. وبذلك يظل هامش التحرك أمام النص القانوني لمعالجة هذه الظاهرة مقيدا بخيار أساسي بين الزجر أو الحث على الانضواء في الاقتصاد النظامي مع ضرورة تسهيل الولوج لنظام الضمان الاجتماعي حتى يتم توفير الحماية الاجتماعية للباعة. وقد تم وضع بعض التصورات في القانون التونسي حتّى تستوعب جزءا من الاقتصاد الموازي، لكنها لم تُفعّل إلى حد اليوم.

1- بين زجر الانتصاب بنهج إسبانيا والتشجيع على التنظم

يعكس نموذج نهج إسبانيا ثنائية القانون واللاقانون اللذان يتعايشان في الفضاء نفسه في إطار يتخلله العجز عن التقنين ولعب الدور الرقابي الاقتصادي المناط بعهدة أجهزة الدولة العاجزة عن توفير الحماية القانونية اللازمة لمن يمتهن التجارة في محلات نهج إسبانيا في إطار نظامي. وهو عجز عن مواجهة الباعة الذين يمارسون منافسة غير مشروعة في إطار بنية خارجة عن القانون. وهو ما فسح المجال لتشكيل مزيج من الأنشطة التجارية الموازية والاستغلال الاقتصادي للقصّر بعد الانقطاع المبكر عن الدراسة وترك مسقط رأسهم للالتحاق بنهج إسبانيا للعمل في سلسلة عمل هشة وفق صيغ غير قانونية ودون تغطية صحية ومقابل أجور زهيدة، فيكونون عرضة لكل مظاهر العنف.

وتحيل هذه الوضعيات الاجتماعية إلى غياب أجهزة الدولة في نهج إسبانيا. ويتجلّى هذا الغياب في عجزها فتعجز عن حماية الطفولة المهددة كما اقتضى ذلك العنوان الأول من مجلة حماية الطفل المتعلق بحماية الطفل المهدد. علاوة على قصور في حماية الحق في التعليم وفق ما اقتضاه الدستور[1]. بل نلاحظ غيابا للنجاعة على مستوى الأجهزة الأمنية التي تتهم بالتغافل عن أنشطة غير قانونية وممنوعة في نهج يقع على بعد بضعة أمتار من وزارة الداخلية التونسية. لن نطنب في التعريج على شبهات الفساد والمحسوبية في تعامل المنظومة الأمنية مع الباعة المتجولين بنهج إسبانيا إضافة إلى شبهات التواطؤ من جهات رسمية في تسهيل دخول سلع مجهولة المصدر والمسار. لكن تقاطع مختلف هذه المصالح يبين تقصيرا في تحمل الجهات الحكومية لمسؤولياتها في توفير فرص الشغل والاستثمار مما يدفع بهؤلاء الباعة غير النظاميين لحلقات اللاقانون. وترتبط هذه الحلقات لتوجه البائع المنتصب، ضحية السياسات الاقتصادية والاجتماعية للدولة، نحو أنشطة محرمة قانونا لتوفير حاجياته المالية اليومية، وتتجاوز هذه الأنشطة البيع غير المرخص فيه في نهج إسبانيا لترتبط بارتكاب السرقة وممارسة العنف وتجارة المخدرات.

وبهذا فإنّ النسيج الاقتصادي اللانظامي يدفعنا للتساؤل عن قدرة النص القانوني

1 الفصل 39 من الدستور التونسي

عـلى تنظيـم العلاقات والأنشـطة في فضـاء عام كنهج إسـبانيا ليتم اسـتغلال الملـك العمومي عـلى خلاف مـا اقتضته الصيـغ القانونية. بـل إنّ السـلط المحلية عجزت عن اسـتقطاب هؤلاء الباعـة ضمـن فضـاءات مخصصة للغـرض. وهو ما يـبرز خللا في أخـذ القرار على المسـتوى المحـلي وبالتحديـد عـلى مسـتوى بلديـة تونـس التـي لـم تسـتطع اسـتقطاب الباعـة داخل فضـاءات مهيّـأة. وتضـاف إلى ذلك المصاعب على مسـتوى تنفيـذ مقررات المجلـس البلدي، إذ تـم منذ زهـاء العشر سـنوات إلحاق الشرطـة البلدية بـالإدارة العامـة للأمن الوطنـي بوزارة الداخليـة لتفقـد البلديـات أي سـلطة تنفـذ بها قراراتهـا دون تدخـل الوالي باعتبـاره مشرفا عـلى قـوات الأمن في مرجـع نظـره الترابي[2].

لقـد عجـز النـص القانونـي عـن اسـتيعاب ظاهـرة الاقتصـاد المـوازي في نهج إسـبانيا باعتبـاره نموذجـا يتجـاوز قصوره عـن الزجر، كما تـم بيان ذلك سـابقا، ليحيلنـا إلى القيود القانونيـة المسـلطة على التـصرف في العقـارات خاصة منهـا الفلاحية في المناطـق التي ينحدر منهـا أولئـك الباعة المتجولون الذين يؤثثون جوانب نهج إسـبانيا بوسـط العاصمة التونسـية. وهـو مـا يطـرح نقاط اسـتفهام حـول منظومة الملكيـة في تونس خاصـة في المناطـق الريفية التـي يهيمـن عليها الملـك المشـاع، ليجد مختلف الشـباب جدار صـد يحـول دون تصرفهم في الأراضي التـي تنجـر لهـم بالإرث. وتتشـعب منظومة الملكيـة العقارية في المناطـق التي ينحدر منهـا المنتصبـون بنهـج إسـبانيا لتُفقـد العقـار أيّ قيمـة اقتصاديـة من شـأنها أن تسـهل الاسـتثمار فيـه لخلـق الثـروة. ويعود ذلك أساسـا إلى غيـاب التحيـين لوضعية العقـارات إذ نـادرا مـا نجد تطابقـا بـين الوضعيـة القانونيـة والوضعيـة الحقيقيـة للعقار، ممـا يجعل التـصرف فيـه أو اسـتغلاله رهـين نزاعـات وإجـراءات معقـدة. وهـو مـا يدفـع بالشـباب، وخاصـة منهـم المنقطعـون عـن الدراسـة، إلى التوجـه نحـو مهـن غـير منظمـة كالانتصاب الفوضـوي بالعاصمـة لصعوبـة الاسـتثمار في الأمـلاك الفلاحية التـي ترجع لهـم بالنظر[3].

ويؤكـد الباعـة بنهـج إسـبانيا في مناسـبات عـدة عـلى العراقيـل التـي تعترضهـم للعمل

2 عبد المجيد المسلمي،»من دروس كارثة سبيطلة: ضرورة وضع الشرطة البلدية تحت سلطة البلديات»، جريدة المغرب، 16 أكتوبر 2021.

3 هاجر عزوني، «الأوضاع العقارية للأراضي الفلاحية تؤرق الفلاح التونسي»، الخبير، 19 ماي 2016.

بشـكل نظامـي، إذ يتـم حظـر مهنتهـم دون طرح بديل عـلى مسـتوى أماكن الانتصـاب بما يضمـن اسـتمرارية نشـاطهم. وتُضيّـق خطايـا المصاحبـة لعمليات حجـز البضائـع الخناق عليهـم وتنفرهـم مـن الانخـراط في منظومـة التغطيـة الاجتماعيـة أو طلـب رخـص لمزاولـة نشـاطهم بصفـة قانونيـة مقابل دفعهـم للضرائـب. فتصطدم محـاولات البعـض الانخراط في الاقتصـاد النظامـي عـبر بعـث مؤسسـات بعراقيـل قانونيـة أو صعوبـات إداريـة مأتاها تشـعب الإجـراءات وصعوبة تأسـيس شركة تجاريـة في القانون التونسي. أحصي سـنة 2013 55 إجـراء إداريـا لمـدة 142 يومـا وقرابـة 3233 دولارا لتأسـيس شركة شـخص واحد ذات مسـؤولية محـدودة [4]. وتـبرز هذه المؤشرات التي لم تشـهد تغيرات جذريـة في العشرية الأخيرة غيابـا لـكلّ تحفيـز قانوني من شـأنه أن يمتـص الاقتصـاد المـوازي لتنظيمه وفـق التراتيب الجـاري بهـا العمل. فليـس لبائع متجـول أو منتصب بنهج إسـبانيا الفرص والمقـدرة المالية عـلى الانخراط في مسـار تأسـيس شركة في ظلّ هـذا الكم الهائل مـن التعقيـدات البيروقراطية ممـا يدعـو إلى التفكـير في آليات مسـتحدثة سـيتم التعرض لهـا لاحقا.

2- نحو هيكلة الاقتصاد غير المنظم

تمثـل العراقيـل الإداريـة والصعوبـات القانونيـة للانتقال من نمـوذج الانتصـاب في نهج إسـبانيا نحـو ممارسـة التجـارة عـلى شـاكلة محـلات نهـج إسـبانيا، أحـد العوامـل التـي تعمـق الهشاشـة الاجتماعيـة والاقتصادية لهـؤلاء الباعة المتجولـين الذين لا يجـدون الحوافز القانونيـة والجبائيـة لهيكلة أنشـطتهم والدخـول في نموذج اقتصـادي يقوم على الاسـتدامة. وقـد حاولـت مختلف الأطـراف المتدخلة سـواء حكومية كانـت أو غير حكوميـة الإحاطة بهذه المسـالة بصفـة جزئيـة في إطـار قانون الاقتصـاد التضامنـي والاجتماعـي والمرسـوم المتعلق بالمبـادر الذاتي.

4 Hernando De Soto, *L'économie informelle Comment y remédier Une opportunité pour la Tunisie*, (Tunis : Cérès Editions, 2012), p 9.

ويعـرف الفصـل الثانـي من القانـون عـدد 30 لسـنة 2020 الاقتصـاد التضامنـي بأنّه «منـوال اقتصـادي يتكـون مـن مجمـوع الأنشـطة الاقتصاديـة ذات الغايـات الاجتماعيـة والمتعلقـة بإنتـاج السـلع والخدمـات وتحويلهـا وتوزيعها وتبادلها وتسـويقها واسـتهلاكها التـي تؤمنهـا مؤسسـات الاقتصـاد التضامنـي والاجتماعـي، اسـتجابة للحاجيات المشـتركة لأعضائهـا والمصلحـة العامـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة ولا يكـون هدفهـا الأسـاسي تقاسـم الأربـاح». ويقـوم الاقتصـاد التضامنـي والاجتماعـي عـادة عـلى أنشـطة إنتاجيـة للسـلع والخدمـات ضمـن هيـاكل في شـكل جمعيـات أو تعاونيـات أو غيرها مـن الأشـكال القانونية تـدار بطريقـة تشـاركية بـين أعضائهـا الذيـن يملكـون حريـة الانخـراط فيهـا مـن عدمه. ويحـاول هـذا المنوال الاقتصـادي، الـذي يصنف بكونـه القطاع الثالـث إلى جانـب القطاعين العـام والخـاص، التوفيق بين النشـاط الاقتصادي والعدالـة الاجتماعية من خـلال الابتكارات الاجتماعيـة مـن أجـل مكافحـة الهشاشـة الاجتماعيـة وضمـان تكافـؤ الفـرص ممـا يخلق فرصـا اقتصاديـة لصالـح الفئات المهمشـة[5].

ويؤكـد الفصـل 2 مـن القانـون المنظـم للاقتصـاد التضامنـي والاجتماعـي عـلى أن هذا المنـوال يهـدف إلى «تحقيـق التـوازن بـين متطلبـات الجـدوى الاقتصاديـة وقيـم التطـوع والتضامـن الاجتماعـي، تحقيـق العدالة الاجتماعيـة والتوزيع العادل للثـروة، هيكلة الاقتصاد غـير المنظـم، تحقيـق الرفـاه الاقتصـادي والاجتماعـي وتحسـين جـودة الحيـاة». وقـد تـم تعريـف الأنشـطة الاقتصاديـة ذات الغايـات الاجتماعية بكونها «الأنشـطة التـي يكون هدفها الأسـاسي توفير ظـروف عيش لائقـة بغاية الادمـاج والاسـتقرار الاجتماعي والترابـي تحقيقا للتنميـة المسـتدامة والعمـل اللائـق». وتسـير مؤسسـات الاقتصـاد التضامنـي والاجتماعـي وفـق مبـدأ الربحيـة المحـدودة إذ لا يمكـن توزيـع المتبقي مـن الفواضـل في حـدود تتجاوز 25% ، فالفواضـل تخصـص للأنشـطة الاجتماعية والثقافيـة والبيئية او لتشـكيل احتياطات وجوبية. وتُسـيّر هذه المؤسسـات تسـييرا ديمقراطيا وشـفافا طبقا لقواعد الحوكمة الرشـيدة مـع التأكيـد عـلى الملكيـة الجماعيـة الغـير قابلـة للتقسـيم[6]. ويستشـفّ ممـا تقـدّم أن هذا

5 عبير قاسمي، «ماهو الاقتصاد التضامني والاجتماعي»، Business News، 18 جوان 2020.

6 الفصل 4 من القانون عدد 30 لسنة 2020 مؤرخ في 30 جوان 2020 يتعلق بالاقتصاد التضامني والاجتماعي.

القانـون جـاء ليخلـق نمطـا اقتصاديا جديـدا من شـأنه أن يمكـن الباعة المتجولـين، كأولئك المنتصبـين بنهج إسـبانيا، مـن التجمع في إطار مؤسسـات الاقتصـاد التضامنـي والاجتماعي ليُهيكل نشـاطهم الاقتصـادي ويقع تطويـره في مناطقهم دون الحاجة للانتقـال إلى العاصمة للعيـش في ظـروف صعبـة يسـودها التهميـش والعنـف والاسـتغلال. ويحمـل هـذا القانون بـين طياتـه الرغبة في تطوير المؤسسـة مهما كان شـكلها سـواء كانـت جمعيـات تعاونية أو جمعيـة خاضعة لمرسـوم الجمعيـات أو شركات تجارية الـخ، بإجبارها على إعادة الاسـتثمار وتجـاوز عتبـة تقاسـم الأربـاح واسـتثمارها في العقـار دون أن تـدر نفعـا، كمـا لوحظ ذلك عنـد شـاغلي أرصفة نهج إسـبانيا الذين لم يسـتطيعوا اسـتغلال عائـدات نشـاطهم للتنظم. ويعـود ذلـك لعقلية يغلـب عليها الجمـود تقتضي الاسـتثمار في العقار في مسـقط الرأس دون التفكـير في تطويـر النشـاط الاقتصادي بشـكل يضمـن الديمومـة. وتجدر الاشـارة أن 82% مـن الناشـطين بنهـج إسـبانيا ليس لهـم حسـاب بنكـي أو بريدي ممـا يؤكد عـلى غياب أي تداخـل مـع الآليـات النظاميـة. إذ يظلـون عـلى هامـش الـدورة الاقتصاديـة النظاميـة مما يشـير إلى أنّ اسـتيعابهم قـد يحتـاج آليات مثل مؤسسـات الاقتصـاد التضامنـي والاجتماعي الّتـي تنشـط في المجـال الفلاحـي في مناطقهـم أو في غيره من الأنشـطة. في مقابل ذلـك، مازال هـذا القانـون المنظـم للاقتصاد التضامنـي والاجتماعي غير مفعـل، فرغم المصادقـة عليه منذ 30 جـوان 2020 لـم تصدر نصوصـه التطبيقية وخاصة منهـا الأوامر الحكوميـة التي أحال لهـا نـص القانـون تنظيـم عدة جوانـب أهمهـا حوكمـة الاقتصـاد التضامنـي والاجتماعي[7]. ويكشـف ذلـك تلكـؤا عـلى مسـتوى السـلطة التنفيذية لتفعيـل نـص قانوني قـد يحمل عدة حلـول لباعـة نهـج إسـبانيا أو لغيرهـم مـن الناشـطين في الاقتصاد غـير المهيكل. فالمسـألة، إذن، تتعلـق أساسـا بـإرادة سياسـية يجـب أن توفـر النصـوص القانونيـة التي من شـأنها أن تتمـاشى مـع الاقتصـاد المـوازي باعتباره ظاهـرة اجتماعيـة تنتج الهشاشـة والخصاصة والفقـر إضافـة إلى الـضرر الذي تلحقـه بالاقتصـاد الوطني.

7 مهدي العش، «قانون الاقتصاد التضامني والاجتماعي : خطوة إيجابية رغم بعض النقائص»، المفكرة القانونية، 17 نوفمبر 2020.

وتطـرح الترسـانة القانونية الوطنيـة حلولا أخرى لمكافحـة الاقتصاد غـير المنظم وهيكلته عـبر إتاحـة الفرصة لـكل من يمارس نشـاطا اقتصاديا غير مـصرح به للاندمـاج في الاقتصاد الحقيقـي والمشـاركة الفعليـة في تثمـين القيمة المضافة لبعض الأنشـطة غيرالمهيكلـة. ويتنزل المرسـوم مـن رئيـس الحكومـة عـدد 33 لسـنة 2020 المتعلـق بنظام المبـادر الذاتـي في هذا الاطـار، إذ يهـدف هذا المرسـوم حسـب فصلـه الأول إلى «وضع نظـام خاص بالمبـادر الذاتي وضبـط الامتيـازات المخولة لـه والواجبات المحمولة عليه على المسـتوى الجبائـي والاجتماعي». ويقصـد بالمبـادر الذاتـي حسـب الفصـل الثانـي من المرسـوم «كل شـخص طبيعـي تونسي الجنسـية يمـارس بصفـة فرديـة نشـاطا في قطـاع الصناعـة أو الفلاحـة أو التجـارة أو الخدمـات أو الصناعـات التقليديـة أو الحـرف، عـلى ألا يتجـاوز رقـم معاملاته السـنوي 75 ألـف دينـار» ويتم التـصرف في هـذا النظام عبر منصـة خدمـات إلكترونية محدثـة للغرض. وتـبرز خصوصيـة هذا النظـام في انتفـاع المبـادر الذاتي «بنظـام ضريبـي واجتماعي خاص يتمثـل في دفـع مسـاهمة وحيدة تكون محـررة من الضريبة عـلى دخل الأشـخاص الطبيعيين ومـن الأداء عـلى القيمـة المضافة ومن المسـاهمة في نظام الضمـان الاجتماعي» حسـب الفصل السـابع مـن نفـس المرسـوم. مـع الإشـارة إلى أن المسـاهمة الوحيدة غـير مسـتوجبة بعنوان السـنة الأولى للنشـاط على أن يتكفل الصندوق الوطني للتشـغيل بدفع المسـاهمات الاجتماعية خـلال هـذه المـدة. وقد أسـند، إضافـة إلى ذلك، إعفـاء للمبـادر الذاتي مـن إيـداع التصاريح الجبائيـة المنصـوص عليهـا بالتشريـع الجبائـي الجـاري بـه العمـل ومـن دفع المعلـوم على المؤسسـات ذات الصبغـة الصناعيـة والتجاريـة أو المهنيـة مع إعفـاء من الخصم عـلى المورد.

ويسـمح نظـام المبـادر الذاتـي المسـتفيدين منـه مـن مسـك محاسـبة مبسـطة خاضعة لضريبـة مخفضـة تمكّـن الفاعلـين الاقتصاديـين غـير المهيكلين مـن الانخـراط التدريجي في الاقتصـاد النظامـي بواسـطة أنظمة تحفيزيـة تجنبهم صعوبـات أنظمة الضمـان الاجتماعي والجبايـة المعمـول بهـا والتي يتعلـل بهـا العديد مـن الفاعلـين في الاقتصاد الموازي لتفسـير مواصلتهـم لنشـاطهم في إطار غـير قانوني. ويحتاج نظـام المبادر الذاتي لتقريبـه من التجار والناشـطين في الاقتصـاد التحتي بالتشـجيع عليه وتبسـيطه رغـم اعتماده على عـدة إجراءات يتـم القيـام بهـا عـن بعـد. وهو ما يطـرح مصاعـب في الولـوج بالنسـبة إلى أشـخاص ليس

لهـم الحـد الأدنـى مـن المسـتوى التعليمي الـذي يخـول لهـم التعامل مـع هكـذا منصات[8]. وتجـدر الإشـارة إلى أن النصـوص التطبيقيـة المتعلقـة بتطبيـق هـذا المرسـوم لـم تصدر إلى حـد الآن، ممـا يطـرح نقـاط اسـتفهام حـول مـدى جديـة الفاعلـين السياسـيين في الإحاطة بالاقتصـاد غـير النظامـي والتسريع في توفـير الآليـات القانونيـة الكفيلة بتسـهيل هيكلته.

ونلاحـظ أن النصـوص القانونيـة التـي سُـنّت لهيكلـة الاقتصاد غـير المنظم لم تسـتطع بعـد تحقيـق الغايات المنشـودة منها لتقصـير في تفعيلها من لدن السـلطة التنفيذيـة. وهو ما يجعـل القانـون التونسي غـير متماش مـع متطلبات الاقتصاد المـوازي الذي يحتـاج المزيد من الحوافـز الجبائيـة والاجتماعية للتشـجيع عـلى الانخراط في الاقتصـاد النظامـي وهيكلة جزء هـام مـن الاقتصـاد الوطني الذي يشـتغل خارج رقابـة أجهزة الدولـة مما يفتـح المجال لكل أشـكال الأفعال غـير القانونية.

3- المداخل القانونية لاستيعاب الاقتصاد الموازي

يقـترن الاقتصـاد المـوازي بعـدة أنشـطة تسـاعد عـلى توسـعه عـلى حسـاب الأنشـطة الاقتصاديـة النظاميـة ومنهـا خاصـة التهـرب الضريبـي والتهريـب وغسـيل الأمـوال. فهذا النمـط الاقتصـادي يشـكل ملجـأ تبحث عنـه بعـض رؤوس الأمـوال لتنمية ثورتهـا في إطار عـام تسـوده الأنشـطة الخارجـة عـن القانـون فيتظافـر جهـد المهـرب مـع جهـد المتهرب الضريبـي ليجـدا في الاقتصـاد المـوازي الفضـاء الملائـم لاسـتثمار أموالهمـا. وتشـكل هـذه الأنشـطة تهديدا للحقـوق الاقتصاديـة والاجتماعيـة للعملة. فيجـري اسـتغلالهم وحرمانهم مـن حقوقهـم الاقتصاديـة والاجتماعيـة. فأغلب الناشـطين في هـذا المجال يفتقـرون إلى أدنى مقومـات التغطية الصحيـة والاجتماعية. ويشـتغلون دون أي عقود تحميهـم. بل على العكس مـن ذلك، فـإن شروط العمـل تجعلهـم عرضة للاسـتغلال في أنشـطة خطيرة تتعلـق خاصة بترويـج المخـدرات والاتجـار بالبـشر واسـتغلال وضعهم الهش لفـرض نشـاط اقتصادي لا يحـترم كرامتهم الإنسـانية[9].

8 BDO, Le régime fiscal et social de l'auto entrepreneur – Décret loi N°2020-30 du 10 juin 2020, juillet 2020.

9 محمد رامي عبد المولى، «الاقتصاد الموازي في تونس : هل هو فعلا «موازي» ؟»، السفير العربي، 24 أفريل 2018.

وتسبب هذه الأنظمة الاقتصادية الخارجة عن دائرة الشرعية، حسب السردية المهيمنة، ضررا فادحا للاقتصاد الوطني. فرغم امتصاصه الموضعي والصوري للبطالة إلا أنه ينخر الاقتصاد الرسمي ويحطم الصناعة التونسية بترويج سلع في السوق الموازية دون أي رقابة وبسعر أرخص من السلع المنتجة والمروجة في الحلقات النظامية. وهو ما يسبب ضررا بالغا للمنظومة المالية والاقتصادية الوطنية على المدى المتوسط والبعيد. وتزدهر هذه الأنشطة في السياق التونسي الحالي الذي تغيب فيه سلطة الردع والرقابة. فيستغلّ صغار الباعة كأولئك المنتصبين بنهج إسبانيا من قبل كبار المهربين الذين يجعلون من هذه الحالات الاجتماعية واجهة لأنشطتهم غير القانونية.

ولا طائل في مزيد محاربة هذه النمط الاقتصادي في وضع تونس حاليا بأساليب ردعية لا تسمن ولا تغني من جوع بل يجب على المشرع أن يتعامل مع الاقتصاد الموازي بصفته أمرا واقعا مع السعي إلى دمجه في الدورة الاقتصادية والمنظومة الجبائية. فالتعامل مع المسألة يجب أن يخرج عن المألوف بالكف عن النظر لمتهني التجارة الموازية باعتبارهم مارقين على القانون ومحاربتهم بسلطة الدولة الردعية بمحاولة جذبهم نحو دائرة التنظم عبر الاعتراف التدريجي بنشاطهم وتشجيعهم على ضخ أموالهم في البنوك التونسية وعلى التصريح الضريبي بأنشطتهم. ويقابل ذلك حوافز من شأنها تسهيل الانتقال من اللانظامي إلى النظامي عبر منح تسهيلات للحصول على قروض على ضوء المداخيل المصرح بها لدى إدارة الجباية. فالناشط في الاقتصاد الموازي لا يتمتع بآليات التمويل التي يوفرها الاقتصاد النظامي مما يحول دون تطوير نشاطه نحو مجالات جديدة من شأنها أن تساهم في امتصاص البطالة باستدامة في إطار مواطن شغل منظمة ومحمية [10].

ويجب كذلك تركيز مزيد من الاهتمام على مناطق عبور السلع المهربة عبر إنشاء مناطق حرة على الحدود مع كل من الجزائر وليبيا لضمان قانونية المبادلات دون الحاجة للجوء إلى التهريب وما ينتج عنه من ملاحقات أمنية وكر وفر بين الأمن والمهربين على

10 روعة قاسم، «تونس : الاقتصاد الموازي معضلة حقيقية تتطلب معالجة استثنائية»، القدس العربي، 5 أكتوبر 2019.

الحـدود. إذ سـتمكن هـذه المناطـق الحرة من خلـق حركيـة اقتصادية في مناطـق تغيب عنها السياسـات التنمويـة للدولـة. ذلـك أنّ غيـاب الدولـة يدفـع إلى بـروز أنشـطة غـير قانونية كالتهريـب لتوفـير أدنـى مقومـات الحيـاة. وقـد تبـيّن أنّ التّهريـب يجعـل الفئات المهمشـة عرضـة لاسـتغلال كبار المشرفـين على شـبكات التهريب. فتزدهـر بذلك هذه الأنشـطة خارج الإطـار الشرعـي في تحـدّ لقوانـين الدولـة. لذلك يجـدر بالسـلطات الأمنية العمل عـلى تفكيك الشـبكات المنظمة للتجـارة الموازيـة وتطبيق القانون بـكل صرامة على المتاجريـن بالممنوعات المسـتغلين لشـبكات التجارة الموازيـة. إضافة إلى إرسـاء منظومة ديوانية فعالـة وعادلة تعمل وفـق آليـات رقابة متطـورة تقلص مـن احتكاك أعوانهـا بهذه الشـبكات التي تنشـط خارج الإطـار الذي ضبطـه المشرع[11].

11 وليد الكسراوي، «أزمة التهريب والتجارة الموازية في تونس»، أنباء تونس، 13 سبتمبر 2021.

الخاتمة

يبـدو أن عدم الاسـتقرار السـياسي في البلاد التونسـية في العشريـة المنصرمة أثر سـلبا على الرؤى الحكومية في وضع سياسـات من شـأنها أن تحيـط بالاقتصاد المـوازي الـذي يمثـل نهـج إسـبانيا أحـد مظاهـره. إذ نلاحـظ ذكـر هيكلـة الاقتصـاد غير المنظـم ومكافحته في برامـج مختلف الحكومـات المتعاقبة ولكننا لـم نلمس لهـذه المكافحـة أي أثـر عـلى أرض الواقـع. فالإحاطة قانونيـا بباعة نهـج إسـبانيا على سـبيل المثـال يتطلـب برامج عـلى المدى المسـتوى المتوسـط والبعيـد تتجـاوز مجـرد التدخـلات الموضعيـة خاصـة منهـا الزجريـة التي لا تقـدم حلـولا من شـأنها أن تعالـج هذه الظاهـرة المشـتعبة بأبعادهـا المتعددة الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسـية. بل تطـرح جدلا حول مـدى وجود الإرادة السياسـية لتوفـير الحلـول القانونيـة الكفيلة بجـذب المنتصبين بنهج إسـبانيا نحـو أماكـن يمارسـون فيها نشـاطهم في أطـر قانونيـة ضمن سـياق الشرعية.

ونلاحـظ، أيضـا، تعفنـا في الوضعيـة بمـرور السـنوات، يظهر في تعمـق الأزمة الاقتصاديـة التـي أثرت سـلبا على الوضعيـة الاجتماعية. فقد تجذّرت الهشاشـة ولـم تتّخذ إجـراءات تترجـم رغبة حقيقيـة في معالجـة هذه الظاهـرة. فصارت الدولـة التونسـية تتعايـش مع أنشـطة اقتصادية تهـدد كينونتهـا وخارجة عن سـيطرتها حـذو الشـارع الرئيـسي للعاصمة بمـا يحمله مـن رمزيـة. ويحيلنا ذلـك إلى ضعف الدولـة وتراجع سـلطة القانون الـذي لم يعد رادعـا للمخالفين في فـترة انتقـال ديمقراطـي دقيقة أدخلـت اضطرابا عـلى نجاعـة العمل صلب مؤسسـات الدولة التونسـية. وهكذا يصبـح النص القانوني عاجـزا أمام ظواهر تجاوزتـه وأبـرزت مواطن ضعفـه في ظل قبـول مختلف المؤسسـات بالاقتصاد المـوازي وتعاملهـا معـه بما هـو واقـع وضرورة تعوّضـان العجز عـن معالجة وضعيـات اجتماعيـة هشـة وتوفير فـرص العمـل والاسـتثمار للحدّ من نسـق الهجـرات الداخليـة وتعميـق البنية غـير النظامية للاقتصـاد الوطني ●

مختارات بيبليوغرافية

نصوص قانونية

- الدستور التونسي.
- القانون عدد 30 لسنة 2020 مؤرخ في 30 جوان 2020 يتعلق بالاقتصاد التضامني والاجتماعي.
- المرسوم من رئيس الحكومة عدد 33 لسنة 2020 المتعلق بنظام المبادر الذاتي.

مقالات

- عبد المجيد المسلمي، «من دروس كارثة سبيطلة: ضرورة وضع الشرطة البلدية تحت سلطة البلديات»، جريدة المغرب، 16 أكتوبر 2021.
- عبير قاسمي، «ماهو الاقتصاد التضامني والاجتماعي»، Business News، 18 جوان 2020.
- روعة قاسم، «تونس : الاقتصاد الموازي معضلة حقيقية تتطلب معالجة استثنائية»، القدس العربي، 5 أكتوبر 2019.
- محمد رامي عبد المولى، «الاقتصاد الموازي في تونس : هل هو فعلا «موازي» ؟»، السفير العربي، 24 أفريل 2018.
- مهدي العش، «قانون الاقتصاد التضامني والاجتماعي : خطوة إيجابية رغم بعض النقائص»، المفكرة القانونية، 17 نوفمبر 2020.
- هاجر عزوني، «الأوضاع العقارية للأراضي الفلاحية تؤرق الفلاح التونسي»، الخبير، 19 ماي 2016.
- وليد الكسراوي،»أزمة التهريب والتجارة الموازية في تونس»، أنباء تونس، 13 سبتمبر 2021.

مراجع باللغة الفرنسية

BDO, Le régime fiscal et social de l'auto entrepreneur – Décret loi N°2020-30 du 10 juin 2020, juillet 2020.

Hernando De Soto. *L'économie informelle Comment y remédier Une opportunité pour la Tunisie.* Tunis: Cérès Editions, 2012.

الخاتمة

حرصنـا، طيلة هـذا العمل، ألا نتبنّى موقفا، سـواء كان مسـاندا أو معاديـا، للباعة غـير النّظاميّـين في نهـج إسـبانيا. وذلـك إيمانـا منّـا بـأنّ الموضوعيّـة العلميّة ليسـت عائقـا أمـام تقديم معرفة تكـون نتائجها قـادرة على تغيـير واقع نعتبره سـلبيّا، وعلى تسـليط الضـوء عـلى انعـدام العدالة ووجـود واقـع اقتصـادي واجتماعـي هش يجب فهمـه قبـل تغيـيره وقبـل وصم مـن يرزخـون تحت وطأتـه دون وعـي بأنهم ليسـوا مـن أنتجوا المشـكل بل هـم نتاج لمشـاكل أخرى، أو مـدح من يعانون منـه وتصويرهم على شـاكلة «سـيزيف» يدفعون صخـرة اللعنة الرأسـمالية.

ومـن ثمّة فقـد حاولنـا، من خلال هـذا المـشروع البحثي المتعـدد الأبعـاد والمعتمد عـلى منهجية متعـددة ومقاربـات تحليليـة مختلفة، أن نضـع ولو لبنـة أولى لما نعتبره بحثـا سوسـيولوجيا يتجـاوز الدوكسـا السـائدة حـول الظواهـر الاجتماعيـة المتعلقة بـكل مـا هو غـير نظامـي في حقـل البحـث العلمـي في تونـس مـن جهـة، وأن نحرر البحـث وأدواتـه وأشـكاله من قيـود الحقـل الأكاديمي ليكـون مقروء لأوسـع شريحة ممكنـة دون أن نمـسّ مـن علميته.

تعلمنـا، طيلـة هـذا المـشروع البحثـي الـذي دام سـنة تقريبـا، كيـف نكتـب عن الظاهـرة ونحن نحايثها في كل مسـتوياتها. وكيف نطرح الأسـئلة المناسـبة لنتمكن من أن نصـف ونفـسّر ونفهـم في الآن نفسـه ونقتـدر على تشـخيص الأسـباب والكيفيّات، ونجـد إجابـات عـن ماذا ولمـاذا وكيـف في علاقة بإشـكالية كل مـا هو غـير نظامي في اقتصـاد الشـارع بنهـج إسـبانيا لا باعتبـاره نموذجا لدراسـة حالة فقط، بـل منطلقا لتوسـيع البحـث عـبر المقارنـة في المسـتقبل وتعميـم النتائـج لعلنا نعلن وضع أسـس سوسـيولوجيا تونسـية تفهـم ظواهـر اجتماعية في تونـس وتفسّرها.

نعتقد أننا تمكّنا، عبر هذه الدراسة، من الإجابة عن سؤالي لماذا صار الباعة باعة والسوق سوقا والشارع اقتصادا في نهج إسبانيا وكيف صاروا كذلك. فبتسخير علم الاجتماع والتاريخ والخرائطية والاقتصاد السياسي والأنثروبولوجيا والدراسات الذكورية والطب النفسي وبتطويع مناهج جمع المعطيات وتحليلها، نعتبر أنّنا ألممنا بكل جوانب الظاهرة المدروسة وأننا قدمنا للقارئ المفاتيح اللازمة لقراءة خريطة الاقتصاد الشارعي في تونس.

في الختام، كانت هذه الدراسة ثمرة تعاون بين مجموعة شابة من الباحثين والمنتدى التونسي للحقوق الإقتصادية والاجتماعية لا في إطار إسداء خدمات لإنجاز دراسة موجهة بل في إطار التزام مشترك بضرورة إنتاج معرفة تفهم الواقع الاقتصادي والاجتماعي قصد تغييره.

الملاحق

ملحق
1

إتنوغرافيا نهج إسبانيا

تقرير الملاحظة بالمشاركة

نهـج إسـبانيا هـو أحـد أنهـج العاصمـة تونـس يفصلـه عن شـارع الحبيـب بورقيبة ما يقـارب المائة وخمسـين متـرا ويقع فـي الحـي الأوروبـي ولكنـه يلامـس المدينـة العتيقة مـن ناحية سـوق الخربـة وتحيط بـه مرافـق حيوية مثـل السـوق المركزية وسـاحة برشـلونة وعـدد مـن البنـوك ومكتـب بريـد نهج شـارل ديغـول وعـدد مـن المحـلات والفضـاءات التجاريـة و نهجـي الكوميسـيون وسـيدي بومنديـل. وباختصـار يقـع نهج إسـبانيا فـي مـكان نشـط جـدا ويشـهد حركيـة كبـرى يمـر مـن خلاله تقريبـا جميـع فئـات المجتمـع التونسـي كالموظفيـن والعملـة بمختلـف درجاتهـم الوظيفيـة واختصاصاتهـم وكذلـك التلاميـذ والطلبـة والتجـار والحرفييـن.

ورغـم أن نهج إسـبانيا مكون بالأسـاس مـن محلات تجاريـة نظامية يعود تاريـخ أغلبها إلى زمـن الاسـتعمار، ورغـم توفر هذه المحلات -إذا ما احتسـبنا من ضمنها السـوق المركزية- عـلى أغلـب السـلع والمـواد والمنتوجات التـي يحتاجها كلّ فـرد مثـل الملابس بأنواعهـا والمواد الغذائيـة والأدوات الكهربائيـة، فـإن نهج إسـبانيا يزخر بالبضائع الأقل سـعرا وجـودة التي يعرضهـا الباعـة اللانظاميـون عـلى قارعـة الطريق على طـول هذا النهـج معتمديـن في ذلك عـلى صناديـق كرتونية (كردونة) أو قطـع من الألحفة البلاسـتيكية (بـاش) أو عربات يدوية (برويطـة) أو أداة تعليـق ثيـاب معدنية بعجلات (شـطار) مثلمـا يطلق عليها هـؤلاء الباعة.

وتتـوزع النّصبـات التـي يعرضهـا الباعـة عـلى طـول جانبـي نهـج إسـبانيا بـدءا مـن النقطـة الرابطـة له مع سـاحة برشـلونة وصـولا إلى التقاطع الرابـط بين نهج الكوميسـيون ونهـج سـيدي بومنديـل. وتشـقّه خمسـة أنهج أخـرى وهي عـلى التـوالي، انطلاقـا من جهة سـاحة برشـلونة، نهـج جمـال عبـد الناصر ثـم نهج شـارل دي غول ثـم نهج الدانمـارك ثم نهـج الجزيـرة ثـم نهـج الكوميسـيون بالتواصل في نفـس الخط مع نهـج سـيدي بومنديل. وينتصـب عـلى هامـش هـذه التقاطعات عـدد مـن المنتصبـين الذين لـم يتمكنوا مـن حيازة أماكـن انتصـاب عـلى ضفتي نهـج إسـبانيا وهم بصفـة عامـة المنتصبـون الجدد.

نؤكّـد أنّ التقسـيم البلـدي الـذي قمنـا بوصفه أعـلاه لا يتطابـق بصفة كلية مـع تمثلات الفاعلـين الاجتماعيـين في هـذا الفضـاء فالملاحظـات الأولية التـي قمنـا بهـا بينـت أن نهج إسـبانيا يتجاوزالرسـم البلـدي ويمتـد الى الأنهـج المتقاطعة معـه بامتداد السـلع المعروضة. ونسـتنتج ذلـك من خـلال ملاحظتنا أحـد الباعة وهو بصـدد إجـراء مكالمة هاتفيـة لا ندري هويـة متلقيهـا. ويـشرح البائـع مـن خلالهـا أن بضاعتـه حُجـزت من قبـل أعـوان الشرطة البلديـة إثـر حملـة مداهمـة قامـت بها هـذه الأخيرة غـير أن مـكان انتصـاب هـذا البائع لم يكـن بنهـج إسـبانيا وإنمـا بنهج شـارل ديغـول. وقد كانـت المسـافة التي تفصلـه عن نهج إسـبانيا تقـارب العشرة أمتار وقد احتوت هذه المسـاحة على خمسـة منتصبين دون احتسـاب صاحـب البضاعـه المحجـوزة والّـذي أصرّ في مكالمتـه عـلى أنها قد حجـزت بنهج إسـبانيا.

لاحظنـا أيضـا مشـهد آخر لكـن بمحتوى مغايـر. رأينا فتاة تُجـري مكالمة هاتفية لترشـد مخاطبهـا لمـكان تواجدها قـرب مقر البريـد بنهج شـارل ديغـول فأوضحت له أنّهـا في نهج إسـبانيا. وتعكـس هـذه الملاحظـات أهميـة نهـج إسـبانيا باعتبـاره نقطـة تمييـز للمـكان وتعكـس كذلـك ارتباطـه بالانتصـاب الـلا نظامي الـذي يحدّد حـدوده الاجتماعيـة. وهو ما يفـسّر أهميـة هـذا النشـاط الاقتصـادي في تحديـد تمثلات الأفـراد للفضـاء العـام. وباعتبار أنّ هـذا الفضـاء العـام يحتضن الانتصـاب اللانظامـي فإنه مـن المهم ملاحظـة تفاصيل هذا الانتصـاب. فالنصبـات متلاصقـة في أغلبهـا والمفصولـة منها عـن بعضها البعـض لا تتجاوز مسـاحة الفصـل بينها ثلاثـون صنتيمـترا في المنطقة المحاذية لسـاحة برشـلونة وكلما اتجهنا إلى سـوق الخربة اتسـعت مسـاحة الفصـل إلى حدود السـبعين صنتيمـترا إلى أن تصل مترا أو أكثـر بقليـل ثم تعـود الى الالتصـاق أكثر في المنطقـة الواقعة بـين نهجي الدنمـارك والجزيرة هـذه الملاحظـة تحيـل عل نوعـين من الانتصـاب وهمـا انتصاب منفـرج وانتصـاب متراص.

أمّـا الانتصـاب المـتراص فيتواجـد في المناطـق التـي لا تمثـل مداخـل للمحـلات التجارية النظاميـة ممـا يوحـي بـأن اتفاقـات قـد أبرمت بـين المنتصبـين وأصحـاب المحـلات يوحي بتكافـؤ موازيـن القـوى بـين أصحـاب المحـلات النظامية التـي تخضـع لحماية السـلطة في البـدء اعتقـدت أن الاختـلاف في أشـكال الانتصـاب تخضـع إلى تكتيـك الباعـة للتمكـن مـن الهـروب مـن ملاحقات أعـوان الشرطـة البلدية في المنطقـة المتعرضـة أكثر للملاحقـة البلدية

أي منطقة الانتصاب المتراص، لكن تكرار الملاحظة بين فرضية الاتفاقات بين الباعة وأصحاب المحلات ويتجلّى ذلك في ما رأيناه من كيفيّة تصرف صاحب محل بيع حلويات موجود بالقرب من ساحة برشلونة عندما رفض انتصاب أحد هؤلاء الباعة أمام محله بقوله -ابعد من قدام الحانوت و انصب وين تحب-

ليس الاكتظاظ لوحده ما يميز المكان بل الأصوات العالية التي ترتفع أحيانا لتتحول الى ضجيج وهو عبارة عن مزيج من أصوات العربات ونداءات الباعة لإشهار بضائعهم أو للتدليل على أسعارها المنخفضة إضافة إلى هذا التلوث السمعي فإن القذارة تملأ المكان: أكياس وأغلفة بضائع وقوارير بلاستيكية ورائحة بول تفوح من الأماكن التي لا تطالها الأعين بشكل مباشر مثل مداخل العمارات وخلف الأبواب. يتعامل الباعة مع المكان بعقلية مفرطة في النفعية فلم نلاحظ أبدا خلال المدة التي تواجدنا فيها في نهج إسبانيا أي تصرف يذكر من الباعة ليتخلصوا من الفضلات التي تنتج عن عملية البيع من أكياس وأغلفة ورقية وبلاستيكية رغم تواجد عدد من حاويات القمامة القريبة أو أن يخصّصوا كيسا يجمعون فيه الفضلات التي ستخلّفها عمليّات عرض البضائع. فتصبح كل عملية بيع مدخلا لفضلات جديدة تنضاف إلى النهج رغم ما تمثله من إزعاج للباعة أنفسهم عند هبوب الرّياح.

لاحظنا أنّ عملية التبول والبصاق على قارعة الطريق أمر شائع جدا على ما بينهما من تمايز. فعملية التبول تستوجب تستر صاحب الفعلة عن الأعين، ولو بشكل جزئي، خلف حائط أو في مدخل عمارة وأحيانا يكتفي البعض بالالتصاق بالحائط. في حين أنّ البصاق وارد في كلّ حين وعلى مرأى من الجميع. و إن بصق أحدهم قبالة الآخر فانه يكتفي بالاعتذار مشيرا بيده، أو أن يقول: سامحنا خويا /معلم/ اختي / مادام... وفي بعض الأحيان يتصدى الباعة للمتبول لا من موقف مبدئي معارض لهذا السلوك وإنما لسبب آخر نفترض أنه يرتبط بتمثلهم للجسد في الفضاء العام. فالمرأة في فضاء عام يهيمن عليه الذكور معرضة لأن تكون موضوعا جنسيا يفتح الباب للتحرش غالبا وللظلم الاقتصادي. فهي في مثل هذه الأماكن ليست سوى عنصر ثانوي إذا اتجهت نحو العمل وهي عنصر مركزي إذا ما اكتفت بالاحتفاظ بدورها التقليدي المتمثل في أن تكون

موضوعـا جنسـيا وفق مقولة التقسـيم الجنـدريّ لـلأدوار الاجتماعيـة. لكن المـرأة رغم هذه الوضعيـة البائسـة تحـاول أن تكـون عنـصرا فاعلا وكيانا مسـتقلا فنـرى تلك التـي تمتهن الانتصـاب اللانظامـي في نهـج إسـبانيا تقـوم بـالأدوار نفسـها التـي يقـوم بهـا الرجال من تـزود ذاتي بالسـلع والوقوف على ترويجهـا باعتماد نفس آليات الذكور نفسـها، سـواء تعلق الأمـر بوسـائل الانتصـاب مـن صنـدوق كرتوني وبـاش وعربة يدويـة. وهـي لا تكتفي بهذا فحسـب، بل تسـعى المـرأة المنتصبة بشـكل لا نظامي إلى خلـق المعنى و إنتاجـه. فبملاحظتنا لهـن تمكنـا من رصـد جوانب هامة مـن أحاديثهن التـي يتبادلنها مـع الزبائـن أو مع أعوان الشرطـة البلديـة أثنـاء حمـلات المداهمة أو نـادرا مع بعـض الباعـة الذكور إذ تسـعى هؤلاء النسـوة إلى خلـق صـورة والترويـج لها في مجـال عملهن صورة المـرأة الكادحة التي تتقاسـم مسـؤولية الأسرة مـع زوجهـا والتـي تتحمـل مسـؤولية في الفضـاء العـام إضافـة إلى تحمل المسـؤولية التقليديـة لربة البيـت تقول إحـدى البائعات لأحـد الزبائن الذي حـاول التودد لها بـترك إكراميـة احترامـا لإصرارهـا باعتبارها امرأة تشـتغل وسـط سـوق رجاليّ أساسـا، فما كان منهـا إلا أن ردت عـلى هـذا الصنيـع بقولهـا : «يرحم والديـك و يكثر خيرك هاك تشـوف وخيتـك فـاش نعانـي راني نجـري على عائلـة». وفي موضـع آخـر مناقض لمضمـون الموقف الأول أثنـاء حملـة البلديـة لـم تفـرّ هـذه المـرأة ببضاعتها بـل اعتمدت أسـلوبا آخـر للنّجاة. فبعـد أن كانـت امـرأة قويـة تتحمـل المسـؤولية داخل بيتهـا وفي الفضـاء العـام توجهت إلى المسـؤول عـن الحملة البلديـة قائلة «يرحـم والديك وخيتك زواليـة لا تـالي لا والي كان تهزولي السـلعة نمـوت بالـشر و مـا نلقى بـاش نخلص الكـراء ترصيلي في الشـارع»

يكشـف هـذان الموقفـان المتباينـان للمـرأة نفسـها عـن وعـي بمكانتهـا بمـا هـي امرأة تشـتغل في فضـاء عـام يتسـم بالهيمنـة الذكوريـة. وتعي جيـدا تمثل الطـرف الآخـر الذّكر وصاحـب السـلطة لفوقيّتـه وهيمنتـه المضاعفة عليها. وهو يسـتمدّ سـلطته مـن وظيفته من جهـة، ومـن جنـدره باعتبـاره رجلا مـن جهـة ثانيـة. وبذلـك اسـتغلّت البائعة هـذا المعنى لتحافـظ عـلى بضاعتهـا بدلا مـن أن تفر بهـا وتدخـل في مواجهات غـير متكافئة مـع أعوان الشرطـة البلديـة قـد تخسر عـلى إثرهـا بضاعتها.

يقسـم الباعـة اللانظاميون نهج إسـبانيا إلى ثلاث مناطق وكل منطقة تتخذ اسـما مشـتقا

مـن معلـم مميز لهـا. فالمنطقة الممتدة من مدخل سـاحة برشـلونة إلى حدود السـوق المركزية تنسـب إلى مقهـى البرانـس ومبنـى البريـد حسـب مـدى قـرب الفـرد إلى أحـد المبنيـين. أما المنطقـة الثانيـة الممتـدة مـن السـوق المركزية إلى نهـج الجزيرة فتنسـب إلى السـوق المركزية و نهـج الجزيـرة حسـب قـرب الفـرد إلى السـوق المركزيـة أو إلى نهـج الجزيرة. أمـا المنطقة الثالثـة فتنسـب إلى نهـج سـيدي بومنديـل. وتعـود هـذه التقسـيمات الثـلاث إلى تقسـيمات جغرافيـة ولكـن أيضـا إلى تقسـيمات أخرى حسـب درجـة التهديد التـي من الممكـن أن يقع تحـت طائلهـا الباعة أثنـاء الحملات البلدية فالمنطقة الأشـد خطـورة هي المنطقـة الأولى التي تـلي سـاحة برشـلونة باعتبـار أن الحمـلات البلديـة تبـدأ في أغلبهـا من سـاحة برشـلونة و نهـج شـارل دي غـول. ثـم تليهـا في درجـة الخطـورة منطقـة السـوق المركزية. أمـا الأكثر أمانـا فهـي المنطقة المحاذيـة لنهج سـيدي بومنديل. أمّـا التقسـيم الثاني الـذي يتمثله هؤلاء الباعـة فهـو خاضع لجهة تدفـق الزبائن. بمعنـى أنه خاضع لفـرص البيـع. فالمنطقة الأولى القريبـة من سـاحة برشـلونة والمنطقـة الثالثـة المحاذية لنهج سـيدي بومنديل همـا الأفضل باعتبـار أنهمـا تقعـان في مداخل نهج إسـبانيا لذلـك نلاحظ كثافـة عاليـة للمنتصبين في هذه المناطـق وحدوث مشـاجرات بـين المنتصبين بشـكل متواتر أكثـر في هذه المناطق مـن المنطقة الوسـطى التي تنسـب للسـوق المركزية.

يخضـع الهـروب مـن ملاحقات الشرطـة البلديـة إلى منطق درجـة الأمان التي يقسـم من خلالهـا الباعـة نهج إسـبانيا. فيكون الفـرار عـادة في اتجاه نهج سـيدي بومنديـل وفي حالة حملـة مكثفـة أو كمـا يسـميها هؤلاء الباعـة حملة كبـيرة (والتـي يصنفونها كبـيرة أو عادية حسـب المعـدات التـي يتسـلح بها أعـوان الشرطـة البلدية). فـإذا كانت هـذه الحملـة مرفقة بشـاحنة تتبـع المصالـح البلدية تأكد الباعـة من أن حجز السـلع والبضائع سـيطال مجموعة منهـم ممـا يـؤدي إلى فـوضى أشـد أثنـاء عمليـة الهـروب ممـا يحـدث في الحمـلات العادية. فخـلال الحملـة العاديـة يكتفـي الباعـة الأقـرب مكانيـا إلى أعـوان الشرطـة البلديـة بحمل بضائعهـم والاتجـاه بهـا نحـو نهج سـيدي بومنديـل أو التفـرق في الأنهج المتفرعـة من نهج إسـبانيا. وتظـلّ البائعـات في أماكنهـن وكذلك شـأن مـن يعرض بضائـع قابلـة للكسر مثل الإلكترونيـك أو البلـور حتّـى تمـر الحملـة بسـلام دون أضرار لأي مـن الطرفين عـدا بعض العنـف اللفظـي الذي يمارسـه أعـوان الشرطـة البلديـة وكذلك التهديـد بافتكاك سـلع دون حجزها.

أمـا في حال حملـة كبيرة تتسـارع خطى الباعـة هربا ببضائعهـم. وتتعطـل حركة المرور في نهـج إسـبانيا وعـلى مسـتوى الأنهـج المتفرعة منـه. وتحـدث اعتـداءات مقصـودة أو غير مقصـودة بـين الباعـة أنفسـهم عـن طريـق التصـادم أو قلـب النصبـات أثناء الهـروب وفي أحيـان كثـيرة يحـدث تبـادل للعنـف اللفظي بـين الباعـة والمارين من نهج إسـبانيا بسـبب التصـادم. أيضـا كما أنـه وجب ملاحظـة مواقف أغلـب الزبائن الذيـن يتعاطفون مـع الباعة إمـا بالتصـدي لفظيـا لأعـوان الشرطة من نـوع «كان شـديتوا الـسراق خير سـيبوهم زواولة يخدمـوا على رواحهـم». ويقابـل الباعة هذا الصنيـع باعتباره سـلوكا فرديا يقوم بـه الأخيار مـن الزبائن.

سـمح لنـا أحد الباعـة بالتصويـر في نصبتـه إلا أن زملائه احتجـوا وتهكموا عـلى المصور فالأول قـال له:

«تشوف فيه عرس جاي تصوّر هنا»

والثاني توجه بخطابه لكلينا الباحث الاتنوغرافي والمصور :

«مـش كان مشـيتوا خدمتـوا على حي هـلال و الملاسـين و ورّيتوا الحوم فـاش تعاني مـش كان خيرلكم ؟»

فالتفت إليه متدخل ثالث قائلا:

«تي باعثينهم اسيادهم نحي علينا الكاميرا»

ثم اتجه إلى صاحب النصبة و قال له :

«تي شـنوّة الّي تعمل فيه يا شـيخ، سـيّب علينا مـن ***، ماني قتلـك باعثينهم اسيادهم»***

تخضـع مقاومة الشرطـة البلدية للانتصـاب اللانظامي لعوامل سياسـية وللمناسـبات. إذ يـكاد يخلو شـهر رمضـان والأيـام التي تسـبق العيدين من الحمـلات الكبيرة. وكذلك الشّـأن

بالنّسبة إلى العودة المدرسية، والأسبوع الذي يسبق رأس السنة الميلادية، والأسبوع الذي يسبق المولد النبوي الشريف تتغير المعادلة في هذه الفترات من السنة لأن هذه الفترات تمثل فرص دخل محترم جدا للباعة وهم مستعدون للتضحية في سبيل الاستفادة من هذه الفرص التي تمثل بالنسبة إليهم مثل ما أفادنا جهاد أحد الباعة أنه في كل مناسبة من هذه المناسبات يستثمر أرباحه في شيء غير الانتصاب. فذكر لنا أن هذه المناسبات تمثل عددا من الأغنام تنضاف إلى قطيعه في مسقط رأسه سبيبة. وأنه ينتظر أرباح العودة المدرسية القادمة ليمول بها مشروع خطبته من ابنة خاله.

وتتحول هذه المناسبات إلى فرص حياة كما يتمثلها هؤلاء الباعة. فهي فرص الارتقاء بالمستوى المعيشي للأسرة في مسقط رأسه. وهي فرص تحقيق الذات بالنسبة إلى البعض الآخر الذين يستغلونها من أجل تحقيق اندماج اجتماعي داخل المجموعة عن طريق الاستهلاك الفائض عن الحاجة. فأثناء هذه المناسبات يتغير السلوك الاستهلاكي للكحول حتى أن بعضهم يعرف بطاولته في الحانة أو يعرف نفسه بهذه الطاولة فقد صرح لنا أحد الباعة المسمى صبري بأنه خلال هذه المناسبات تتحول وتيرة استهلاكهم للخمور من مرة أو مرتين شهريا إلى كل يوم وأنه يتخلص من ديونه التي يقوم بسدادها. تجعل فرص الدخل المحترم التي توفرها هذه المناسبات الباعة مستعدين للتضحية في سبيلها فتكثر الشجارات بين الباعة، أو بين الباعة والزبائن ويصبح سلوك البائع تجاه الزبون فظا نتيجة كثرة الطلب على بضائعهم. فهذا الاستعداد للتضحية والمواجهة تقابله السلط بحملات مكثفة دون أن تُحجز البضائع إلا في حالات نادرة عندما يتجرأ الباعة على الأعوان ... تظل هذه الحملات المكثفة العادية مرافقة للمناسبات التي ينتظرها الباعة وذلك فقط لضمان حركة المرور وبمجرد غياب الرقيب ينتقل الباعة إلى الانتصاب في وسط النهج والتحرش بأصحاب السيارات الذين يمرون من هناك.

كما أشرنا سابقا إلى أن الحملات البلدية تخضع لعوامل سياسية فقد لاحظنا الفرق الواضح أثناء مرحلة استكشاف الميدان ومرحلة ما بعد 25 جويلية 2021 فبعد أن كانت العلاقة بالسلطة علاقة عدائيّة قائمة على المطاردة، تحولت إلى ما يشبه الهدوء الحذر بل إلى علاقة ودية في حالات نادرة. فتمرّ الدوريات بوتيرة أقل دون أن يُستنفر الباعة. بل

يتنحّى بعض أصحاب الكراتين والعربات اليدوية جانبا للسماح للدورية بالمرور. أما في أيام الحملات الكبيرة التي تقع خارج دائرة الأحداث السياسية والمناسبات، فالأمر مختلف تمامت. إذ تتحول الحملات إلى ما يشبه أفلام الحركة مع مؤثرات صوتية التي تتمثل في صافرة الإنذار التي تطلقها سيارات الشرطة وما يلحقونه بها من عنف لفظي وعبارات نابية وسب للجلالة يوجهه الأعوان إلى الباعة وصيحات الفزع التي يطلقها الباعة لتنبيه بعضهم البعض بالحملة. يرافق هذا العنف اللفظي الذي يميّز الحملة عنفا رمزيا يسلّطه أعوان الشرطة على الباعة يتمثل في ركل الكراتين التي خلفها الباعة بعد هروبهم بالبضائع. وتتحوّل هذه العملية العنيفة أحيانا إلى عنف جسدي. بل إنّ الأمر أعقد من توصيف ثنائي بين فاعل أي معتد ومفعول به أي معتدًى عليه، فهناك عمليات تبادل للعنف اللفظي يتغير مضمونها بحسب سلوك الأعوان ومدى خضوع البائع. فإذا كان الخطاب الموجه من الأمنيين هو أوامر لفظية من نوع «هز سلعتك تحرك» أو «ازرب روحك» قوبل بكلمات من نوع «الله يبارك» أو «حاضر» أو «يرحم والديك». أما حالات العنف الرمزي فتقابل بالنظرات الحانقة والسبّ واللّعن المبطّن والعام وغير المباشر .

وقد شنّ أعوان الشرطة البلدية أثناء كتابة هذه السطور حملة على الباعة المنتصبين بنهج إسبانيا. واشتملت الحملة على بعض العناصر المميّزة سابقة الذكر كالعنف اللفظي الذي اقتصر فقط على التهديد بحجز البضائع دون شتم وبتساهل كبير مكن الأعوان من تبليغ رسالة مفادها بأنهم يسيطرون على المكان في كل الظروف والأحوال ولكن هذا الظرف الخاص أي بعد إجراءات 25 جويلية 2021 منعهم من مصادرة البضاعة ومن تغيير طريقة تعاملهم مع الباعة ولو بشكل طفيف. تم تدوين هذه الملاحظات أمام مقهى البرانس حيث جلس إلى الطاولة المجانبة لي خمسة أعوان و امرأة، عون مدني وأربعة بالزي النظامي. في تلك الأثناء وعلى مستوى التقاطع بين نهج جمال عبد الناصر ونهج إسبانيا عاد بائعان يحملان في ما بينهما نصبة سجائر مهربة فما كان من أحد الأعوان إلا أن صاح فيهم بابتسامة «ارجع ارجع خير ما نجي نفكهالك الكل» ثم التفت إلى أحد زملائه الّذي لم نلحظ وجوده سابقا ضمن أعوان الشرطة البلدية مما يوحي بأنه التحق مؤخرا بهم أي أنه لا يملك الخبرة الكافية في التعامل مع البائعين في نهج إسبانيا وقال له: «عديت عمري في البلاصة هذه وحضرت على الحجر والعرك والموبقات الكل توا رجلي مضروبة وهاني نستنى في اللجنة عالتعويض».

إنّ ردات الفعل العنيفة التي يقوم بها الباعة هي نتيجة لعنف مادي ما قبلي يسلطه عليهم أعوان الشرطة البلدية. فالمواجهة التي تتحول إلى ما يشبه الحرب بين السلطة من جهة ومنتصبين لا نظاميين من جهة ثانية يكون السلاح فيها هو الماتراك وأحيانا الغاز المسيل للدموع، يقابلهما استعمال الحجارة من قبل الباعة مثل ما حدث يوم 25 أوت 2021. وتمثّل هذه المواجهات تكتيكات تقوم بها السلطة لاسترداد السيطرة بعد تساهل لمدة معينة. فالتساهل الذي حدث بعد تجميد البرلمان ألحق بتشدد وممارسة للعنف المادي بعد شهر من الحدث. فكلما تساهلت السلط مع الباعة ازداد عددهم وانتشروا في المجال أكثر فتعود السلط إلى فرض النظام القديم للانتصاب بالقوة. إن عملية الكر والفر هذه تخضع لرغبة السلط في الحفاظ على الانتصاب اللانظامي ولكن في حدود تشرعها السلطة من خلال تدخلها عبر أعوان الشرطة البلدية على الميدان ما يطرح سؤال من المستفيد من هذا الوضع ؟ أي توفير مناعة لهذا الشكل الاقتصادي من الإندثار في نفس الوقت منعه من التطور إلا في اتجاه فردي، فهؤلاء الباعة يمثلون واجهة إعلامية للسياسي الذي ينتقل إليهم ويعدهم باصلاحات تهم مجال عملهم لذلك نجد أنهم يغيرون تأييدهم السياسي في كل مرة. رغم تحفظ البعة على ذكر تفاصيل المواجهات التي حدثت سابقا بينهم وبين السلط إلا أن البعض منهم أبدى استعداده لسرد تفاصيل هذه الصراعات، أفادنا أحد المنتصبين بنهج اسبانيا حدثت سابقة وبلغت درجة معتبرة من العنف وقد أكد أنها تمت إثر أحداث سياسية هامة في البلاد فقبل كل انتخابات تلقى الباعة وعودا ثم قوبلت بالقمع بعد الانتخابات، أحد الباعة أثار حدثا هاما في تاريخ نهج اسبانيا عندما كثرت صراعاتهم في 2012 مع السلطة توجهت لهم أطراف محسوبة على حزب العمال الشيوعي التونسي ودعتهم إلى الاعتصام من أجل افتكاك حقوقهم في حرية ممارسة هذا العمل و الدعوة إلى تنظيمه فما كان من الباعة إلا أن أصبحوا مؤيدين لهذا الطرف السياسي. ولما دخلت السلطة معهم في تفاوض وقدمت لهم وعودا بتهيئة فضاء في شارع قرطاج انقلب هؤلاء الباعة على هذا الطرف السياسي وتبنوا شعارات السلطة ضد هذا الحزب.

كما أشرنا سابقا إلى خضوع وضع نهج إسبانيا إلى المحطات السياسية التي تشهدها البلاد يلخص لنا أحد الباعة هذا الوضع بانه أثناء مرور الحملات الانتخابية بنهج إسبانيا، تتحوّل فكل الشوارع الأنهج المتقاطعة معه إلى فروع له. وقد كانت هذه

الأحداث مدخلا للعديد من الباعة الحاليين إلى عالم الانتصاب اللانظامي. فمنهم من كان بلا نشاط اقتصادي قبل بداية الحملات الانتخابية في سنة 2014. فتلقى عرضا من أحد معارفه من الباعة القدماء يتمثل في «شنوة رايك نشوفلك قلم تخدمه حذانا في نهج اسبانيا ؟» فإذا كانت الإجابة بالقبول يتحول هذا الأخير إلى شريك في نصبة في نهج إسبانيا. وتتمثل شراكته في مجهوده البدني في حين يتكفل صاحب العرض بتوفير السلع.

في اليوم التالي للملاحظة الميدانية، قصدت نهج إسبانيا وأنا أحمل تساؤلا حول الملمح العام للمنتصب اللانظامي أي من هو المنتصب في نهج إسبانيا و كيف يتحول من وضع سابق إلى منتصب لا نظامي ؟ لنبدأ أولا بالظاهر من هذا الملمح العام أي ما نلاحظه من سمات بشكل مباشر، ثم لننتقل إلى الغوص في باطن هذا الملمح عن طريق التواصل مع الباعة وطرح الأسئلة عليهم. فماذا كان يفعل قبل أن يمتهن هذه المهنة؟ و كيف خطرت له فكرة الالتحاق بها؟ ومن أدخله هذه المهنة؟ و كيف أثرت فيه؟

السمات العامة للمنتصب اللانظامي :

يتميز المنتصب بنهج إسبانيا بصورة نمطية فأثار العوامل الطبيعية بارزة عليه أي أن آثار الشمس يمكن ملاحظتها ببساطة على وجوههم وآثار هذه المهنة من غبار وعرق بادية على ثيابهم التي تعود إلى مصدرين أساسيين: إما الملابس المقلدة الرخيصة التي يبيعونها، أو «الفريب». وهي ملابس تتميز بعدم تناسق الألوان و برثاثة عامة. ورغم حاجة البائع إلى الجري للفرار من ملاحقات الشرطة البلدية فإن أغلبيتهم تنتعل «الشلايك» رخيصة الثمن إضافة إلى أشكال حلاقة تتمثل في حلق كل الشعر بشكل متساو دون الاهتمام بتصفيفه مع اتساخ باد للعيان. كما أنهم لا يستعملون العطور أو الكمامات الطبية أو الجال المعقم. إضافة إلى ذلك، لاحظنا أن الباعة يقلّمون أظافرهم أثناء العمل. فإذا سحب أحدهم مقصّ أظافر من بضاعته أو بضاعة جاره وقلّم به أظافره، تمّ تداول هذا المقص بين العديد من الباعة ليقوموا جميعا بتقليم أظافرهم بشكل جماعي.

وقد لاحظنا أنّ بعض الحوارات تتحوّل بسرعة إلى ملاسنات وصراعات بين الباعة لما

تشتمل عليه من مختلف أنواع العنف. فالتعيير بينهم أمر شائع جدا فكثيرا ما تسمع «جدك كان خماس» أو «تسكنوا في عش متع دجاج». فالمتقشف كثيرا ما يدعى «جيعان» والانتهازي منهم يدعى «كلب» و«قهدي» و«ط***» ... أما الصفات العامة فيستعملون لها كلمات بذيئة متعددة وفي حال تم شتم الأهل فالشتم يقتصر على الذكور فقط. فلم نلاحظ طوال فترة تواجدنا أن شتم أحد الباعة أم بائع آخر أو أخته أو خالته أو عمته، إذا كانوا من العرش نفسه أو إن كان من عرش مواز في الهيمنة مثل «الغلايقية والجلامة وأولاد عيار» وفي حالات استثنائية ونادرة يشتم أحد أبناء العروش المهيمنة أمّ أحد أبناء العروش المهيمن عليه «الجلاص» أو «الجنادبة»..

الوضع قبل التحول إلى منتصب لانظامي و مسار الالتحاق إلى هذه المهنة :

أغلب الذين حاورناهم وطرحنا عليهم هذا السؤال كانت إجاباتهم بشكل عام أنهم لم يتجاوزوا السنة التاسعة من التعليم الأساسي ولم ينحدروا عن السنة الرابعة مع استثناءات قليلة بعد مغادرتهم لمقاعد الدراسة لم تتمكن الدورة الاقتصادية المحلية من استيعابهم فقد عبروا عن فقر في الاستثمارات بجهاتهم فلا مصانع تحولهم إلى عمال. أما الفلاحة فتقليدية وتفتقر إلى الاستثمار الجاد ليتحولوا إلى فلاحين إضافة إلى ملكيات اشتراكية تسيطر عليها علاقات القرابة العروشية فتخضع عملية الاستثمار الفلاحي إلى موانع قرابية فمن يسيطر أولا على الأراضي الجماعية يستثمر بقدر يوفر له الكفاف فقط ويضع عراقيل أمام أقربائه ليستثمروا بدورهم إضافة إلى عزوف الشباب عن العمل الفلاحي وسعيهم إلى البحث عن الاعتراف. هذا ما عبر عنه أحد الباعة ذو 17 سنة عندما صرح لنا بأنه لا ينوي العودة إلى مسقط رأسه حتى يتحرر من رقابة الأهل ويتمكن من ربط علاقات غرامية دون تحمل عواقبها. وعندما تساءلنا عن هذه الرقابة واستحالة ربط هذه العلاقات المنشودة في مسقط رأسه أجاب: «الكلنا نعرفوا بعضنا وما يجيش تطيح مع بنت عمك ولا بنت خالك وحتى كان انت تحب هي ما تركحلكش خاطرها تخاف وزيد تنجم تولي مشاكل كبيرة والناس الكل يجوا ضدك وزيد الحكاية صعيبة شوي تحسها كيف أختك ما تنجمش تطيح معاها» .

هـذا التشـخيص الـذي قام به هذا الشـاب يطـرح إشـكاليات إتنولوجية كبرى فـأن تعتبر ابنـة العـم أو الخـال مثل الأخـت إذا ما تعلـق الامر بعلاقة غراميـة ثم نجد أن أغلـب الزيجات مـن هـذا النوع فهـذا يحيـل إلى فرضيتـين أن التمثـل الاجتماعي الـذي يتبناه الباعـة للأنثى يفـسر بنـاء الذكوريـة بنهـج إسـبانيا وطريقـة تمثلهـم للأنثـى في الفضـاء العـام وطريقة تعاملهـم معهـا أمـا الفرضيـة الثانية أن نظام الـزواج لديهم يخضـع لقاعدة الـزواج الداخلي بشـكل إكراهـي لا يقـوم عـلى الاختيـار الحر فكما عـبر لنا عـدد من الباعـة عندما سـألناهم كيـف تعرفتـم على زوجاتكـم كانت الاجابة بأنهـا تمت عن طريـق الأم أو الأب فـكان الوالدان يعرضـان على الأبنـاء الارتبـاط بأحد بنات الأقـارب فتصبـح القريبة موضـوع زواج مقنن في حـين أن الغريبـة في نهج إسـبانيا موضوعا جنسـيا .

لقـد دخـل أغلـب الباعة هـذه المهنة عن طريق وسـيط هـو في أغلـب الأحيان مـن الأقارب أو بدرجـة أقـل مـن المعـارف حسـب الحـالات التـي تواصلنـا معهـا. لكـن الجديـد في هـذا المجـال هـو أن الكثـير من الباعـة الأطفال قـد انقطعوا عـن الدراسـة لغاية التحـول إلى باعة لانظاميـين. وعندمـا طرحنـا على أربعة منهم سـؤال لمـاذا لم تواصـل دراسـتك لتضمن مهنة أخـرى في المسـتقبل نظاميـة و أقل خطرا من هـذه المهنة؟ فكانـت إجابتهم بأن «الدراسـة ما توصلـش». وقـد ذكـروا لي عدة نماذج مـن الباعة الذيـن تحولوا إلى أثرياء بسـبب هـذه المهنة كمـا ذكروا بعـض الحالات لمـن واصلوا دراسـتهم ثـم التحقوا بنهج إسـبانيا لانسـداد الآفاق أمامهـم فـكان قرار هـؤلاء الأطفـال بالانقطـاع عن الدراسـة و مزاولـة هذه المهنـة اختصارا للمسـافة لأنهـم يـرون أنه بالدراسـة أو مـن دونها هذا هـو مسـتقبلهم الوحيد .

تخضـع صـيرورة الالتحـاق بهـده المهنـة لـشروط موضوعيـة يجـب أن تتوفـر في الأفراد ليتمكنـوا مـن التحـول إلى منتصبـين لا نظاميـين فالملمح العـام للمنتصـب اللانظامي في نهج إسـبانيا يشـتمل عـلى الخصائـص التالية :

- أن يكون منتميا إلى الجهات الداخلية للبلاد.
- ينتمـي إلى أحـد العـروش التاليـة : الغلايقيـة أو الجلامـة أو أولاد عيـار أو الجنادبـة أو جلاص .

- انقطع مبكرا عن التعليم.
- ملفوظ من الدورة الاقتصادية الرسمية.
- يتمثل قيم المجموعة القرابية التي ينتمي إليها.
- لا يملك صنعة أو تكوينا مهنيا أو مستوى دراسيا معتبرا أو أملاكا من شأنها أن توفر له مهنة أخرى ماعدا ملكية الأراضي الاشتراكية.
- مرجعيتهم في الحياة الدين و التقاليد .

هذه هي الخصائص العامة للمنتصب بنهج إسبانيا مع بعض التفاوتات في ما بينهم أو بعض الاستثناءات مثال المنتصب إبراهيم الدي يتميز بملمح مختلف تماما .

لا يعني التوفر على هذه الخصال المحددة للملمح العام للمنتصب اللانظامي بنهج إسبانيا ضرورة الالتحاق بهذا العالم فهذا الأمر خاضع إلى عامل آخر محدد وهو حضور أو غياب أحد الباعة الذي سيكون بوابة عبور لمن توفرت فيه الشروط الموضوعية لهذا العمل، والذي سيكون بدرجة أولى أحد الأقارب، و بدرجة أقل من الاصدقاء أو المعارف. ويتحول بذلك من معطل عن العمل إلى فاعل في الاقصاد اللانظامي. فالمداخيل التي يوفرها هذا القطاع لمنتسبيه تعد جد محترمة إذ تساوي الأرباح خمسين في المئة من المداخيل العامة. فمثلا عندما يكون المدخول 100 دينار فإن صافي الأرباح 50 دينار وهذا المثال هو أقل الحالات مدخولا التي لاحظناها وهي حالة طفل سنه 16 سنة ينتصب على صندوق كرتوني يبيع ألياف جلي المواعين بحساب دينار واحد للأربعة عشرة قطعة وكان يبيع يوميا ما بين 100 و 160 مجموعة مكونة من 14 قطعة.

تتغيّر هذه النسب من الأرباح بحسب البضاعة المعروضة والموسم فبعض السلع الموسمية نسبة الأرباح فيها تتجاوز 300 في المائة مثل أكياس تخزين اللحوم المرتبطة بموسم عيد الإضحى وبين مائة بالمائة إلى مائة وخمسين بالمائة بالنسبة للألعاب والملابس المتعلقة بعيد الفطر وكذلك الأدوات المدرسية. إضافة إلى أن هذه التجارة خالية من كل أشكال الضرائب ماعدا بعض الإتاوات التي تقدم للمسؤولين و أعوان الشرطة البلدية

أو الخسائر التي تلحق بالبضائع أثناء الحملات البلدية. إن ما يوفر لهؤلاء الباعة سلعا خالية من الضرائب هم باعة الجملة فقد تحولنا إلى نهج الكوميسيون ونهج سيدي بومنديل وبحثنا عن أسعار بعض السلع لدى هؤلاء المزودين فكان المزود إذا سألنا عن سعر القطعة يعرض سعرا معينا وإذا ما انتحلنا صفة بائع تفصيل وتساءلنا عن سعر الجملة يتغير السعر بشكل راديكالي لينخفض إلى النصف أو أكثر فسعر الصالصال مثلا 2500 بحساب القطعة و 1400 بحساب الجملة وكذلك ملصقات الأطفال أما الأقلام الجافة فسعر القلم 500 مليم وسعر الجملة 230 مليم. وأهم عنصر في كل هذا أن باعة الجملة لا يوفرون فاتورات لباعة التفصيل .

تخضع عملية التحول من منتصب مفترض أي حامل للشروط المحددة للملمح العام إلى منتصب بالفعل إلى أربع عناصر رئيسية و هي :

- السمات العامة الذاتية التي قمنا بتحديدها سابقا.
- شخص سيتولى تأمين عملية الولوج إلى هذا العالم.
- سهولة الحصول على هذه السلع التي لا تحتاج إلأى رأس مال كبير فتكفي خمسون دينارا لتكون راسمال أولي للمنتصب الجديد.
- مرابيح محترمة تؤمن تواصل هذه المنظومة فالبائع يتمكن من مرابيحه من تسديد حاجياته الشخصية وحماية رأس ماله والترفيع فيه بعد مدة وجيزة من العمل .

ننتقل الآن من تحديد الشروط الموضوعية لامتهان الانتصاب اللانظامي إلى تأثير هذه المهنة على أصحابها. فقد حددت هذه المهنة جملة من السلوكات التي ينتهجها المنتصب اللانظامي. فعلى مستوى الاستهلاك فإن أغلب حاجيات هؤلاء الباعة مصدرها هذه الأسواق اللانظامية مثل الملابس التي يبيعونها والسجائر المهربة وفي بعض الأحيان بعض السجائر المحلية المتوسطة سجائر 20 مارس وسفير وكريستال. أما البقية الغالبة فهي سجائر مهربة رخيصة مثل بون أوريس نيرو .. أما على مستوى الأكل فهو يفتقر لمقومات الأكلة الصحية المتكاملة وهو عادة كفتاجي أو صحن تونسي أو ملاوي .. في حين أن

البعـض يأتـون بأكل مـن المنزل (مقرونة شكشـوكة) والبعـض الآخر يأكلون بشـكل جماعي عـبر الاشـتراك في ثمن أكلـة. وينتقل آخـرون إلى المطاعم الشـعبية المحاذية لنهج إسـبانيا. أما عـلى مسـتوى الصحـة والنظافـة الشـخصية فكمـا أشرنا سـابقا إلى عـدم الانتظـام في تقليم الأظافـر فأغلبهـا متسـخة نوعا مـا و يختلف طولهـا من بائع إلى أخـر كذلك الاغتسـال لا يتم بشـكل دوري و هـذا نلاحظـه من خلال حالة الشـعر المزيتة والرقبة المتسـخة لأغلـب الباعة .

أثنـاء ملاحظتنـا للباعـة في المطاعم الشـعبية المحاذيـة لنهج إسـبانيا قدرنا أن نسـبة 30 في المائـة منهـم قامـوا بغسـل أيديهم بعـد الطعـام و 5% قبل الطعـام و بعـده و 10% قبل الطعـام . هـذه الملاحظـة يمكـن مـن خلالهـا وصـف الوضـع الوقائـي لهـؤلاء الأفـراد بأنه مـترد للغايـة. إنّ المنتصـب اللانظامـي في نهج إسـبانيا فـرد ينتمـي إلى المجتمـع التونسي له أحلامـه المشروعـة كالعمـل وتحصيـل الثـروة وتحقيـق الاندمـاج الاجتماعـي إلا أنـه ضحية للـدورة الاقتصادية الرسـمية وفاعل في الـدورة الاقتصاديـة اللانظامية إذ يرى أنه يسـاهم في الاقتصـاد الوطنـي بتوفـيره لسـلع ذات أثمـان منخفضة من شـأنها أن تخفف عـن المواطنين غلاء المعيشـة .

ولأنّ الملاحظـة الميدانيـة لـم تمكّنا مـن الإحاطة بشـكل كاف بحالة الباعة في نهج إسـبانيا، لذلـك ننصـح بالقيـام بمقابـلات كيفيـة مفتوحـة مع عـدد من هـؤلاء الباعة نستكشـف من خلالهـا مـا اسـتغلق علينـا الإحاطـة به عـن طريـق الملاحظـة المبـاشرة. فالاندماج مـع هذه الفئـة مـن الناس تصطدم بحواجـز ثقافية. إذ تقيّم هـذه المجموعة الآخر وفـق ثلاث محددات رئيسـية: وهـي الإثنية المركزيـة والأحكام المسـبقة والآراء الشـائعة. فمجرد حملنـا لكاميرا أو وثائـق نـدون فيها ملاحظاتنا من شـأنه أن يسـتنفر في هـؤلاء الباعة ردات فعل غـير إيجابية فقـد قوبلـت الكامـيرا بالاسـتهزاء والتحقـير مـن نـوع: «**سـيبونا نحـن و بـروا صـوروا الأحيـاء الشـعبية**». وفي بعض الأحيـان إلى حد الاتهـام بالعمالة «**باعثينهم اسـيادهم**». أما الاختـلاف في اللهجـة فجعلهـم يعتقدون أننـا كما صرح أحدهـم «*** **تضيّـع في وقتها**» ●

ملحق
2

ملاحظات للقارئ

هـذا المؤلـف جماعي، سـاهم فيـه مجموعة مـن الباحثين لحظـة البحث الميدانـي وتدخلت في تأليفـه مجموعـة أخـرى مـن الباحثـين الدكاتـرة وباحثـي الدكتـوراه مـن اختصاصـات متعـددة مـع اعتمادهـم جميعا عـلى المـادة الامبيريقيـة التـي أنتجناهـا طيلة عمليـة البحث الميدانـي في نهـج إسـبانيا. كل محـور هو مـن تأليف باحـث متخصص ويوجد اسـم الباحث ولقبـه في الفهـرس وتعريـف موجز بـه في آخـر الكتاب.

تـم اعتماد منهـج Chicago (A) لإعداد الهوامـش البيبليوغرافية وقائمـة المراجع في كامل العمل.

اختـير الباحثـون وفـق ضوابـط موضوعيّة بناء عـلى تخصصهـم في مجالهـم وعلاقة هذا التخصـص في هـذا المجـال بإشـكالية الدراسـة ككل وموضـوع المحـاور المتفرعة عنهـا. أما ذاتيـا، فالزمالـة في الجامعـة وتجربـة العمـل المشـترك الناجحـة في إطـار المنتـدى التونـسي

للحقــوق الإقتصاديــة والاجتماعيــة التي جمعــت المحرر بعدد مــن مؤلفي هــذا العمل جعلتهم مرشــحين أكثــر مــن غيرهم لتأليــف هــذا الكتاب.

نعتقــد أنّــه مازال بالإمــكان إضافة عدة محــاور في هذا الكتــاب ومعالجة أكثــر من زاوية، لكــن لا يتســع أي كتــاب لــكل المعالجات ولــكل التحليــلات. ربما في المســتقبل القريــب نعمل عــلى الانطلاق من هــذا العمل لتطويــر مقاربتنــا لظاهرة الاقتصــاد الشــارعي والظواهر التي تغضــب عليهــا الدولة وبالتــالي ترفض فهمها وتفســيرها.

إنّ مواقــف وآراء المحرر/المنســق والمؤلفــين لا تمثــل بالــضرورة المنتدى التونــسي للحقوق الإقتصاديــة والاجتماعيــة الــذي يؤمن بفتــح المجال أمــام الباحثــين للتعبير علميــا وتمكينهم مــن آليــات الفعل الأكاديمــي الضروريــة دون «ســنسرة» أو توجيه ●

ملحق
3

السّوسيولوجيا عبر الصّورة

وثائقي البحث بعنوان:
«سوق نهج إسبانيا، أو مناهج الاقتصاد الشارعي في تونس»

طيلة البحث الميداني رافقنا مخرج/ مُصوّر محترف وثّق العملية البحثية الّتي أنجزناها في نهج إسبانيا كما تدخّل معنا في حيثيّات استقاء المادّة الإمبيريقيّة عبر عدسته. ثمّ حوّلنا المادّة المُصوّرة، بعد مونتاج سوسيولوجي إن صحّ التعبير، إلى وثائقي قصير يوثّق بحثا سوسيولوجيّا ويتدخّل ليجعل من أفراد لا تودّ (أو لا تستطيع) عين الدّولة إبصارهم، إلى ذوات مرئيّة وواقع مسبورة أغواره.

وبالتالي، قد اعتمدنا مقاربة السّوسيولوجيا عبر الصّورة بما هي منهج بحث وشكل من أشكال توثيق عملية البحث وإخراجها في مظهر فنّي يعزز إمكانيّات وصول فكرة هذه الدّراسة إلى جيل جديد وفئة أخرى من المهتمّات والمهتمّين بعالم البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.

لقد كان المخرج باحثا ساعدنا عبر الكاميرا في مرحلة أولى من البحث الميداني على

إنجـاز الملاحظـة الكمية لتحديـد مجتمع البحث ثـم قام بتوثيـق عملية بحث مركبـة ومعقدة تراوحـت بـين اعتمـاد المنهـج الكمي ثـم الكيفـي والإتنوغـرافي مع تسـليط الضوء عـلى ما لا تسـتطيع أن تـراه تقنيات البحـث الكلاسـيكيّة كما منـح المبحوثين صورة وصوتـا وحضورا لا يمكـن للقلم الباحـث أن يمنحه بالطّريقة نفسـها.

تجـدون الفيديـو الخـاصّ بالفيلـم الوثائقـي القصـير، عـلى الموقـع الإلكترونـي للمنتدى التونـسي للحقـوق الاقتصاديّـة والاجتماعيّـة وعـلى حسـابه في موقـع اليوتيـوب ●

موجزات تعريفية لمؤلّفي هذا العمل

سُفيان جاب الله [المحرّر]

باحث أكاديمي متحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية والدينية، أستاذ يدرِّسُ علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، عضو بمخبر البحث ECUMUS وباحث مهتم بدراسة الحركات الاجتماعية والدينية الجديدة ومسألة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

محمد سليم بن يوسف

باحث دكتوراه في علم الاجتماع السياسي بمعهد البحوث المغاربية المعاصرة. تتعلق بحوثه بتحولات العلاقات الشغلية في تونس بعد الثورة، ويدرس من خلال اطروحته أشكال الاحتجاج والتنظم داخل أماكن العمل، مع الاهتمام كذلك بالاقتصاد السياسي لظروف العمل وبسوسيولوجيا الهيمنة الشغلية.

إحسان ماجدي

طالب دكتوراه بجامعة اكستر، انجلترا. معهد الدراسات العربية والإسلامية.
متحصل على الليسانس في العلوم السياسية والادارة العامة والماجستير في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية.

خالد طبابي

باحث في علم الاجتماع –مرحلة الدكتوراه– بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. صدرت له مقالات ودراسات كانت محكّمة أو في إطار كراسات ومواقع المجتمع المدني. زميل في برنامج نحو جيل جديد للباحثين في العلوم الاجتماعية بالمنطقة العربية التابع للمجلس العربي للعلوم الاجتماعية –2021 2023. عضو بالمدرسة الدكتورالية للجامعة المواطنيّة في إطار برنامج مكتب التعاون الأكاديمي لمؤسسة روزا لكسمبورغ 2022.

رضا كارم

باحث في الحضارة العربية الإسلامية، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة سنة ثالثة دكتوراه. لنا مجموعة من المقالات بصدد النّشر ضمن أعمال جماعيّة ومقال محكّم سيصدر قريبا وجميعها تتعلّق بمقاربة الميدان من منظور الدّراسات الذّكوريّة والجندريّة.

محمد آدم المقراني

محامي معتمد في تونس والجزائر، باحث في العلوم القانونية متخرج من جامعتين السربون باريس 1 وقرطاج. عمل كمستشار مع منظمات غير حكومية في عدة مجالات أبرزها المسؤولية المجتمعية للمؤسسات والاقتصاد التضامني والاجتماعي وسياسات الهجرة والحقوق والحريات الأساسية.

مالك قطاط

طبيب مساعد في الطب والعلاج النفسي بألمانيا، طالب في ماجستير علوم الصحة العامة بالمعهد الملكي بلندن ومؤسس ورئيس جمعية قرطاج للصحة.

زياد حمدي

متحصل على الاجازة في الخرائطية من كلية الاداب والعلوم الانسانية بصفاقس، تقني في lux- cartagroup: 3D mapping & digital Maps for 5 G mapping وباحث في تاريخ الخرائط و مهتم بالأدب و السينما.

زياد خلّوفي

أستاذ تعليم ثانوي طالب دكتوراه في التاريخ والآثار والتراث بكليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس وعضو بمخبر الاقتصاد المتوسطي ومجتمعاته، باحث في مجال الخرائط العربية والإسلامية في المتوسط والآثار الإسلامية. ناشط سياسي واجتماعي، عضو مكتب تنفيذي سابق للاتحاد العام لطلبة تونس.

سوق نهج إسبانيا أو منهاج الاقتصاد الشارعي: في تونس

«فالمورّد الحدودي للسلع بصفة غير قانونية، أو المهرب/ الكناتري في رواية أخرى، يهرّب السلع، بقيمة عشرات أو مئات الآلاف من الدنانير يوميا، عبر الحدود على متن شاحنته الرباعية الدفع مواجها خطر الموت رميا بالرصاص أو في حادث مروريّ أو السجن في مواجهته لحرس الحدود الذي يترصده ويلاحقه، ليس هو البائع الذي يبيع سلعا بقيمة مئات الدينارات يوميا في نهج إسبانيا. فالأول هو امتداد تاريخي للفارس في القبيلة الذي كانت عائلته قادرة على توفير الحصان والسرج والسلاح (ما يعادلهم شاحنة الـ Isuzu أو Toyota اليوم) لتحتكر شرف حماية القبيلة وما ينتجه هذا الشرف من فوائد (أي مراكمة رأس مال رمزي ينتج أو يحافظ على إنتاج رأس المال المادي وبالتالي بقاء القبيلة).

من نافلة القول التّأكيد أنّ شباب العرش ليسوا جميعا قادرين أن يصيروا فرسانا، «كناترية» في عصرنا وسياقنا وواقعنا، وذلك مرتبط بقوة الوحدة التنظيمية العائلية داخل القبيلة ككل مما يفرز طبقتين: طبقة عاملة متمثلة في الباعة في نهج إسبانيا تبيع ما تورده لها طبقة ثرية (مالكة ومتحكمة في وسيلة الإنتاج) متكوّنة من المورّدين الكبار، أي العائلات صاحبة رأس المال الذي ولّدته من توريد السلع، عبر أبنائها، لهؤلاء الباعة، على حدود الجزائر. يجب ذكر أن البائع لا يدفع ثمن البضاعة إلا بعد أن يبيعها في إطار تعامل تحدّده الوشائج الأولية القبلية بين الطبقتين السالف ذكرهما. وأن تكون بائعا لا نظاميا للسلع أو أن تكون مورّدا حدوديا غير نظامي لها، فذلك مرتبط أساسا بقَدَرِكَ (Destin) الاجتماعي أي موقع عائلتك ورأسمالها الرمزي والمادي: فهل هي منتجة للعمال أَم للفرسان؟ فلشراء سيارة والسماح لك بقيادتها حدوديا وجب أن تنتمي إلى عائلات معينة داخل العرش لها علاقاتها مع الأمن الحدودي (حرس حدود وديوانة) ومع الضفة الأخرى (الوحدات القبلية الجزائرية المجاورة/المتصاهرة أو المتشاركة في الانتساب لأصل قبلي مشترك التي تبيع لهم السِلع/والأمن الحدودي في الجزائر). كذلك هناك، في مستوى تحليلي آخر، شخصيات قادرة على المخاطرة ومقدمة عليها وهناك شخصيات تخشاها. وحسب شجاعة الفرد ومدى قابليته للمخاطرة بحياته، في علاقة طبعا بما هو رأس مال مادي للعائلة، تتحدد نوعية مواجهتك للدولة وكمّية مرابيحك وكيفيّة تحقيقها: أن تواجه شرطة بلدية تنهرك أو تشتمك من أجل فائض ربحي مقداره عشرات الدنانير يوميا وأن تواجه رصاص حرس الحدود من أجل مئات الالاف من الدنانير. إذن باحتكار مهنة التوريد، يستوجب على الفئة الموردة تسليم وظيفة البيع، في إطار تقسيم للعمل، لفئة أقل في سلم الهرم الاجتماعي وهي فئة الباعة اللانظاميين في نهج إسبانيا، موضوع دراستنا».

ISBN: 978-9938-72-546-9

IDRC | CRDI
International Development Research Centre
Centre de recherches pour le développement international

AR

الملتقى العربي للحماية الاجتماعية من كوفيد